





**** معرفتي ****

الطبعة الثالثة

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الابتسامه

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

أيام ميه

الكتاب .. شعرا بيل

الكتاب .. شعرا بيل

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
بيروت - لبنان

باعتدال

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

فكرت طويلاً ، قبل صدور الطبعة الاولى
لهذا الكتاب ، في موضوع الأهداء ، واحترتُ .
احترت لأنني لم ادرِ أي مكان سيحتل
كتابي في قلوب القراء .

ودامت حيرتي اسابيع ، حتى آثرت أخيراً
ان أتركه يسير على غير هدى ، ويشق طريقه
بنفسه في عالم الخبر والورق .

أما الآن ...

وبعد ان سمعت الكثير ... وقرأت
الكثير ... مما قيل في القصة ، وكتب حول
موضوعها ، فقد رأيت أن أضع الأمور
في نصابها ، وان اعطي كل ذي حق حقه .

ولذا يطيب لي أن أجعل من كتابي هدية
صغيرة أقدمها إلى عزيز عليّ وغال في قلبي :

قارئي العزيز

« أيام معه » قصة املاها عليّ واقع
جيلنا الحاضر كما أراه أنا .

إذا كنت قد اخطأت - كما قال البعض
واكد - في إثارة الموضوع اصلاً ونشره ،
او في سرد الحوادث وتصويرها ، فأنا إنسانة
والمرء يخطئ ويصيب ، والعصمة لله وحده .
وفي هذه الحال يسرني أن اهدي قصتي
هذه ، إلى الجيل نفسه ، إلى جيلي ، لأنها منه
فلتهد اليه ، علّه يتخذ من أحداثها عبرة .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

وأما إذا كنت قد أصبت وأحسنت – كما
قال الدين يرون الحياة كما أراها ، ولا يخافون
مجاهة الواقع – وكان كتابي يستحق فعلاً
القراءة ، فإنه يشرفني ويسعدني أن أرفعه
إلى الشيخ الكبير الذي علمني القراءة والكتابة ،
وغرس في نفسي حب اللغة العربية ، وزين
لي عبادة الحرف ...

إلى أحد اساتذة هذا الجيل

إلى جدي الحبيب

فارس الخوري

مع احترامي وحي

كملت

سأملأ كأسِي بِرِ حِيقِ الفَن ...
فالفَن نَبِيعُ فِياضٍ ، دَفَقَ وِجودُ لا
يَنضَب ...
مِها غَرَفنا مَنه يَظَل يَغرِقنا بِالجِمال ...
ومِها نَهلنا مَعه يَظَل يَسكرنا بِالآمال
والحُب ...
سأهَب حِياتِي لِلحَرف ...
سأَجعلُ مَنه إلهِي ورَفِيقِي وعِبدِي
فأَمره ، ساجِدة... وأَعبده ، سِيدة...
وأشكو إِلِيه هُمومِي كإنسانٍ حَبِيب ...

القِسْمُ الْأَوَّلُ

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة



زحفتُ نظراتي ببطء وبرود ...
فتسلقتُ قامته المديدة ... وتوقفتُ ، غريبةً ، عند
ثغره ... ثم راحت تنبش في عينيه ... وتبحث فيهما
عن شيء ... عن أي شيء ... عن أثر من احساساتي
الماضية ...

ولكن عبثاً !

هذه العيون التي كانت تشع ، وتوحي اليّ بالوف
المعاني ، تبدو فارغة ...

وهذه الشفاه التي كانت تصبّ الحياة في وجهي ...
وفي مقلتيّ ، تبدو متدلية ... تدلّ على السذاجة ...
هذا الرجل المنتصب امامي ...

طالما وددت لو اتلاشى في ظله ...
طالما تمنيت ان اضمحل بين ذراعيه ... يسلمو
سترهلاً ... عادياً ...
إني أنظر اليه ، وكأني أراه لأول مرة !
أخذت من يده الكتاب ... ومشيت نحو الباب ...

*

خرجت إلى الشارع بخطوات ثابتة .
شعرت بأن شيئاً قد حرّر قدمي من القيود ... ما
أجمل هذه الليلة .
الجو هادئ ، والسماء تعكس على صفحاتها صفاء
قلبي . وهناك ، بين النجوم المبعثرة تلمع آمالي ، فتشوق
لحياتي آفاقاً جديدة ...
ركبت سيارتي وقدمتها على غير هدى ... احسست
بحاجة الى التحليق في الفضاء ، أردت أن أطير ، لأستقبل
على وجنتي بوح النسيم العليل ... ولأستنشق عبير الحرية ...
حررتني من نفسي ...
وعاد بي التفكير إلى الماضي ، وتوالت الأيام صوراً
في مخيلتي ، وأخذت أستعيد الذكريات دون أن احياها ،
كأنني أشاهد شريطاً سينمائياً ، تدور حوادثه أمام عيوني ،
ولا يؤثر في نفسي بشيء .

*

١

على حطام امنيات بعيدة ... وعلى اشلاء ماضٍ بدأ
طويلاً برغم قصره ... وفي نفسية كرهت الحياة من
حبها الحياة عاشت قصتي منذ سنة تقريباً ...
أيام وأيام قبلها مرت ، وسنون طواها الدهر وغابت ،
وذكريات حزينة نامت في حنايا النسيان ... كلها تنبعث
الآن من ذاكرتي ، ليمرّ بعض حوادثها صوراً خاطفة أمام
ناظري ، يمهّد سبيل هذه القصة ، ويعطيها معناها الحقيقي .

أعود إلى السنة التي تركت فيها المدرسة ، بعد ان حصلت
على شهادة « البكالوريا » ، وكنت في السابعة عشرة .
وملأ النجاح حاضري بالنشاط ، وزيتن مستقبلي بالآمال ،

لكن والدي رفض أن اكمل دراستي وأدخل الجامعة ، لأن
الفتاة في بلدي ، لا حاجة بها الى الشهادات العليا !
زلزلي رفضه !

كيف ... كيف أقبل أن اعيش حياة تافهة ؟
كيف ارضى أن أعيش بين اربعة جدران ، أقتل طموحي
بالممل ، وادفن آمالي في انتظار العريس ؟
لا !

أنا لم اوجد فقط لأتعلم الطهي ثم اتزوج فأنجب اطفالاً
ثم أموت !

إذا كانت هذه هي القاعدة في بلدي فسأشذ أنا عنها ...
أنا لا أريد ان اتزوج !

أنا أريد ان اعيش حياتي ، لا ان ترسم حياتي ! اريد
ان أحصل على شهادات عالية ... أريد ان ادرس الموسيقى ...
ان اتعلم الغناء ... ان اكتب الشعر ... ان أرسم ... ان اعمل ..
ان اشتغل ... ان أسافر ... أريد ... أريد ... أريد ...

وكم وكم يريد طموحُ السابعة عشرة !
يريد ابتلاع الدنيا لأنه لم يتركز على فكرة معينة بعد ،
يتبعثر في كل نواحي الحياة ، لأنه لم يجد توجيهاً من الأهل ،
يجعله يختار مجرى حياته الحقيقي الواحد ، فيصب فيه نياره
الجامح .

حاولت بجميع الطرق أن اقنع والدي كي يتنازل عن رأيه ،
غضبت ... ثرت ... حزنت ... مرضت ... واخيراً ، رضخ

الأمر مستاء ، وقبل أن أدرس ولكن ... بالمراسلة . ومع اني
لا أومن بطريقة الدراسة هذه ، فقد وجدت فيها عزاءً
بسيطاً ، ومنفذاً ولو ضيقاً ، انثت فيه بعض طموحي .
وبقيت في البيت ، أهرب من جفاف أوراق الحقوق ،
لأرتمي في نداوة الشعر .

ولم يكن في البيت سوى والدي واختي الصغيرة رانية ،
وكانت في العاشرة من عمرها ، والمربية والخدمة دنا .
ولكن ... حتى كتابتي الشعر كانت لا تخلو من معاكسات .
فقد كان عمي يقول للجميع :

- هذه الفتاة ليست متزنة ! لماذا تنشر أشعارها في
المجلات ؟ وماذا تفيدها كتابة الشعر ؟ إنها فتاة غريبة
الأطوار ... منطلقة ... تصرفاتها لا تعجبني مطلقاً ...
إنها تخلق لنا مشاكل ...

وكانت هذه الآراء تسرّ الناس طبعاً ، وتلقى في نفوسهم
ترحيباً ... وكانت تجرحني أنا .

المجرد أنني شابة ، وصريحة ، واكتب الشعر ، يجب
أن احاكم في هذا البلد ؟

حتى أنني كنت في بعض الأحيان اشك في نفسي ،
واتساءل إذا كنت فعلاً تلك الفتاة التي تخلق مشاكل
لأسرتها ، لسبب وحيد ، هو ان نفسها لا تخلو من الطموح ،
وانها تطالب بكرامتها كأنسانة تريد أن تحيا ...

وبعد شهرين من دراسة غير مجدية ، قررت أن اذهب

إلى الجامعة مهما كلفني الأمر ، وعدت أقنع والدي ،
فاستاء وغضب ، وابتدأت مناقشاتنا ، وتعكّر جو بيتنا ،
فلم أجد بداً من الرضوخ ، يائسة ناقمة ، وطرحت فكرة
العلم من دماغي ، وساعدتني على ذلك الظروف : ففي
تلك الفترة بالذات تعرفت بالفريد .

كنت أعلم منذ صغري بأن لوالدي ابنة عم متزوجة في
فرنسا بثري كبير ، وأن ابنها الوحيد ، ألفريد ، قد يأتي
في يوم من الأيام ، لزيارتنا في دمشق .
واقبل ذلك اليوم .

ودهشت حين قال لي والدي ان ألفريد سيقم عندنا ،
برغم معارضة عمي الذي ثار على هذا الرأي ، وانتقده ،
ثم فهمت ان تصرف أبي كان بدافع احترامه لذكرى
أمي ، فاحترمته ، وشكرته في اعماقي .

لم اكن اعرف عن ألفريد سوى أنه في الثانية والعشرين
من عمره ، وانه يتكلم الفرنسية والانكليزية ، وقليلًا من
العربية ، وانه رسام من الطراز الأول .

ومنذ اللحظة الاولى من لقائنا تبادلنا الإعجاب . فقد رأيته
من بعيد يتحدث مع والدي ، وخالي سمير ، وزوج خالي ناديا ،
فركضت اليهم ، وتطايرت خصلات شعري الطويل في الهواء ...
ووقفت ...

مذهولة ، أمام جمال إطلالته ، وشبابه المتدفق ، وتوقف .

الحديث بمجئني ، والتفتَ إليّ ألفريد ، يتأملني ، مستغرباً ،
وتهلل وجهه ، وكأنني حورية هبطت عليه من السماء ...
وقبل ان ينطق ايهم بأية كلمة ، قلت له بعفوية ،
اقدّم نفسي بالفرنسية :

— *Bonjour ... Mo i ..,*
je suis Rime ...

أشرق النور في وجهه ، وأطربني الابتسامة الهادئة في
عينيه الحضراوين ، وتتم ، بعد لحظة سكون :
Moi ,.. je suis en extase !

*

إقامة ألفريد بيننا جعلتني اكتشف معاني جديدة في حياتي .
فمن احاديثي معه ، ابتدأت أعرف آرائي . ومن تصرفاتنا ،
صرت أفهم عاداتي . ومن اعجابنا المتبادل ، نما احساسي بأنوثتي
ومع الأيام تحول اعجابنا هذا إلى استلطاف ، لست أدري
الآن إذا كان من الصواب ان أسميه حباً .

كنت أريد الهرب من جو ثقيل ، أعيش مرغمة تحت
وطأته ؛ وكان ألفريد إلى جانبي دائماً ، يمثل الشباب ،
والقوة ، والطموح ، والمستقبل ، فلجأت اليه .

أما هو ، وكان لا يعرف شرقنا إلاّ من خلال الروايات ،
فقد كان يخيّل لي أنه يعتبرني اميرة صغيرة شرقية ، من
اميرات الف ليلة وليلة ! كنتُ نموذجاً غريباً ، نادراً ،

يلدّ له أن يُبقّيه دائماً إلى جانبه .
وكان ألفريد يُشعرني بأنه في حاجة إليّ ، وكنت أنا
في حاجة ماسة إلى حاجة إنسان إليّ ، فازداد تعلقي به ،
وحين طلب مني أن أتزوجه ، قبلت فوراً ، مع أنني
كنت دائماً أكره الزواج ، إلا أنني اعتقدت أن زواجي
به هو الوسيلة الوحيدة التي تجعلني أحقق آمالي ، فأكمل
دراستي ، واغذّي ميولي الفنية ، وأكون شخصيتي بحرية .
وعقدنا خطبتنا ، برغم ثورة عمي أيضاً .
لم يعارض عمي لأن ألفريد مبدئياً لم يعجبه ، بل ثار
لأنني أنا التي قررت أن أتزوجه ، ولأن والدي وافق على
قرار اتخذه أنا !

ومتي كانت الفتاة تقرّر ... وتنفّذ ... في بلدي ؟
ولكن آمالي الجديدة خابت في مرحلة الخطبة ؛ فقد ابتدأت
أشعر بأن زواجي بألفريد سوف يرميني في بئر من اليأس اسوأ
من التي أودّ الخروج منها ، إذ نحن لن نتفاهم مطلقاً ، لوجود
اختلاف كبير في آرائنا ، وعاداتنا ، وطباعنا ؛ ثم أن ألفريد
أناني ، أناني جداً ، وهذه الأنانية ستطفئ آمالي ، وتحد من
احلامي

والسبب الأساسي في اختلافاتنا ، هو أن ألفريد لا يريد
البقاء في دمشق ، وأنا يمزّقني فراق بلدي .
وصارت مناقشاتنا تشوب علاقتنا ، وبدأنا نفهم أن
طباع كل منا ، تخنق شخصية الآخر .
وفي ذات ليلة ، وكنت غاضبة ، طلبت منه أن يفسخ

الخطبة فقال محتماً ان لا حاجة إلى ذلك ، فهو سيسافر الى بلده ، فيتم دراسته التي اهملها مدة عشرة شهور ، وانه سيعود إلى هنا بعد سنة .

وقال إن هذه الفترة التي ستفرق بيننا ، ستجعلنا نتخذ قرارنا النهائي في قضية خطبتنا ، واتفقنا على ان يعتبر كل واحد منا نفسه ، حراً طليقاً خلال هذه الفترة .
وسافر ،

ولم يدرك أحد أنه قد لا يعود مطلقاً إلى هذه البلاد ، واني لم أعد اعتبر نفسي خطيبته .

تسلّمت منه رسالتين بعد ذهابه مباشرة ، وفيهما يؤكد لي حبه . ثم انقطعت أخباره ، ومع الأيام ، ظننته نسيني .
ومرت أشهر ...

وابتدأ اليأس يتسرب إلى نفسي ، وشعرت بأن جميع المنافذ قد سدت في وجهي ، فصرت أحاول ان اخلق آمالاً جديدة من « عدم » ، وان اجمع قوتي لمجابهة الواقع ، والصبر عليه . ولكن ، جرى حادث مؤلم سوّد بقايا آمالي ، وسحق انقاض قوتي ، حادث لن اتوقف عنده الآن ، جعل مني ومن رانية يتيمين ... وحيدتين في بيتنا الفارغ ...

ولم أجد حولي في مصيبي سوى ناديا ، زوج خالي ، وهي في الثامنة والثلاثين ، جميلة ومثقفة جداً ، وكانت صديقة أُمي منذ الصغر ، وبرهنت على اخلاصها بما كانت تقدمه لي ولرانية من حنان ، وصداقة وتشجيع .

وتوالت الشهور ، والفراغ يمتص عمري . هذا الفراغ

القاتل ، الذي يحيل حبّ الحياة إلى ملل ، ويخلق من الآمال
يأساً ، ويطفئ بريق العينين .

وكانت اقصى ساعات أيامي ساعات الليل ، حين تنام رانية
والمرية والخادمة دنا ، فأدخل غرفتي الموحشة ، وأرتمي على
سريري ، واغمض عينيّ رغبةً في النوم والنسيان ، فيرغب
النوم عن عينيّ ، وأهبّ من فراشي ، وأقضي ساعات أذرع
أرض بيتي جيئةً وذهاباً ... ثم تحملني قدماي إلى الشرفة ،
فأنظر إلى السماء ، ويلوب خيالي بين النجوم ، وابحث ..
وابحث ، عليّ أجد ... بين النجوم ... انساناً ... عليّ أجد
صديقاً . وكم من مرة ابتسمتُ حزيناً للقمر ، وناجيتُهُ ،
لأنه يسهر كل ليلة وحيداً ... مثلي أنا ...

وكنت استقبل أشعة شمس كل يوم جديد بنظرة يائسة ،
لعلمي ان هذا اليوم سيكون أشد فراغاً من الذي سبقه .
واستبد بي اليأس ، وظل يأكل من حياتي ... إلى أن تمردتُ
اخيراً نفسي ... على نفسي ... فقررت ان اعمل ؛ وتمسكتُ
بالفكرة حتى استحوذت عليّ ، فانطلقت ابحت عن وظيفة .
اذكر تماماً كيف ذهبت إلى وزير الاقتصاد وكنت أعرفه ،
إذ كان استاذي في المدرسة وأنا في صف البكالوريا .

دخلت مكتبه وأنا اقول :

— استاذي ، صباح الخير .

— اهلاً ... اهلاً وسهلاً ... ما هذه المفاجأة ؟

ابتدريته فوراً :

– لقد قرأت في صحيفة انكم تريدون موظفات وها
أنا اتقدم لأعمل هنا .

اتسعت عيناه دهشة ، ثم استغرق في الضحك :

– ما هذا المزاح ؟ تعملين هنا ؟ أنتِ ؟ لماذا ؟

أجبت به بشيء من التحدي :

– ولماذا لا أعمل ؟

– لأنك لست في حاجة إلى مال على ما أعلم ...

عجبت كيف يتفوه هذا الرجل الذي احترم ، بجملة

تافهة كهذه ... وقلت :

– أعتقد ان الغاية من العمل هي كسب المال فحسب ؟

ألا تعتقد مثلي ، ان العمل مسؤولية ، وان المسؤولية تعطي

نوعاً ما ، هدفاً للحياة ؟

كان يستمع إليّ ، ويتسم بأعجاب :

– يسرني أنك لم تتغيري منذ أيام الدراسة . كنت دائماً

معجباً بجرأتك وبارادتك ... ثقي أنني أرحب بموظفة نشيطة

مثلك ... ولكن وظيفتك ستكون صعبة .

ضحكت :

– ثق أنني ارحب بالوظيفة مهما تكن .

هزّ رأسه :

– أنت مثال الفتاة القوية ، المندفعة بإيمانها بالحياة ،

والتي لا تتقهقر أمام الصعاب ...

راحت نظراتي تكتب على حائط المكتب هذه الكلمات :

« قوية ! مندفعة ! نشيطة ! لا تتقهقر ... لا تتقهقر ... »
لا تتقهقر ... »

وابتسمت هازئة ... يا للسخرية !
انه لا يعلم ان إرادتي ان أعمل ، هي نتيجة تقهقري
المواصل أمام الفراغ ... وأمام الوحدة ... وأمام الملل ...
— اذكر انك كنت قوية في مادة الرياضيات ، سيكون
عملك في هذا المضمار ... الحسابات ... وستبدئين غداً ...
ما رأيك ؟

كدت الا أصدق ، وهتفت :
— عظيم ... « الف شكر »
وجاء بأوراق ، ملأت بعض الفراغات فيها ، ووقعت
اسمي في نهايتها .
من يومها ، ارتبطت بالوظيفة .

*

لم يفهم الأهل ...
فقد تذكرني عمي ، لأول مرة ، وجاء إليّ في مساء اليوم
التالي . استقبلته متهللة ، لكن الغضب في عينيه أنذرني
بالتروي ، وجمّد كلماتي بين شفتي . ابتدرني :
— أصبح انك ستعملين ؟
أجبت بهدوء :
— لقد ابتدأت العمل اليوم ...

زأرتِ النعمة في اساريه :

— ماذا تقولين ؟ اليوم ؟ كيف لا تفكرين في عواقب الأمور ، ماذا سيظن الناس ؟ ماذا سيقولون عنا ألا تكفينا الأقاويل التي تلاحقك في كل مكان ؟
كنت احاول ، أمام سهام كلماته ، ان أدرّج نفسي بالهدوء ، وقوة الايمان .

أقاويل الناس ! ماذا يظن الناس ! ماذا يعتقد الناس !
كيف يكون عمي كباقي الناس ؟ كيف يجعل من الأقاويل ومن آراء المجتمع غذاءً لروحه ؟ ألا يملك قوة داخلية ، تمكنه من ان يفرّق بنفسه بين الخير والشر ، فيميّز الأول من الثاني ، دون ان تسيّره آراء الآخرين ؟
وددت لو أقول له :

« لماذا جئت تزورني ؟ أنا بحاجة إلى صديق لا إلى عدو !
ابتعد عني ... دعني احي الحياة التي أريد ، خارج الدوائر السخيفة التي تودّ رسمها حولي ... ابتعد ... »
لم أقل شيئاً ، فاحترام الأهل الذي غُرس في نفسي منذ الصغر ، جعلني اتمالك . حاولت ان اشرح :
— هل من العيب ان يعمل الانسان ؟ هل يسيء ذلك إلى سمعتي ؟ هل يمسّ اخلاقي ؟

لم يجابه سؤالي البسيط ، بل انبجست كلماته من نقمته علي :
— أنت دائماً تؤمنين بأرائك الخاطئة ، وتعتقدين أن منطقك المعوجّ هو قانون الحياة ! نعم ... الناس كلهم سخفاء ... وأنت

الذكية ! يا لك من مغرورة ! تطلعين كل يوم ببدعة جديدة ،
وتعتقدين ان من واجبنا أن نوافق ! إن طريقة حياتك
ترعجني ! رفضت أن تسكني معنا ، أنا وجدتك ، فبقيت
هنا مع رانية ، تستقبلين من تشائين ، وتذهبين اني تشائين ...
ان مجرد اقامتك وحيدة دليل على استهتارك ...

شعرت بأمواج من الدموع تصخب في قلبي ...
يا له من ظالم قاس ! يلومني لأنني اعيش وحيدة ولا
يفهم ان وحدتي ترهق شبابي ! يلومني لأنني حرة ، ولا
يفهم ان حرיתי لا تفيدني ، واني افقتها ارباً ارباً ، وانثرها
ريشاً تحت اقدام رجل أحبه ويعطف علي .

ولم يكتفِ بما اسمعني من كلمات مُرّة ، وتابع :
- نعم ، ان طريقة حياتك لا تعجبني مطلقاً ! ألا ترين
كيف اني لم اتدخل في امورك ؟ ولكنك الآن تريدان ان
تشتغلي ! موظفة ! ابنة اخي موظفة ! هذا ما لا احتمله !
ابتدأت افقد أعصابي ... هذا الغرور يثير اشمئزازي !
ما اغرب الطبيعة البشرية وما احطها ؛ عمي الأناي ، الذي
ينكر وجودي ، يعترف الآن بأنني ابنة أخيه ! لماذا ؟ لا
بدافع العطف والمحبة ، لا ! بل لأنه يرفض أن أقوم بعمل
يجرح غروره ! لأنه لن يحتمل ان يحطّ الناس من قدره
ويقولون : « ابنة أخيه موظفة ! »

- ابنة أخى موظفة ! أنت مستهترة ! مسكين والدك كم
تحمل منك ! لماذا لا تتزوجين ، فنتهي من قصصك ... ونرتاح !

أصابني في الصميم !
لماذا يذكر والدي الذي أحب ، والدي الذي كان يعطف
عليّ ؟ لماذا يُشعرني بأن وجودي يثقل عليه ؟
وأحسست بالنرف يفيض في اعماقي . وكنت كالحیوان
الجريح الذي يصبح كاسراً إذا ما أصيب في صميمه ...
فرفعت نحوه عينين مليئتين بالألم والكبرياء ، وقلت بحزم :
— ارجوك ان تتابع سياستك الاولى فلا تهتم بأموري ...
هائياً ... أنا مستهترة ... وسأظل مستهترة ...
— أنت وقحة ! فلتذهبي إلى الجحيم ...
وانصرف مزجراً ، وصفع الباب وراءه ، تاركاً جواً
من النعمة والألم .

شعرت بحاجة إلى عطف ... إلى كتف رحيمة تنشف
دموعي . شعرت بحاجة إلى صديق أستمد من ودّه دواءً
أمسح به الجراح التي خلفها الأهل في صدري . شعرت
بحاجة إلى أب يحميني .

لكن نقمتي تغلبت على ألمي ، عندما جاءت جدتي بعد
لحظات ، تثير جوّ الحقد الذي أحياه عمي :
— ماذا دهاك يا ريم ؟ الفتاة لا تعمل إلا إذا كانت
بحاجة ماسة إلى كسب عيشها ... هل ينقصك شيء ؟ لباس ...
أكل ... اي شيء ..؟ لديك المال الكافي يا حبيبي ... ثم
الا تعلمين ان كل ما املك لك ولرانية ؟
ثارت ثورتني ، وافرغت في وجه جدتي كل ما ينهش قلبي :

— أنا لست بحاجة إلى أموالكم ! أنا لست بحاجة إلى وجودكم حولي ! أنا في حاجة إلى حياتي ... إلى شخصيتي ... إلى فرديتي إلى إثبات وجودي ... كيف لا تفهمون ذلك ؟ أنا لست عبدة ! عبدة لكم ... للمجتمع ... لآراء الناس ... ألا تشعرين بأنني أموت ؟ أموت في هذا الفراغ ؟ أموت من الملل ؟ ألا تشعرين ... واختنق صوتي بالعبرات .

بكيت من النعمة ، ومن الثورة ، وتأثرتُ جدتي :
— ريم .. لا تبكي ... نحن لا نريد إلا صالحك ... نحن ... ولم أسمع بقية كلماتها ، فقد خرجت من البيت ساخطة ، وهرعتُ إلى ناديا ، الانسانة الوحيدة التي ارتاح إليها . تلقّيتني بابتسامة عذبة ، سرعان ما تحوّلت إلى نظرة جزع وتساؤل . وعندما أخبرتها بما جرى ، قالت بحزم :

— ان ما تفعلين هو الصواب ، امضي عليه . ليت جميع الفتيات يعملن ويتوظفن . ان تحرر المرأة مادياً يحررها معنوياً . يا ريم ان ما يضع المرأة في مستوى دون مستوى الرجل هو ارتباطها بالمادي به . نعم ... أنت لست في حاجة إلى مال ، ولكن الشعور بأنك قادرة على كسب عيشك يجعلك تثقين بنفسك ... يجعلك قوية ومستقلة تماماً ... لا ... إياك ان تتركي الوظيفة . ولا تبكي ... البكاء سلاح الضعفاء ، وأنت لست ضعيفة !

وبقيت في الوظيفة .
وطبعاً لم يفهم المجتمع :

— احقاً توظفت ريم ؟ لماذا تعمل وهي « بنت عائلة » ؟
الا يكفيها مالها ؟ هل تركها خطيبها ؟ انها فتاة بطرة ! ان
عمها غاضب عليها ... »

لم ترعجني الأقاويل ، وكان يصلي معظمها . كنت
اسمعها بأذن مجردة ، واشعر بنوع من التسلية ، وأنا
اكتشف كم خيال الناس واسع وخصب !

واستحوذت وظيفتي على جميع وقتي ، حتى نسيت انه
يوجد في الدنيا شيء سوى عملي وبيتي ... ولذة الأكل !
نعم ... كنت أتلهي ... بالأكل !

أوليس الأكل من لذات الحياة ؟ بل اللذة الوحيدة
المباحة للفتيات في بلدي ، والتي لا ينتقدها المجتمع ؟
واهملت شكلي .

وكيف اعتني بشكلي ، ووجهي مطفأ نورهُ ، وعيوني
مُخْتَفٍ بِرِيقِهَا ؟
عيوني تنادي ... تلحّ ...

ولكن ...

من أين آتي اليها بالحياة ؟ والحياة هنا ، تقتل الحياة ... ؟

٢

ومرت سبعة شهور ، وبدد العمل بعض ملي ، وبلور شخصيتي ، لكنه لم يملأ فراغي ... فراغ حياتي .

وفي يوم غائم من أيام نيسان الماضي ، ولا اذكر الآن سبب التعطيل في ذلك اليوم ، جاءت إلي السيدة سناء ، وهي سيدة مسنة ، طيبة ، اعرفها منذ زمن بعيد لكونها صديقة لأسرتي ، ورجتني أن أقلها بسيارتي إلى شارع « البرلمان » ، فهي تريد ان تشتري وروداً .

كنت أحب أيام العطلة ، لأنها تسمح لي بأن أتلذذ بكسلي ، فأقضي نهاري أغوص تارة في مقعد ، أستمع شاردة الى المذياع ، او أستلقي تارة على الديوان الأخضر ، اقرأ كتاباً ،

او أستقبل بعض الأصدقاء ، فنقتل الوقت بلعب الورق .
وكنت اكره الخروج من البيت وخصوصاً في الصباح .
وحين حاولتُ ان أقنعها ان باستطاعتنا ان نخابر هاتفياً بائع
الورود ، ونطلب منه أن يرسل إلينا باقة ، قالت مستبعدةً الفكرة :
— لا ... لا يا بنية ... ستكون نزهة قصيرة . كلها عشر
دقائق ، ونعود . وبالمناسبة ، سنسأل بائع الورود عن الأحواض
التي ذبلت عندك ... هيا بنا ...
لم أجد بداً من القبول .

فارتديت ثيابي على عجل ، وربطت خصلات شعري
الأسود الطويل في مؤخرة رأسي ، والقيت على كتفي معطفي
الأخضر القديم ، وذهبت معها .
لم ازين وجهي ، بل لم الق نظرة إلى نفسي في المرآة ، فقد
اعتدت منذ زمن بعيد ألاّ أهتم بشكلي .

وقفت سيارتي قرب الرصيف ، امام بائع الورود ، في
نفس اللحظة التي وقفت فيها سيارة اخرى صغيرة ، ونزل
منها رجلان ، احدهما لبنانيّ ، من معارفي .
اما الثاني ...

ويتراوح عمره بين الثامنة والثلاثين والاربعين ، فقد
استرعى انتباهي طول قامته ، وامتلاء جسده ، وارتفعت
نظراتي تخطف صورة الهامة الشقراء ...
وخيل لي اني رأيت هذا الوجه من قبل ... ولكن اين ؟

اين رأيته ؟

اقتربا منا ، وألقيا بالتحية على السيدة سناء ، وابتسم
الاول ، ويدعى عصام :

— ريم ... صباح الخير ... أعرفك بصديقي زياد
مصطفى ... الآنسة ريم غالي ...
تذكرتُ .

انه ذلك الموسيقي الذي سمعت الكثير من مقطوعاته ،
وأنا اعزف بعضها على البيان . وقد رأيته منذ شهر تقريباً
عندما رافقت صديقتي الصحفية اللبنانية نجوى ، الى حفلة
أقيمت من أجله في بيروت . لكنني ، لسبب لا اذكره ،
لم امكث في الحفلة سوى خمس دقائق لمحته خلالها من بعيد .
مددت ليدته يدي ... فاخفت يدي ... حين أطبق
أصابعه وصافحني . ولم ينطق بأية كلمة ، بل تأملني وهو
يرفع حاجباً ، وينفث دخان غليونه ، وكأنني لحن عرض
عليه ليعطي فيه رأيه .

هرول البائع يقدم الكرسي الوحيد في المكان إلى السيدة
سناء ، وجلستُ أنا على الواح من الخشب مكدسة قرب
الحائط .

التفتَ إليّ عصام :

— منذ زمن بعيد لم نرك ... اين أنت ؟

ابتسمتُ :

— أنا في البيت دائماً ... متى اتيتَ إلى دمشق ؟

— منذ ثلاثة أيام ، وقد جئت لحضور حفلة زفاف صديقي
عزيز ... والحفلة اليوم ...

هتفت السيدة سناء :

— العقبى لك ... العقبى لكم انتم الثلاثة ... أنا ايضاً
ذاهبة إلى هذه الحفلة ... احب حفلات الزفاف بعكس ريم
التي تكرهها . اتعلم ان زواج عزيز هو ختام حكاية حب
طويلة ؟ الله ... كم تغير الزمان ! أنا عقدت قراني على
زوجي دون ان أعرفه ! كيف حال اختك يا عصام ؟ وهل
تزوجت « فلانة » ؟ وهل ...
ابتدأت الثروة !

وفي جو تكتنفه الثروة ، أنا املّ دائماً ؛ فنهضت ،
واقتربت من البائع أساعده في انتقاء الورود ، وترتيبها .
وكنت اسمع مقاطع من الحديث ؛

وفجأة تجمع فكري في جملة قالها عصام ردّاً عليها :
— لا ... سأذهب وحدي إلى الحفلة . زياد لن يرافقني ،
فهو ، مثل ريم ، لا يحب هذه الحفلات .

شعرتُ بأن هذا الرأي ، على بساطته ، يقربني قليلاً من
الموسيقى . وضحك عصام وهو يتابع :
— وظيفة زياد اليوم سائقُ سيارةٍ تقلّ الورود التي
سأشتري !

ابتسمتُ ، والتفتُ الى الموسيقى لارحب بزمالته : ففي
هذا الصباح الغائم ، نحن نقوم بنفس الوظيفة !

كان متكئاً الى الحائط ، رأسه مائل الى الوراء ، والغليون
في فمه يستعطف انفاساً رحيمة ... وكانت نظراته الناقدة
تنسكب عليّ من عليائه ... تتفحصني ... تقيسني ... تحملني
على أمواج الدخان . ثم اختلطت هذه النظرات بخصلات
شعري الهاربة من الربطة .

احمرت وجنتاي ، وارتبكتُ ! وبحركة غريزية أرتفعت
يدي تحاول ان تخفي في أعماق كتلة الظلام ، هذه الخصلات
الشاردة .

ونقمت على نفسي : لماذا لم أزين وجهي قبل ان اخرج
من البيت ؟ لماذا ارتديت هذا المعطف القديم ، ولم أهتم
بتصنيف شعري ؟

إن هذا الرجل الناقد لا يهمني أمره . ولكن نظراته الفاحصة
توقظ غرورَ المرأة النائم في كياني ، فيأبى ان أبدو قبيحة حتى
لرجل لا يهمني أمره .

وحَمَلْنَا إلى الواقع — أنا من صخب محاكمتي نفسي ،
وهو من رحلة نظراته في الدخان — صوتُ السيدة سناء :
— يا زياد ... منذ عودتك من اوروبا لم تأت لزيارتنا ...
انت هنا منذ سنة تقريباً ...

— آسف ، لقد حالت أشغالي دون ذلك ، ولكن من
واجبي ان ازورككم .

قال عصام :

— ما رأيك يا زياد ، ما دمتُ أنا الآن في دمشق ، في ان

نزور السيدة سناء نهار الجمعة ؟

تردد الموسيقى... والتفت اليّ . استدرك عصام :

— طبعاً ... ريم سترافقنا ... أليس كذلك ؟

تعلق الجواب في عينيّ الموسيقى على كلمة ستلفظها شفتاي ،

فتجاهلت ان زيارة السيدة سناء معناها رؤيتي ، وقلت :

— طبعاً .

— إذن نهار الجمعة اي بعد أربعة أيام .

— اهلاً وسهلاً ... يا اهلاً وسهلاً ... سانتظركم ...

ثم تلفتت ، تسأل البائع :

— الم تنته بعد ؟

وأردفت :

— ان الأحواض التي اشترتها ريم منذ شهرين قد ذبلت ،

فماذا تفعل ؟

ابتسم الموسيقى ، ولأول مرة وجهه إلي الكلام :

— وهل من الممكن ان تدبل الورود في بيتك ؟

أضحكني أسلوب مديحه ، فقلت هازئة :

— أأنت شاعر ام موسيقي ؟

أجاب عنه عصام :

— ألا تعلمين ان الشعر والموسيقى يجتمعان ؟ ... اتعلم

يا زياد ان ريم شاعرة ؟

لم ادع للموسيقى مجالاً لكي يردّ علي عصام ، وقلت :

— لقد كنت منذ شهر في الحفلة التي اقيمت من اجلك

في بيروت ...

— أحقاً ؟ هذا غريب ! كيف لم أرك ؟

— لم امكث سوى خمس دقائق .

— هذا هو السبب ، إذ انك لو بقيت لرأيتك حتماً .

دار تفكيري بسرعة :

— ان هذا الموسيقي من نوع الرجال الذي يعرف كيف يحدث

المرأة ... المرأة اجمالاً ! لكنّ هذه الأساليب السطحية لا

تعجبني أنا . تجاهلت ردّه ايضاً و اردفت :

— لكنني آسفة لتركي الحفلة ، فقد اخبروني انك في

نهايتها ، عزفت بعض الحانك .

— انا الآسف يا آنسة ؛ لكنني مستعد لأن أعزف لك

كل ما عزفت هناك .

فعلّق عصام :

— على هذا ، يجب ان نزورك انت ايضاً ، إذا لم يكن

عندك مانع . ما رأيك ... زياد ؟

— بكل سرور ...

وأحاطني العيون السائلة ، فقلت حالاً :

— اهلاً وسهلاً ...

وكان البائع قد انتهى من اعداد الباقتين ، فحمل عصام

احدهما ، لتقع الثانية بين ذراعيّ . واتجهنا نحو الباب .

أكدّ عصام :

— إذن سنجتمع عند السيدة سناء مساء الجمعة .

هزرت رأسي ، موافقة . فردد الموسيقى :
– الجمعة ١٨ ... لا تنسي ... سجلها ...
ضحكت :

– لا حاجة بي إلى تسجيلها .
– انت شاعرة على ما سمعت ؛ والنسيان مرض الفنانين
اجملاً ، والشعراء خاصة !
نظرت اليه وقلت بكل هدوء :
– انا أنسى ما أريد ان أنسى ... ولا أنسى ما يهمني
خيال إليّ انه لم ينتبه لما قلت ، إذ سأل :
– ما رقم هاتفك كي اذكرك ؟
ألقيت ارقام هاتفي في الفضاء ، وخلتها لم تصل إلى اذنيه .
وهز رأسه دون اكتراث ، ثم حيا السيدة سناء ، وفتح لنا
باب الدكان ، وهو ينفث دخان غليونه .
وخرجت ...

احمل يديّ وروداً ... وفي عينيّ دخاناً ... وفي قلبي
بضع كلمات ...

٣

كانت ساعات النوم من اهنأ ساعات أيامي ... هذه
الساعات التي تشبه الموت ... يغيب فيها الإنسان عن الواقع ،
ويركد تفكيره ، فلا يقضي يومه متأسفاً على حياة لا يحياها ...
وكان اكثر ما يزعجني ان يخرق جوّ احلامي ليقذفني
الى عالم اليقظة نباحُ الهاتف مبكراً .

كانت الساعة السابعة . تساءلت في غيظ : « من يكون
هذا المتكلم النشيط ؟ هل هو احد المعجبين الرخصاء الذين
يلوٲون بأصواتهم وحدتي كل يوم ؟ هؤلاء الذين لا يملكون
الجرأة على التصريح بأسمائهم ، والذين يدفعهم الكبت
والحرمان إلى صبّ غرائزهم في اسلاك الهاتف ، إذا ما
حملت اليهم هذه الأسلاك صوتَ امرأة ؟ »

توالى الرنين المتقطع ، وفي انزعاجي خيل لي انه يتصل ،
ويسحب نظراتي الحائرة نحو الآلة .

وبدت لي هذه الآلة كطفلة زنجية تبربر ... وتبربر ...
ولاول مرة شعرت بحاجة إلى ان اكيدھا ، فلم امدّ يدي
لايقاف صراخھا .

وغمرت رأسي باللحاف ، وأنا أبحث في الدفء عن حلم
جميل ، اطبق عليه جفوني لمدة ساعة ، فعملي لا يبتدىء إلا
في التاسعة .

وملأني السرور وانا افكر في اني غداً سأنام حتى الظهر ،
فغداً ستبتدى عطلتي لأسبوع .

وفي صباح الغد دخلتُ دنا غرفتي :
— آنسة ريم ... آسفة ان أوقظك ... لكن ... وصلت
هذه الرسالة ...

فرفعت اجفاني ، لتختلط نظراتي الناعسة بخط الفريد .

وبعد لحظات ، كانت ليلى في الحجرة :
— انت ما زلت في سريرك ! الساعة الحادية عشرة !
إلهي كم انت كسول ... انا لا افهم كيف تشتغلين ، وتستيقظين
كل يوم باكراً ...

— قولي على الأقل « صباح الخير » !
— سأقول « صباح الخير » عندما تنهضين ونشرب القهوة .

وخرجتُ تنادي دنا .

وليلي صديقتي منذ سنين . وقد متن صداقتنا شعورَ كلتينا
بالوحدة والفراغ . وكان مللها « المزمّن » يخفف من مللي ،
وسخطها الدائم يلهيني .

كانت لا تعمل لأن أهلها لا يوافقون ! ولم تزوج لأن
العريس الذي قد يعجبها لم يأت بعد ... ولا تذهب إلى أي
ناد أو حلقة أو مطعم ، لأن المجتمع قد يقول ... ولأنها
تخافُ المجتمع !

وسمعتها تناديني :

— هيا يا ريم ... تعالي ... ستحضر القهوة ...

ولجت القاعة ، فابتدرتني :

— لعن الله هذه البلدة التي لا أجد فيها مكاناً اذهب إليه .

سوى بيتك !

قلت مازحة :

— يجب ان تعبري نفسك سعيدة جداً ! أليس بيتي

الجنة بعينها ؟

— « ما أثقل دمك » ! انت لا تطاقين !

ودخلت دنا تحمل القهوة .

— شكراً يا دنا ... يا ريم لقد انتهى ثوبي الحديد انه

رائع ... رائع حتى انني حزنت حين ارتديته ، ونظرت
الى نفسي في المرآة . لمن احوك اثواباً جديدة ؟ لمن ارتدي
هذا الثوب ؟

تأملتها .

انها وردة في اوج تفتحها ، بحاجة الى من يسقيها ويسكر
بعبيرها . لكنها تذبل ، وحيدة ، يوماً بعد يوم .
وسبح تفكيري ، وحملتني ذاكرتي إلى الوراء ، فرأيت
شاباً في الثالثة والعشرين ، جميل الطلعة ، يفيض حيوية ،
يأخذ الكتاب من يدي ليرميه جانباً ، وهو يقول بالفرنسية :
« تعالي ... تعالي معي لنزهة ؛ فانا أودّ أن آخذ صوراً
« فوتوغرافية » لوادي اليرموك ... »

اقول : « اني تعب و لا اودّ الخروج » فيمسك بيدي ،
ويشدني : « تعالي ... يجب ان آخذ صوراً » احاول ان
اقول : « انتظري قليلاً كي اعني بشكلي » لكنه يتابع :
« هيا بنا ... يجب ان نصل الى هناك قبل غياب الشمس » .
فكرتُ :

هل يسرني ان ألبس من أجل ألفريد ثوباً جديداً ؟ هل
يروقني ان اقرأ تحت إرشاده كتاباً جديداً ؟

لا ... ان ألفريد يرى في شخصي الصديقة التي يجب
عليها ان ترتدي البنطال ، وتهمل شعرها ، وتبقى رهن
اشارته ؛ فتركب إلى جانبه في سيارته الفخمة ... او تظل
واقفة ؛ وهو يأخذ صوراً لمشهد من المشاهد ... او تتسلق
معه جبلاً من جبال سورية !

انه يحب مجرد شعوره بوجودي الى جانبه ، ولا يكثر
ابداً لشكلي ، او عملي ، او احساسني ...

— فيم تفكرين يا ريم ؟
أجبتها بصراحة :
— في ألفريد ! فقد وصلتني منه رسالة ...
— الله ! وماذا يقول ؟
— يقول انه لن يستطيع المجيء في اوائل الصيف كما
كان مقرراً .
— هل ازعجك ذلك ؟
— لست ادري ... ربما ...
حدتني ثم سألت :
— هل تحببته ؟
— انت تعلمين يا ليلي اني لا احبه ، ولكن فضولي
يُشوقني اليه ... يسرني ان اراه بعد كل هذه الأيام ... ثم
أنا اعزه كثيراً ...
ومزّق سمعي نداء الهاتف ، فمددت يدي اوقف النداء ،
وتوقف معه حديثي عن ألفريد .
— « آلو » ... اهلاً ... سيدتي سناء ... نعم ... اليوم ؟
لماذا ... لا ... لا مانع ... في الساعة الخامسة ... شكراً ...
واعدت السماعه ببطء ، وشرحت لليلى :
— كنا قد اتفقنا ، عصام والموسيقي وأنا ، على زيارة
السيدة سناء نهار الجمعة . ولكن ... يظهر انهما يريدان
ان يسبقا الموعد !
— هل اعجبتك طلعة هذا الموسيقي ؟

ضحكتُ :

— لا ... انه اشقر !

— اتعرفين شيئاً عن حياته ؟

— ابدأ يا ليلي ... سوى ان بعض انغامه رائع .

— أنا سمعت عنه قصصاً وحكايات ... يقولون إنه

مغامر ، معدوم الأخلاق ... يلهو بالمرأة ... يغريها ... ثم

يرميها ... ويظهر انه يعرف كيف يغري .

قلت بنجث :

— لاحظت ذلك ...

وتابعت ضاحكة :

— نعم ... انه من هؤلاء الرجال الذين يجب ان تتحاشاهم

فتاة عاطفية شاعرة ... مثلي !

*

لم تطل زيارتنا للسيدة سناء ، فقد كان عندها بعض الجيران ،
وكانت الأحاديث تافهة ، والجو ثقيلاً .

وعلى باب بيتها ، القى اليّ الموسيقي نظرتة الناقدة ثم
التفت يوجّه كلامه إلى عصام :

— الآنسة ريم تدّعي أنها لا تخرج من بيتها الا نادراً .

قلت متسائلة :

— هذا صحيح ... لماذا ؟

— قد خابرتك البارحة صباحاً ... فلم أجداكِ !

انفجرت ضاحكة :

— إذن ... إذن ... هذا انت !

نظر إليّ دهشاً :

— اكنت في البيت ؟ لماذا لم تجيبي ؟

— لست ادري ... وما الذي دفعك إلى مخابرتي ... مع

الفجر ؟

— خابرتك قبل ان اذهب إلى مكتبي ...

— ما ظننت لحظة ان المتكلم سوف يكون انت ! كيف

حفظت رقم هاتفي ؟ أليس النسيان مرض الفنانين ؟

صبّ نظراته في عيوني وقال :

— آنستي ... أنا انسى ما اريد ان انسى ، ولا انسى

ما يهمني ...

اعجبته ذاكرته ، فابتسمت دون ان اردّ . وقال عصام :

— لقد وعدت بأن تقدمي انا فنجاناً من القهوة .

— بكل سرور .

— هل تستقبلينا بعد ظهر الغد ؟

قاطعه الموسيقى :

— عفواً ... انا ، غداً ، اكون في المعهد ... بعد غد

مساءً إذا كان ممكناً ...

— اهلاً وسهلاً ...

تساءلت وأنا اقود سيارتي متجهة الى البيت : ايكون هذا الشاب كأكثر شباننا الذين يظنون سوءاً بالفتاة اذا دعتهن الى بيتها لأخذ فنجان من القهوة ، ويجدون في ذلك سبيلاً للتبجح امام رفاقهم ؟ هؤلاء الذين يخترعون ، وينسجون قصة طويلة خيالية ، يروونها بخيلاء ... ولا يكون لهذه القصة ايّ اساس سوى فنجان من القهوة ؟
ولكن لا !

هذا الموسيقي قد عاش سنين في اوروبا ... انه حتماً يفهم تصرفاً طبيعياً كهذا ، ومن غير الممكن ان يكون سخيلاً الى هذا الحد .

٤

دخل عصام يقول :

— مرحباً ريم ... آنسة ليلى مساء الخير ...

وقف الموسيقيّ على عتبة الباب ، ولفني بنظرة سريعة ،
ثم تدحرجت نظراته الفاحصة شمالاً ويميناً ، تنفضُ القاعة
نفضاً ، وتعلقت على الستائر الملونة الضاحكة ... ورأيت
اساريه تنبسط ، وتتم :

— الله ما اجمل هذا البيت ... جميل ... جميل جداً ...

وتمشى ، متهيّباً ، وكأنه في معبد :

— اهنتك آنسة ريم ...

وانتبه لوجود ليلى فقال :

— عفواً ... مساء الخير ... كنت مأخوذاً ... ان هذا البيت

لحن ... لحن جميل ...

ضحك عصام :

— ان زياد لا يرى في الدنيا سوى الألحان ...

— ولكن ... يا عصام ... الحقيقة ... اني لم اتوقع ان
اجد بيتاً كهذا في نهاية هذا الشارع النائي ... الألحان فعلاً
تنبع من كل شيء فيه ... ان ذوق مضيفتنا يستحق الثناء .

لست ادري لماذا سررتي كلماته ؟ لأنه امتدح بيتي بلسان
الفنان ؟ ام لأنني فهمت أنه ... سيعود اليه ...؟

وتقدمتهم الى الردهة الصفراء ؛ وابتدرت ليلي الموسيقي :

— كم مضى على وجودك في دمشق ؟

— سنة تقريباً ...

— وهل تحب دمشق ؟

— احبها ؟ ... انا مرتبط بها لأنها بلدتي ... لكنني امل

فيها ... امل كثيراً ... حتى الحياة تموت هنا ...

— في اي بلد كنت في اوروبا ؟

— مكثت في اوروبا سبع سنوات وانا انتقل ما بين لندن

وباريس واوسلو ...

سألتُ بعفوية :

— اين تقع أوسلو ؟

اجابني عصام :

— اوسلو هي عاصمة النرويج .

التفت الى الموسيقي مستغرباً ، مدهوشاً :

— الا تعرفين اين تقع اوسلو ؟

اجبت بحياء ، مؤكدة :

— لا ... لم اكن اعرف ! ويوسفني ان اعترف لك

بأنني امية تماماً ، وخصوصاً في الجغرافيا ...

تأملني جيداً ، وكأن ما قلته فلسفة عميقة يحاول ان

يستوعبها ... ثم قال :

— تعجبي صراحتك ... قلما توجد فتاة تعرف بجهلها

في هذا البلد !

سألته ليلي متحدية :

— ألا تحب فتيات هذا البلد ؟

أجاب ضاحكاً :

— يا آنسة ... احب المرأة في كل مكان !

لحظتني وهي تبسم بنخب ، ثم سألت :

— ما رأيك في نساء اوروبا وفي نساتنا ؟

— الفارق شاسع ، ولا مجال للمقارنة . الفتاة هنا اولا

ليست مثقفة ... و ...

قاطعته محتجة :

— بل كثيرات من فتياتنا مثقفات ويحملن الشهادات العالية ..

— انك تخلطين ما بين العلم والثقافة ... الثقافة ليست في

حفظ بعض الكتب المدرسية او الجامعية ... الثقافة هي الالمام

بكل شيء ... هي تفهم الحياة التي نحيا ، من جميع نواحيها ...

الفتيات المثقفات هنا نادرات جداً ... اما الفتاة المتعلمة فهي

لا تطاق ، لأن علمها عوضاً عن ان يمحي السخافة التي تتحلى
بها ، يزيد لها غروراً !

وقال هذه الحملة الأخيرة وهو ينظر اليّ . فقلت حالاً
وأنا ارفع يديّ بصورة عفوية ، كأني اريد ان احتمي من
كلماته :

— لا تنظر اليّ ... انا لست متعلمة ... ولست مثقة ايضاً ...

غرق في الضحك ... ثم سأل :

— انتِ ؟ كيف تقضين اوقاتك ؟

تبادلت مع ليلي نظرة ساخرة ، واجبت :

— نحن ... نأكل ...!

فغر فاه :

— ماذا ؟

أجبتة مؤكدة :

— نأكل ! الأكل من لذات الحياة !

هزّ رأسه مستنكراً :

— أليس من الحرام ان تعيشوا للأكل ؟

أجابته ليلي :

— من قال إنّنا نعيش ؟ وهل يسمح مجتمعا للفتاة

بأن تعيش ؟

— المجتمع ... المجتمع !!! لماذا تلومون دائماً المجتمع ؟

الفتاة هي المألوم . لقد حرّرها المجتمع هذه الأيام ، لكنها

ما زالت متحفظة الى درجة السخافة لأن تفكيرها محدود ...

وتحفظها مصطنع ! نعم مصطنع ! فهي مستعدة لأن تذهب
في كل وقت مع الرجل ، لكنها تخلق مشاكل ، وتحاول
ان تظهر بثوب المتحفظة وتجعل الرجل يعتقد انه يعيش في
رواية بوليسية ! وبعد كل هذا تتطلب عاطفة وحباً ... في
اوروبا ، كنت ادعو فتاة إلى العشاء فتقبل ... وفي نهاية
السهرة كانت تتبعني الى شقتي بصورة طبيعية جداً ... مع
علمها بأنني قد لا اجتمع بها مرة اخرى بعد تلك الليلة ..
هذه الفتاة احترمها ...

ذهلتُ ... وحدقت اليه متفحصة :

ما نوع هذا الرجل ؟ وهل يمكن ان يحترم هؤلاء الفتيات ؟
واردف :

— نعم ... الفتاة الاوروبية تفكيرها واسع ... ان الحياة
هناك عملية ، واقعية ، بينما نحن نعيش في الخيال ... وتفكير
فتاتنا ... محدود ... محدود ...

أزعجتني آراؤه ، وتضايقت من احكامه الخاطئة ، وقيمه
المغلوطة ، فقلت بانفعال :

— الهي ... كم انت مخطئ ! نعم ... قد تكون الفتاة هنا
متحفظة اكثر من اللزوم ... قد تكون خبيثة ولكن هذا ليس
سخفاً ! فالفتاة تخاف المجتمع ... تخاف ان تلوث سمعتها
ألسنةُ السوء ، وان تحطم مستقبلها الأقاويل ... اما هذه
الحياة التي نتحدث عنها انت ، فهي « انحلالية » ! انا لا
اقبل ابداً ان تندهور العاطفة عندنا الى مستوى الأكل والشراب !

انا لا افهم اية علاقة تقوم بدون عاطفة ! أما ان تصبح
العاطفة مادية فهذا مؤسف !

ابتسم وقال :

— وهل تؤمنين بالحب العذري ؟ حقاً أنت شاعرة
وصغيرة ... أما انا فقد علمتني التجارب ان العاطفة كلها
زائفة ، والحب ليس الا المادة ... والواقع ... استعمل
خيالك للشعر ... وعيشي الواقع ...

فكرت متعجبة : كيف يستطيع هذا الشخص ان يؤلف
مقطوعات موسيقية رائعة وهو لا يعترف بالعاطفة ؟ ويظهر
ان الفكرة خطرت في بال ليلى ، اذ سألته :
— أنت مؤلف فقط أليس كذلك ؟

— نعم ...

— كيف تستطيع ان تؤلف مقطوعات تفيض عاطفةً وأنت
لا تعترف بالعاطفة ؟

— انا احب في ... انا اعبد في ... ومن في استمد
العاطفة لأردّها اليه ...

أطربني جوابه ، فابتسمت . وسألت ليلى بفضول :
— حين تؤلف مقطوعاتك على اية آلة تعزفها قبل ان
تدفعها إلى الجوقة الموسيقية ؟

اجبتُها ضاحكة :

— على الأهداب ... الجميلة ...

ابتسم :

— هذا شعر يا آنستي ... لكنه حقيقة ! اهداب العيون
الحميلة هي الحان ، وأعزفها على أوتار قلبي ...
ثم التفت الى ليلي :
— الحقيقة اني اعزف على القيثارة ، ولو كانت قيثارتي
معي لعزفت لكم ...

قالت :

— سمعت البارحة مقطوعة لك اذيعت من محطة دمشق ...
— احقاً ؟ وهل اعجبتك ؟
— جميلة جداً ... وريم ايضاً سمعتها .
التفت اليّ فقلت :
— أنا لم تعجبني !

انقلبت سحتته ، وحملت فيّ ، وكأنه لم يسمع هذه الجملة
في حياته من قبل :

— لم تعجبك ؟ كيف لم تعجبك وقد اعجبت الجميع ؟
— انا لست « الجميع » يا سيدي ! ثم ... اما ان ذوقي
يختلف عن ذوق الآخرين ... واما اني صريحة اكثر من اللزوم !
ظل ينظر اليّ مستنكراً ، ثم سأل بالرغم منه :
— وماذا لم يعجبك فيها ؟

— مطلعها الخفيف الضاحك الذي لا يتناسب مطلقاً وبقية

المقاطع !

شعرتُ بأنه يفكر فيما اقول ... ثم سأل مازحاً :
— كيف تتجربين وتنتقدين مقطوعتي ؟ وهل تفهمين أنت

الموسيقى ؟

— لا !

ضحك :

— الحمد لله ... الحمد لله ...

وتوالى التعليقات ، ثم قال :

— آنستي ، لقد شاهدت المكتبة في القاعة ، فهل استطيع
ان القي نظرة على الكتب ...
— طبعاً ...

وخرج اربعتنا الى القاعة .

قال :

— ان مكتبتك قيّمة ! هل قرأت جميع هذه الكتب ؟

علا رنين ضحكي :

— مجرد سؤالك مديح كبير لا استحققه ... وأشكرك عليه .
ضحك بدوره :

— تعجبني أجوبتك السريعة ... في بعض الأحيان !

ودخلت دنا تحمل القهوة .

فاخذت منها ليلي الصينية ، واتجهت نحو الردهة الصفراء

يتبعها عصام .

وبقي هو ؛ ينظر الى المكتبة ، وانا ... انظر اليه ...

ما الذي يستهويني في هذا الرجل ؟

عيناه ؟

اني اكره العيون الزرق !

لكن سماء عينيه تجعلني أتمنى لو أجد فيهما شيئاً من الحنان...
شيئاً من الإنسانية... شيئاً من السماء ذاتها ، عوضاً عن هذه
النظرة المادية الفاحصة التي تنبع من الأرض... وتريد أن
تلتهم الحياة... وما فيها من جمال...

كان يقلّب صفحات كتاب لكافكا - *Kafka* - سأله :
- هل قرأت هذا الكتاب ؟

- لا... ولكنني سمعت عنه... هل قرأته انت ؟
- قرأت جزءاً منه ولم استطع المتابعة ، فالنفس تنقبض
لقراءته ، يشعر الإنسان بأنه في قاع بئر مظلمة ، لا يستطيع
الخروج منها... منذ الصفحات الأولى... كدت اختنق...
نظر اليّ نظرة ماكرة ، وقال فوراً :

- ليتك تابعت قراءته !!!

غرقت في الضحك ، وفي صخب ضحكي فكرت ؛
غريب ! يخيّل الي الفتاة ، عندما تتحدث مع فنان ، وخصوصاً
مع موسيقي ، ان سمعها سيمتلئ بكلمات تنبض بالعاطفة...
كلمات يزهر فيها المديح ، وتذوب فيها الرقة... تعتقد انها
ستستمع إلى انغام رصّعت بنظرات عينها... واشعار غُزلت
من سحر اهدابها... وان الفنان سيكون قبالتها كالشمعة...
تنهمر كلماته لهباً ، ويزوب... يذوب عاطفة...

هكذا كان يخيّل لي انا على الأقل ! وإذا بي أمام رجل لا
يمتّ إلى الخيال أو العاطفة أو النعومة بأية صلة ! وسرني ذلك ،
اعجبني واقعيته وصراحته ، وتذكرت فجأة والدي ، واجوبته

الحادة اللاذعة ... فابتسمت بحنان ... وعدت اسأل الموسيقي :

— ألا تريد ان تشرب القهوة ؟

اجابني بلهجة متحذقة ، بدت طبيعية لأنه تعودها :

— كما تريدن يا حبيبي ...

امحت حالاً الابتسامة من على ثغري ، وتجمدت الدموع في عينيّ ، وسكت ...

ولاحظ امتقاع وجهي المفاجئ ، فقال بسخرية قاسية :

— ارجو المذرة ان أنا خدشت طهارتك بهذه الكلمة !

كم شرقنا متأخر !

حادثة بسيطة ... وكلمة صغيرة : « حبيبي »

لا ... لا ... لم يفهم ...

لم يفهم ان نظرتي بائسة ... معاتبة ...

لم يفهم اني محرومة من هذه الكلمة ، واني مستعدة لأن ادفع حياتي ثمناً لها ، اذا همسها رجل باخلاص وهو ينظر إليّ برفق وحنان .

اما هو ، فقد اصبحت هذه الكلمة عنده نقداً متداولاً او

نغمة ناشزة يدفعها الى شفثيه كل وجه مشرق يصادفه ...

ما اقبح النغمات الناشزة ... على شفثي موسيقي !

ولكن ...

ماذا يجدي تأثري وانزعاجي ؟ سيعتقد اني اتصنع التحفظ

والحياء ، ولن يفهم ... لا ... لن يفهم ان هذه الكلمة الصغيرة

اصابت وترأ حساساً في اعماقي ، وما تعاير وجهي الا اهتزاز

هذا الوتر وارتجافه ...
لا ... لن يفهم ! انه مادي ، واقعي ، فلماذا لا أخاطبه
بلغته ؟

ملكيت اعصابي ، وقلت بهزء وترفع :
— لم تخذش طهارتي ... إنما أسأت إلى ذوقي الفني ...
فأنا اعبد الحرف كما تعبد انت النوتة ، واحب الكلمة كما
تحب انت النغمة ... لذلك يزعجني كثيراً ان تُستعمل الكلمة
في غير موضعها ، ولغير مدلولها ...
ادهشته كلماتي ، فتأملني ملياً ... وتتم بطفولة :
— قد تكونين على حق ! فالكلمة عندي قد فقدت معناها
الصحيح ...

ثم ضحك وقال :
— سأحاول جهدي ان أراعي في المستقبل ذوقك الفني ...

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

٥

بعد يومين ، وصلت صديقتي الصحفية اللبنانية نجوى لتقيم عندي بضعة أيام .

ونجوى صديقة من أيام المدرسة ، لكنها ، بعد حصولنا معاً على شهادة « البكالوريا » ، رحلت الى بيروت ، والتحقّت بالصحافة ، وأصبحتُ لا أراها إلا نادراً ، حين تأتي الى دمشق ، او في بعض الأحيان حين اذهب انا الى بيروت .

سررت لمجيئها ، فقد يتغير هذا الجو البليد في منزلي لبضعة أيام . فهي مرحلة ، تفيض حيوية ؛ وحلوة ، يضيئُ سمرتها الحادة بريقُ الذكاء في عينيها .

وقد جاءت هذه المرة بمهمة صحفية ، وطلبت مني ان اساعدها ، وان آخذ لها موعداً من ثلاثة اشخاص معيّنين :

سياسي ، واديب ، وفنان .

تكرم علينا وزير المعارف بربع ساعة من وقته ، اما الأديب
الدكتور عدنان ، وهو صديق لوالدي ، فقد دعوته شخصياً
ليسهر معنا بعد يومين .

وترددت ... حين اقتربتُ مني تقول :

— هيا ... لم يبق إلاّ زياد مصطفى وانت تعرفينه ...
ارجوك ... خابريه ...

هذا الموسيقى يثير في نفسي الكبرياء ! لماذا اخبره ؟ أنا
لا اريده ان يظني مهتمة به ! انا لست مهتمة به !
لكنني عدت اسائل نفسي ؛ لماذا علت شفّي الابتسامة
هذا الصباح عندما قالت لي دنا :

« لقد خابرك الأستاذ زياد فقلت انك نائمة ... »

ثم لماذا ، وانا في سوق الحميدية مع نجوى ، راود
خاطري هذا الاسم ، وعدت اسأل دنا بلهفة ان كان قد
خابرني احد ؟

لماذا احمرت وجنتاي ، وبلعتُ ابتسامتي حين قالت :

« الأستاذ زياد ... وهو يرجوك ان تخابريه ... »

لقد خابرنى مرتين اليوم ، وأعترفُ بأنني سررت ...
ورددتُ نجوى :

— ارجوك ريم ... اتصلي به ...

اقتربتُ بحزم من الهاتف ، وبتحدي ، ادرت رقمه ، فردتُ
حالا وكأنه في انتظار مخابرتي :

— واخيراً ... يا آنسي انه من المستحيل ان يتصل بك
الانسان ... اما انك لا تردّين ، لسبب اجهله ! او انك
نائمة ... او انك غير موجودة !

— اهلاً ... اصحيح انك خابرتني اليوم ؟
لفظتُ هذه الجملة السخيفة ... كبريائي ، فقد اردت ان
اقنع نفسي بأنني احدثه فقط ، لانه طلب ذلك !
— نعم آنسي ... خابرتك مرتين ... لا شيء سوى سماع
صوتك والسؤال عنك ...
ضحكتُ :

— شكراً لك ...
— هل كنت هذا الصباح في السفارة الالمانية ؟
— لا ... لماذا ؟

— لقد شاهدت من نافذة غرفتي سيارة تشبه سيارتك تقف
الى جانب الرصيف . فبقيت انتظر صاحبها ... ثم اعتقد انني
شردت لحظة ، فاخفت السيارة ولم ارك !
تساءلت جالاً : أنا مهتمة به ؟ ام مهتمة باهتمامه بي ؟
حدثته عن نجوى ، ثم اعطيتها السماعة ، وسمعتها تقول :
— اهلاً وسهلاً ... تشرفنا استاذ ... من لبنان ... نعم ...
انا عند ريم طبعاً ... نعم سأزورك ... سأحاول ... شكراً ...
نعم ... انها الى جانبي ... سأقول لها . شكراً ... مع السلامة ...
واقفلت الخط وهي تقول :

— يريدني ان اخبره غداً لتتفق على موعد . وهو يهديك

السلام .

*

عدت في اليوم التالي من الوظيفة مرهقة الاعصاب ، فقد
تراكمت أوراق الحسابات خلال عطلي ، وتغيّب الكثيرون
من الزملاء .

خلعت ملابسي ، وارتديت ثوباً منزلياً بسيطاً ، وجلست
أقرأ كتاباً بانتظار نجوى .

ولم يطل انتظاري ، فقد وصلت كالعاصفة بعد لحظات .
— لقد تأخرتُ ... آسفة ...

— لا بأس ... انا لست جائعة ...

— كان حديثي مع وزيركم ممتعاً ... انه لطيف جداً
جداً ... ستكون المقالة رائعة ! قابلت ايضاً الامين العام ، وقال
انه يعرفك ، وهو يبعث اليك بسلامه ... أتعلمين ان برنامج
« البكالوريا » سيطرأ عليه تعديل في السنة المقبلة ...؟

ودخلت دنا تقطع ثرثرة نجوى :

— آتسة ... الطعام جاهز ...

— شكراً يا دنا ...

— ريم ... هل تشرحين لي كيف لا يعترفون هنا في الجامعة
السورية بقسمي « البكالوريا » الفرنسية ؟ انها مقبولة في كل
جامعات الدنيا ...! نعم انا اعرف ان سوريا على خلاف مع
فرنسا ، ولكن السياسة والمشاعر شيء ، والعلم شيء آخر !
العلم فوق كل شيء

قلت بدون مبالاة :

— قد تكون هناك اسباب نجهلها ...

— نعم ... سألت عن هذه الأسباب فقل « إنه قانون »

قلت مازحة :

— اذن ... هذا هو السبب ... انه قانون ! والآن هيا بنا نأكل ..

وتقدّمتها الى غرفة الطعام . تبعني اقوالها :

— انت ايضاً ! هل تكفيك كلمة قانون لتتقبلي اشياء لا

تفهمينها ؟ اشياء غير منطقية ؟

— الحقيقة ان هذا الموضوع لا يهمني ! تعالي لقد برد الطعام.

وجاءت :

— ريم ... هذا الموضوع لا يهكم لكنه قد يهم الكثيرين ؟

فماذا تراهم يقولون ؟

ضحكت :

— لا تتعبي نفسك بالبحث عن هؤلاء الكثيرين لأنهم

سيقولون : انه قانون !

— انا لا افهم ... لا افهم ! الافضل ان نأكل !

والتهمت طعامها بسرعة :

— يجب ان اكتب حديثي مع الوزير وأنقحه .

وخرجت الى القاعة ، وجلست وراء الطاولة ، وغرقت

في تسجيل الاسئلة والأجوبة .

تبعته ، واستلقيت على الديوان الأخضر ، احديق الى

السقف ، باحثه عن نقاط سود ... او خيط عنكبوت يلون

بالحياة هذا البياض الواسع الذي يشبه العدم ، واستمعُ الى حديث نجوى المتقطع :

— هل حدثك عن مشاريعي ؟ في السنة القادمة ، سأصدر مجلة فنية ...

وترجع الى مقالاتها ، لترفع رأسها بعد قليل :
— هل اخبرتك اني قد اذهب الى اوروبا بمهمة صحفية ؟
وتسكت فترة :

— اتعلمين ؟ يخطر ببالي احياناً ان اتزوج !
كنت اعرف قصصها ، ومشاريعها التي لا تنفذ ابداً ،
وحيويتها التي لا تعرف الكلل !

وقاربت الساعة السادسة ، واذا بها تقول فجأة :
— انتهيت ! ارجوك الآن ان توصليني الى بيت زياد مصطفى
— ماذا ؟ هل اخذت منه موعداً ؟
— لا ... يجب ان اخبره اليوم ، لكنني اعتقد أنه في البيت ،
وسأذهب اليه حالاً ... فانا اريد ان انتهي من حديثي معه ايضاً ..
— انا لا اعرف بيته !

— كيف لا تعرفين بيته ؟
— أوكد لك ...

وفجأة تذكرت حديثه ، حين خابرتة البارحة ، فقلت :
— اعرف على الأقل الحي ... سأوصلك إذا شئت بشرط
ان اعود حالاً ...

— هيا بنا ... لا حاجة بك الى ان تُعني بشكلك ، ما دمت

ستعودين .

نهضت متثاقلة ، وخرجنا من البيت معاً .

*

أوقفت سيارتي قرب السفارة الالمانية ، وقلت لنجوى إنه
يسكن في احدى شقات هذه البناية المواجهة ، فنزلت من
السيارة وهي تقول :

— ارجوك ... انتظريني قليلاً ... فقد لا اجدّه ... دقيقة
واحدة ...

وانتظرت ...

وانتظرت ... لم تعد ! وفجأة ، كان هو يفتح باب سيارتي
ويقول :

— لماذا انت هنا ؟

— مساء الخير ... اين نجوى ؟

— انها تنتظرك عندي ... فقد اخبرتني انك ستعودين حالاً
لى البيت ، فأسرعت كي ادعوك .

— شكراً ... ولكن ... يجب ان اعود ...

— آتسي ... انه لشرف لي ان تزوريني ... يسرني كثيراً
ان تري بيبي ...

ورنا الي بطفولة ... راجياً ، وجاءت يده تشد قبولا ،
وتتم :
— ارجوك ...

اعجبتني نظرتة ، وسرني اهتمامه ، فراحت يدي تتكى

على يده ... ونزلت من السيارة .

*

— هذه غرفتي الخاصة ...

وقفت مستغربة ، ثم جدلى ، وسط هذه الغرفة الأليفة ،
احاول ان التهم بعيوني كل ما يحيطني . شردت عن كل
شيء ... ونسيت كل شيء ...

نسيت اني هنا ، لأول مرة ، ازور الموسيقى ، نسيت ان
اردّ عليه وهو يردّ « اهلاً وسهلاً ... اهلاً وسهلاً ... »
نسيت ان نجوى تنظر الي مغتظة ، وتنتظر متحرقة ، جلوسي
كي تبدأ حديثها معه ، ونسيت غروري كامرأة ، ولم يعد يعكّر
صفوي ان شعري مهمل يتهدّل على اكتافي ، واني البس الحفّ
المقطع ، وثوباً منزلياً بسيطاً ...

فالدفع الذي يهفّ من كل زاوية ، من كل ناحية ، يُشعّرني
بأنني لست غريبة في هذا الجو الشاعري ...
وكيف اكون غريبة ؟ وانا حبيبة الشعر ... وابنة الدفع
والحياة ؟

شعرت براحة تتغلغل في روحي ، ودارت نظراتي بسرعة .
خيل لي ان اثاث بيت بكامله حُشر في هذه الغرفة فبدت صغيرة
على سعتها .

الفوضى تبرع على عرشها ، لكنها فوضى منسقة ، فوضى
لها جمالها ، ومنسجمة وروح الألحان ...
... كتب نائمة على الارض ، في الركن ، ترقّب بصبر

صديقاً يقرأها ...

... ديوان أحمر ينتظر من ينفخ في احضانه همسات حب
فيختلج الحديد في جنباته ...
... لوحات مكدسة ، ثن . وترفع وجوهها نحو الجدران
تسألها : « هل من مكان ؟ » ..

واسترعت انتباهي كثرة منافض السجاير المبعثرة في كل
مكان . واقتربتُ من المقعد المجلل برسوم « البيكاسو » ،
وتخيلت هذا المقعد ، حين تُسدل الستائر المشابهة له ، وتنعكس
عليه الأنوار الخافتة ، ويملاً فراغه انسانٌ شارد ، تتسرب
من انامله الحان ساحرة ... هذا المقعد يصبح نبع حياة ...
والتفت الى الموسيقى .

كان يراقبني قلقاً ... قال بابتسامة طفلة :

— هل اعجبتك غرفتي ؟

— رائعة ... رائعة ...

واردفتُ ضاحكة :

— لكن يلزمي فترة طويلة ، طويلة كي استوعب كل

محتوياتها ...

وسألتُ نجوى :

— استاذ زياد ... هل نبدأ حديثنا .

— تفضلي .

ابتعدت عنهما ، وجلست على كرسي صغير قرب الكتب ،
ومددت يدي ابحث عن كتاب ... او سطر في كتاب ... او

حرف في كتاب ... يحدّثني عن مضيفي . لكن الحديث جاء
من تلقاء نفسه يروي فضولي :

— استاذ زياد كم عمرك ؟

ضحك ، فاستدركتُ :

— هل يضايقك سؤالي ؟

— لا ... ابداً ... انما جوابي يضايقني ! أنا يا آنستي في

التاسعة والثلاثين ...

— منذ متى ابتدأت تولف ؟

— منذ الازل ! انا لا استطيع ان افكر انني لم اوّلف دائماً.

— عظيم ... استاذ ... عندي سؤال : لماذا لم تتزوج ؟

عجبتُ ! هذا سؤال شخصي لا يسأل ! اين ذوق نجوى

وحسها المرفف ؟ هل قتلتهما مهنة الصحافة ؟ وازداد عجيبي

حين ردّ عليها بلهجة طبيعية ... لهجة من تعود اسئلة

الصحفيين .

— قضيت سبع سنوات في اوروبا وما اردت يوماً ان اتزوج

فتاة اوروبية . اعتقد ان هذا هو السبب الرئيسي ...

— ما رأيك في الزواج ؟

اجبتها انا فوراً :

— مؤسسة فاشلة !

ضحك وقال :

— سجلي آراء الشاعرة ، فمن الغريب ان آراءنا دائماً

متشابهة ... نعم مؤسسة فاشلة خصوصاً اذا كان احدهما

فناناً . فالزواج رتبة ، والرتابة تقتل الفن ! ثم انا شخصياً
اعبد الحرية ...

— ما رأيك في الحب ؟

— الحب عاطفة سخيفة وزائلة ... الحب وهم ... ! انا

لا احب !

لماذا شعرتُ بانقباض ؟ ما همني اذا احب ام لم يحب ؟ ما
همني اذا كان مادياً وكانت عواطفه سطحية ؟

حاولتُ ان ادفن انزعاجي في صفحات كتاب في يدي ،
فلا استمع الى اقوالهما . لكنّ سؤال نجوى اعادني الى الانصات :

— هل تحب الشعر ؟

التفت اليّ وتأمّلني ضاحكاً ، وكأن الشعر قد تجسم في
شخصي ، وهتف :

— احبه كثيراً ...

ضحكتُ بالرغم مني وقلت :

— لا ... من دون مجاملة ... إذا كنت لا تحبه فهذا لن

يزعجني !

— أوكد لك اني احبه ... احب الشعر ... والشعراء ...

اما الشاعرات ...

قاطعتُهُ :

— دع جملة من غير تعليق ... تكن اجمل !

— لك الحق .

— هل أنت من محبذي الشعر الحديث ؟

قلت فوراً :

— طبعاً !

هزّ اكتافه مطاوعاً :

— هكذا امرت !

— إذن ما رأيك في الشعر الحديث وفي الشعر القديم ؟

اجبت أنا ايضاً :

— لا مجال للمقارنة ... فكل عصر نوعه وأسلوبه ...

ضحك :

— هنا ايضاً سجلي آراء الشاعرة ... من الخطأ ان نحاول

وضع الأسلوبين في ميزان واحد ، أنا مغرم بالشعر القديم

ولكن هذا لا يعني اني ناقم على الشعر الحديث وانني احاربه .

على العكس ، انا اعتقد ان الشعر الحديث هو الذي يتماشى

وعصرنا ... انه يصور حياتنا الآن ... الحياة اليومية التي

نعيش ... بسرعتها ، وتقدمها ، واشيائها الصغيرة ، وتفاهاتها

ايضاً ...

— اما فكرت في ان تكتب الشعر ؟

— بلى ... حاولت ان انظم ، حاولت ان ارسم ، ثم تركت

جميع هذه الفنون لأصب كل اهتمامي في الموسيقى ...

— هل تتكرم وتعزف لنا شيئاً الآن ؟

ضحك مرة اخرى :

— أهذا ايضاً من جملة اسئلتك ؟

— انه الأخير ... إذا أردت ...

حمل القيثارة ، فحملتُ الكرسي الصغير ، واقتربت منه ...
وانطلقت الألحان ...

ولأول مرة ، غابت نظراتي في أنامل سحرية بدت
كحوريات صغيرات يرقصن على أسلاك من نور ، وسبحت
نفسي في دنيا عبقة ، ومرت ساعة ، وعجبت . كيف تمر
ساعة من عمري دون ان اشعر بطولها ...

وحين وقفنا نبغي الأنصراف ، صافح زياد نجوى وسألها :
— هل تبقين طويلاً في دمشق ؟
— خمسة أيام .

— إذن يجب ان نجتمع مرة ثانية قبل ذهابك ... ما رأي
الشاعرة ؟
التفت إليه ؛

كان مكتفٍ اليدين ... ترفّ أهدابه للدخان لفافته ،
والحمر الأحمر يلتهم الهيفاء البيضاء ببطء ... ولكن حطامها
يظلّ متماسكاً ، وكأنه يأبى مفارقة شفثيه ، والسقوط على
الأرض .

بصورة عفوية مددت يدي ، وبسطتها ، التقطت في راحتي
الرماد المتماسك المرتجف ...

حلق إليّ مذهولاً ... وارتفعت يده فوراً تضمّ يدي ...
فاشتعلت يدي ... واحسستها هي الأخرى تمسي رماداً ...
سحبته برقّة وحذر ... واستدركتُ اجيبه :

— طبعاً ... يجب ان نجتمع ... بالمناسبة ... هل تستطيع

غداً ان تقضي سهرتك معنا ؟ سيأتي بعض الاصدقاء ...
ظل ينظر إليّ ، مأخوذاً بالحركة البسيطة ... ثم دمدم :
- بكل سرور :..
- إذن ... الى الغد :..

٦

ماذا ارتدي ؟

الثوب الرمادي العريض ؟ ام البنفسجيّ الضيق ؟ عذّ بني
الاختيار ... واخيراً قررت ان البس الثوب الأسود لأن هذا
اللون يوحي اليّ بالرفعة والسمو ...

ولأول مرة تأخرت في تصفيف شعري وعقصه ، أردت
ان ابدو جميلة ، فالجمال يعطي الفتاة قوة وكبرياء ...
امتلاً جو الردهة بالضوضاء ... كانت نجوى في الركن
تتحدث مع الدكتور عدنان ، وتلقي عليه اسئلتها المعتادة :
« كم عمرك ... ما رأيك ... الخ » وكانت ليلي تلغظ معهما ،
ولا تترك مجالاً لأجوبة الأديب !

وكان خالي سمير ، وعصام ، وناديا وصديقان آخوان
يتحدثون ويتناقشون ...

اما هو ، فكان يستمع إلى الجميع ، ويهز رأسه ببرود .
شعرت بأن الملل يتسرب الى نفسه ، وصدق شعوري ، إذ
لم يلبث ان وقف ، وانسلّ من بينهم ... الى القاعة .
تبعته .

نظر إليّ وقال دون اكتراث :

— ثوبك جميل ...

ثم التفت يتفحص الكتب من جديد . جلست اداعب
اصابع البيان .

اعاد كتاباً في يده الى مكانه ... واقترّب ... وجلس
قبالي على كرسيّ صغير ... يقول :
— أنت مثلي تملّين بسرعة ...
هزرت رأسي ، وابتسمتُ ...

— لماذا تعيشين في هذه البلدة ، وباستطاعتك ان تذهبي
اينما تشائين ؟

— بل أنا ابنة هذه البلدة ، واحبها ... احبها من كل قلبي ...
استوضحني هازئاً :

— وماذا تحبين في هذه البلدة الميتة ؟

شعرت بشيء من الشفقة عليه : كيف لا يقدر جمال
بلدتنا ؟ وشردت نظراتي ، وانسابت كلماتي مفعمة بالحنين :
— احبّ ... احبّ لياليها ... وسماءها الواسعة الرحبة ...

احب شمسها المحرقة ، واللهب الذي تزفره شوارعنا ايام الصيف .
احب في الشتاء شوقنا إلى المطر ... وخوفنا من الرعود ...
وهذياننا أمام الثلج ... احب انهارها ... هذه الشرايين التي
تلون بالاخضرار واحتنا ... ماذا احب في بلدتي ؟ وماذا لا
احب فيها ؟ احبّ حتى الأحجار المهمة التي ترتمي على
الرصيف الى جانب بيتي ... والهواء الحار المزوج بالغبار
الذي يوجع عيوني ... وفنجان قهوتنا ؟ وهل هناك ما هو
اطيب من فنجان قهوتنا ؟ نعم احب بلدتي ... وكم تمنيت
لو كان اهلها كأرضها ، طيبين ... لكنني احبهم برغم
سيئاتهم ، نعم احب حتى هذا المجتمع الذي يحاول احياناً
تخطيمي ، وتخطيم كل فرد يريد ان يحيا ...

كان يصغي إليّ ، ساكناً ، مبتسماً ... ثم قال :

— غريب ... غريب جداً ... انك عكس ما كنت
اتصور ... انك حساسة جداً ... جداً ... وروحك ، وأنت
تحدثين ، تُطلّ من عينيك ... ان ما تقولينه لشعر ... هل
تكتبين كل هذه الاشياء التي تقولين ؟ لماذا لا تكتبين دوماً ؟
لماذا لا يكون انتاجك ضخماً ؟ نحن بحاجة الى شاعرات ،
إلى ادبيات ، الى أصوات نسائية ترتفع ... وترتفع ...

ابتسمتُ بحزن ... سأل :

— هل تحبين الموسيقى ؟

— كان هدفي فيما مضى ان ادرس الموسيقى ، بل لقد
درست قليلاً منها في الماضي ... لكن هدفي تحطم . ككل

الأهداف التي رسمت ، فقد رفض اهلي ان أكمل دراستي ،
ولم يشجعني احد ... نعم حطّموا كل اهداني ، ويومها لم
اكن املك الامكانيات المادية والقوة المعنوية للتمرد على
الجميع ...

قاطعني :

– ولكن ... الآن ؟

– الآن ؟ تأخرتُ ... لكن ... من يدري ربما اكملت
دراستي ...

وسكت ... وأنا أراقب امتزاج اصابعي باصابع البيان ،
وهو الى جانبي يراقبني ...

– أنا اعزف بعض مقطوعاتك ... واحب خصوصاً هذه ...
وحاولت ان اعزفها وانا اشرح :

– احبّها ... انها توحى اليّ بعاطفة تنمو ... تزهر ...
يضوع طيبها ... هنا مثلاً ... هذه النوتة ... جميلة جداً ...
اوج العاطفة ... قمة الحب ... ثم هنا ... تفقد من حدثها ...
تنخفض ... وتتلأشى شيئاً فشيئاً ... ثم هنا كان لا بد ان
تموت ... وماتت ...

كانت الدهشة في عينيه تستقبل كلماتي :

– اتعلمين ان هذه هي مقطوعي المفضلة ؟ وانك اول
انسانة تفهمها تماماً ... تماماً ... هذا غريب ...

– انها واقعية جداً ... تصوّر حياتنا ... هي قصة الزهور ...
قصة الإنسان الذي يوجد في الدنيا وحين يعتقد انه سيؤكد

وجوده ... يموت ... قصة الحب الذي قد يصل إلى درجة
الجنون ... ثم يفتر ... وينطفئ

ابتسم :

— هل تصديق فعلاً ان هناك شيئاً يدعى حباً ؟

لم اردّ ، وانتظرت آراءه :

— الحب هو الأعجاب بكل شيء جميل ... هو لذة
موقّنة ... لذة اللحظة ... هذا هو الحب .

لم اكن موافقة مطلقاً على رأيه ، لكنني ابتسمت دون
ان اجيب ، وتابعت مداعبة اصابع البيان ...

قرب وجهه ... حتى كاد ان يلامس يدي ، وقال بهمس :

— ما اجمل يديك ... تقطران انوثة ... بعد روحك
الشفافة ، اجمل ما فيك يداك ...

وبكل هدوء ، امرت شفّتيه على أناملي ...

احسست بقشعريرة تسري في جسدي . ما قصتي مع
هذا الرجل ؟ انا اعرف الكثيرين من الرجال ، بل ان اكثر
اصدقائي من الرجال ، فما باي ارتجف لشفّتين تلامسان
أناملي ؟ أهو سحره ؟ ام وقاحته ؟ ام التحدي الذي اشعر به
في داخلي ، نحو رجل لا يريد سوى اللهو ؟
وملأني النعمة .

أنا بحاجة الى ان اقول له : « انا اعرف قصدك ... اعرف
انك تبحث عن وجه جديد تضيفه الى ضحاياك ، اعرف ان
وحدتي غرتك ، اعرف قصصك ... ومغامراتك الكثيرة ،

اعرف ... اعرف ... »
هذا الرجل وقح ... يعتقد ان الفتيات « مواد » او
بضاعة يشتريها بهمساته ...
لماذا لا اصفعه ؟

ما الذي يمنعني ، وانا في بيتي من ان اقفه إلى الشارع ؟
ولكن لا ...
شعرت بضرورة افهام هذا الرجل ، انني غير تلك الفتاة
التي يظن !

وكأن التحدي ، الذي كبر في نفسي ، دفعني الى احتماله ،
والتغاضي عن تصرفه ، لأعلمه ، مع الأيام ان الحياة قيم يجب
مراعاتها ، وان تجارة العواطف خاسرة لا محالة ...
وحاولت جهدي ان ابتسم ، وان اغلف صوتي بلهجة
المزاح :

... لا شك انك فنان ... فإن الجميع يقولون انّ يديّ
قبيحتان ...
وانتصبت واقفة ، ومشيت وانا اضحك ، نحو الآخرين ،
وتبعني ...

٧

تساءلت ، وانا اخرج من الوزارة ، لماذا تكرهني احدى
الزميلات ؟ بمحض الصدفة ، وانا اخترق الدهليز الطويل
متجهة الى مكثي ، بعد ان حملت الى المدير اكداً من
الأوراق التي انهيته في الصباح ، وصلت الى اسماعي
احاديثُ مرّ فيها اسمي .

توقفتُ ، وإذا بصوت زميلة اعرفها تسأل احدهم :

— ما رأيك في ريم ؟

— انا لا اعرفها ، لكنني احترمها فهي لطيفة ، متواضعة

وتعمل بجد ...

اجابته بسخرية ولؤم :

— انت ايضاً تغرك ابتساعاتها الرقيقة ؟ تعمل بجد ! وهل

تفهم شيئاً في عملها ؟ انها تعمل فقط ليقال عنها انها تتحدى المجتمع ! إنها بطرة ... إنها ...

لم اتوقف لاسمع المزيد ، فقد كفاني ما سمعت ، وفهمت ما هو معدن زميلتي ، فعدتُ الى مكثي ، وحزمت أوراقي وانصرفت .

زميلتي احدى الفتيات الكثيرات اللواتي يتحلين بمركب نقص ! تريد ان تحطّ من شأن غيرها كي يرتفع شأنها هي . ان رأيها لم يزعجني ، على العكس سرتني واعتبرته مديحاً . فلو كانت شخصيتها « قمة » لما حاولت تحطيم كل القمم التي تحيطها كي تعلو هي ... وتعلو ... على حطام هذه المرتفعات .

تفاهة ... تفاهة ... تفاهة ...!

وشعرت بحزن ، حزنت لأن التفاهة تحيط بي ، ولأنني اكره التفاهة .

وكنت اقطع الشارع إلى الرصيف الثاني ، حيث تركت سيارتي ، وإذا بي وجهاً لوجه مع عمي .

ابتسمت . فجاءت ابتسامته صفراء ، لئيمة ، وقال :
— ايه ... انت دائماً في الطرقات ...

وددت لو اقتله في هذه اللحظة ... لكنني اسرعت الخطى ، وركبت سيارتي اهرب الى بيتي وعيوني مغرورة بالدموع . لماذا يهاجمني اناس لا اريد لهم سوى الخير ؟ لماذا يحقد عليّ اشخاص لم اسيء اليهم ابداً ؟

وشعرت بحاجة الى عطف ... ودخلت بيتي .

استقبلتني نجوى حالاً بقولها :

— ريم ... هل تمانعين ... إذا دعوت الدكتور عدنان
والأستاذ زياد في الساعة السادسة لأخذ فنجان من القهوة ؟
أريد ان أقرأ لهم ما كتبت .

طبعاً لم أمانع ، مع ان حالتي النفسية لم تكن مستعدة
لاستقبال احد ... خصوصاً هذا الموسيقي المغرور ... !
وارتميت على الديوان الأخضر ، اغمر نفسي بموسيقى
شوبان واغمر بالحفون ... دموعي الحبيسة ...

*

جاء هو قبل الموعد المحدد بساعة ، فقد حصل سوء
تفاهم ، واعتقد اننا ننتظره في الخامسة . فاعتذرت نجوى ،
ودخلت تعني بزيتها ، وبقيت ... احادثه عن شوبان ،
واستمع الى آرائه عن هذا الموسيقي ؛ وتطور الحديث الى
الفن اجمالاً وقال فجأة :

— يعجبني شعرك الأسود .

ضحكت ساخرة :

— انا لا اعني به مطلقاً ...

— لاحظت ذلك ... لماذا ؟

قلت لا مبالية :

— ولماذا اعني به ؟

تأملني طويلاً ، مستكشفاً ، ثم قال :

— غريب ... انك تبعثين في نفسي الحيرة ... غريب ...
أنت تضحكين دائماً ... ولكن ... ولكن يخيل لي ان وراء
رنين ضحكك نفساً تتمزق ... ما قصتك ؟ هذه الابتسامة
ليست إلا ستاراً ...
فجأة ...

احسست بحزن دفين ... يُبعث ... يطفح في قلبي ...
ليفرّ درراً من المقلتين ... ولم اقل شيئاً ... وماذا اقول ؟
أخبره عن جميع الحوادث التي مرت بي وادمت قلبي ؟
أحدثه عن هذا الفراغ الذي ينهش شبابي ...
ماذا اقول ؟

اني احاول بجميع الطرق ان اجد معنى لوجودي ، لكنني
اكتشف يوماً بعد يوم ، ان وجودي تافه !
ماذا ... ماذا اقول ؟ اني يائسة من هذه الحياة ، ومحرومة
من عطف والديّ ، وضائعة في مجتمع سخيف ؟ وبحاجة الى
حب صديق ... صديق مخلص ؟

هل اقول له ان هذه البلدة تعج بالوصوليين امثاله الذين
يركضون نهمين ... وراء المرأة ... ويثيرون الإشمئزاز في
نفسي ؟
لم اقل شيئاً .

كان لدموعي وقع غريب على نفسه لم اكن انتظره ...
في برهة ثانية ، انقلب هذا الشخص المادي المستهتر الى أب
حنون :

- ريم ... ريم ... لا تبكي ... لم هذا اليأس ؟ صغيرة
 انت ... والمستقبل امامك ... والحياة مليئة بالمباهج ...
 كانت هذه اول مرة يناديني فيها باسمي مجرداً ، ومدّ
 يده يريد مسح خدودي ، لكنه ردّها ... بصورة لا شعورية
 وكأنه خشي ان يدنس طهارة دموعي ... بأصابعه الخشنة .
 شعرت براحة ، ووددت لو ابكي على كتفه :
 - ريم ... اخبريني ما بك ؟ ماذا يحزنك ؟ ما قصة خطبتك
 يا ريم ؟ لماذا تعملين ؟ كل هذا يشغل بالي ... ماذا بك ؟ من
 كل قلبي اريد مساعدتك ...
 رفعت نحوه محجريّ الطافحين بالدموع ، فسرى صفاء
 عينيه الزرقاوين في نفسي . في هذه اللحظة ، كانت عيناه
 نقيتين كعينيّ طفل أحزنه بكاء أمه ...
 سررت ، وبين خطوط الدمع اللامعة اشرقت ابتسامتي :
 - لا شيء ... ارجو المَعذرة لضعفي ... انه يأس عابر ...
 ملل بسيط ... وكما ترى انا ابتسم الآن ...
 - صدقيني يا ريم ، انت الفتاة الوحيدة التي شغلتنني
 وتشغلني قصة نفسيّتها ، وكل ما يجذبني نحوك هو روحك ...
 هذه الروح الشفافة . انا لست مادياً وواقعياً وعديم الشعور
 كما تظنين ... انا انسان يقدر ويشعر ... لا تعتقدي ان
 الماديات تهزني ! اتذكرين حين مددت يدك لتتلقني رماد
 سيجارتي ؟ ان هذه الحركة البسيطة هزّت اعماقي ... وتساوي
 في نظري اجمل امرأة في العالم ... لماذا تبكين يا ريم ...

كيف يبكي الشباب ؟

مرت في خاطري كلمات ... كنت سأهمسها :
« صاحبي . لا تسلْ .. مقلتي للمال .. ساجدة .. »
« لا تلمني ، انا .. نعمة في الدنا .. شاردة .. »
لكنني سمعت وقع خطوات نجوى تقترب ... فمسحت
دموعي على عجل ، والتفتَ هو اليها يقول :
— اهلاً بك آنسة نجوى ... الله ما اجمل ثوبك ...
وتغيّر مجرى الحديث ، وتغيرت معه هذه النظرة الانسانية ،
لتعود كما كانت فاحصة ، مادية ، نهمة ...

*

مضت بضعة أيام ، ودعا نجوى عملها الى العودة الى
بيروت . جلستُ بالقرب مني على حافة السرير ، لأن التهاب
الجيوب الذي اشكو منه كان قد الزمني الفراش .
— آسفة ان اتركك يا ريم وانت مريضة لكنني ارجو لك
الشفاء العاجل ، وآمل ان اراك عما قريب في بيروت . كانت
اقامي في دمشق موفقة جداً ...
وسكتتُ ... لتسأل بغتة بلهجة جدية :
— ما نهاية علاقتك بزياد ؟
ذهلتُ !

— وهل هناك علاقة بيني وبين زياد ؟ هل جنت ؟
— لماذا تستغربين ؟ الا تشعرين يا ريم بانه مهم بك ؟

ضحكت من سذاجتها :

— انت لا تعرفين هذا الرجل ... انه يهتمّ دائماً بالجمال ويحوم حوله كما تحوم النحلة حول الزهور ... هو يريد ان يتمتع بالمرأة ثمرة يانعة ... ليلفظها نواة ... انها نعمة يضيفها الى نعماته ليبحث بعدها عن نعمة جديدة ... وهو قد اغراه سني ... ووضعي كفتاة وحيدة ...

— انت تبالغين في وصفك هذا الشخص ! ثقي ان ما يجذبه نحوك ليس جمالك بل روحك ، انت تشبهينه بشكل غريب .

— انا اشبهه ؟ الهى كم انت مخطئة ! يا نجوى ... انا مثالية الى حد السخافة . وهو واقعي الى درجة الابتذال ... انا ارى الدنيا من خلال عاطفتي ، وهو لا يعترف بأن هناك عاطفة !

هزت رأسها تشرح :

— انت تنسين ان تسعة عشر عام تجارب تفصل بينكما ... هذا هو الفارق الوحيد ...
واستدركت :

— طبعاً ... طبعاً ... انا لا اتحدث عن الفارق المادي فهناك فوارق شاسعة ... الدين ... والبيئة ... والسن ... نعم يا ريم ... انك على حق ... اية علاقة بينكما ستكون مستحيلة ...
ثم نظرت الى ساعتها :

— حان وقت سفري ، يجب ان اخبر جميع الذين

قابلتُ ... فأودعهم ...

واقتربتُ من الهاتف .

حملت اليّ الأسلاك أصوات الأصدقاء وسلامهم ...

كلهم سألوا عني وحدثوني ، كلهم ... إلا هو ...

وسافرت نجوى ، وبقيت وحدي ...

وحدي !

لماذا انا اليوم اشعر بالوحدة اكثر من بقية الأيام ؟

وحدي في هذه الحجرة ، انظر حولي ، واتمنى لو امزق هذه

الستائر ، وهذا اللحاف ... وكل ما فيه زرقة ولون سماء ...

حتى دفتر اشعاري الصغير ...

انا اكره اللون الأزرق ، فلماذا كل هذه الاشياء تستحيل

عيوناً زرقاً ... تحملى فيّ ... وتذكرني بوحدتي ؟

لا شيء يوحى اليّ بالحياة هنا ، سوى هذه الساعة التي

تهوي دقائقها الرتيبة على اعصابي فتؤلمني ... تؤلمني ... لانني

لا اريد ان اعرف للوقت حدوداً ...

وتسمرت عيني على الهاتف الجاثم على مخدتي . لماذا

اخترعوا هذه الآلة ؟

برمت من صمتها !

الساعة ترمقني ... تغريني ... تسخر مني ...

ما الذي يمنعني ... ؟ ما الذي يمسك يدي عن مداعبة

ارقام تشغلي ؟

ولكن لا ...

انا لن اعترف للأسلاك ... بأن الانس لديه !
وتغلغلْتُ في فراشي ،
احجب باللحاف الهاتفَ عن عينيّ ، وبالكبرياء ...
لحفني النامية ...

٨

مرّ يومان قبل ان يمزق غلالة السكون التي تحيطني هتاف
الهاتف ...

يومان كبائي الأيام ... فارغان ... الا من الملل ... ملل
من هذه الساعات الرتيبة ، ملل من الثواني الطويلة ، المتشابهة ...
ملل من مرضي ، ومن الألم الذي لا يزيد ولا ينقص ...
مرّ يومان ... ثم سمعتُ صوته ...
ولأول مرة ، مذ عرفته ، تنبّهت لنبرات هذا الصوت :
صوت عريض ... بطي ... تلفّه البحة ...
صوت فيه كثير من الرجولة ... كثير من الكسل ...
صوت يوحي بالهدوء ... ويشع دفئاً ...
كان يتكلم ...

ومذّ تفوه بأول جملة :

— آنستي ، مساء الخير ... ألا يجوز ان تتكرمي عليّ
مرة بمخاطبة ؟

نعم ... مذّ تفوه بأول جملة ، شعرت بالفراغ كله
ينهار ! وعجبت من نفسي كيف نسيت حالاً ملل اليومين
السابقين ، وكأن هذا الملل لم يكن الا انتظاراً وترقباً ...
واردف يقول :

— توقعت ان اسمع صوتك عندما خابرتني الآنسة
نجوى ... لكنك ايت عليّ ذلك
قلت متحدية :

— وهل سألتها انت عني ؟
— لم اسأل لانك لم تسألي ...
وضحك :

— الم اقل لك اننا نتشابه ؟ نضع كبرياءنا في غير موضعها ...
لكنني نسيت كبريائي اليوم ...
اخبرته اني كنت مريضة ، ودعوته الى اخذ فنجان من
القهوة ... وقبل .

رفست اللحاف عن جسدي ، وهبيت واقفة وانا اتساءل :
لماذا لزممت الفراش ثلاثة أيام ؟ هل كنت حقاً مريضة ؟ ابسبب
هذا الألم البسيط الكامن في جبهي ، وفي اعلى خدودي ، والذي
يسمونه « الجيوب » ؟
اني جبانة ! ولكن ...

كانت اوجاعي البارحة اقوى مما هي عليه اليوم ... انا
اليوم قد شفيت ...

ونظرت الى نفسي في المرآة ... وضحكت .
ضحكت من ضعفي ، ومن كبريائي ... لماذا لا اعترف
بأن مرضي ما زال كما كان وان الألم لم ينقص ، انما نفسي
هي التي تغيرت !

ارتديت ثيابي على عجل ، واقتربت من النافذة انتظر
مجيئه

استقبلته رانية على الباب بابتسامتها المرحه ، فابتسم لها ،
وامسك بيدها ، واقتربا مني ، وبعد ان حدثني باقتضاب ،
استجاب طلبها ، وراح يلعب معها بالكرة وكأنه طفل
صغير ... ونسني .

جلست على المقعد ، اتفحصه بعين مجردة . ما الذي
يعجبني في هذا الرجل ؟

كنت فيما مضى اتخيل ان الموسيقى ... ان الفنان ...
يجب ان يكون نحيلاً ... هزيلاً ... ذا وجه ضيق شاحب ،
وانف طويل حاد ، وشفتين رقيقتين ترتجفان ، وعينين
غائرتين يستولي عليهما الشرود ...

انه ليس كذلك ، بل ان هيأته مناقضة تماماً للصورة التي
رسمت في مخيلتي للفنانين ...

فهو طويل القامة ، مليئها ، ينحني ظهره قليلاً ، وكأنه
ينوء بتاريخه الثقيل ...

اما زرقة عينيه فهي لا تتناسب مطلقاً ونظرته المادية ،
وهاتين الشفتين المكتنرتين .

لا ... انه ليس جميل الطلعة . ولكن شيئاً ما في وجهه
شيئاً ، لا ادري كنهه ، يجعلني اوّمن بأنه ليس غريباً ... يجعل
الانسان يرتاح اليه منذ المرة الاولى التي يقابله فيها ...
وجاءت المربية تصحب رانية ، فعاد اليّ ، واخذنا
نتحدث بصورة طبيعية وكأننا اصدقاء قدماء ...
اخبرني انه ، هو ايضاً ، يشكو من التهاب الجيوب ،
وضحك وهو يقول :

— حتى امراضنا ... متشابهة ...

سألته اذا كان يؤلف في هذه الأيام ، فأجابني انه مشغول
جداً . اذ ان الامتحانات قد اقتربت ... ودهشت ! ما علاقته
بالامتحانات المدرسية ؟ وساءه اني لا اعرف عنه الا القليل ،
واخبرني انه يعطي دروساً باللغة الانكليزية في احد المعاهد ،
إذ ان وظيفته في الشركة لا تشغله كثيراً .

ولم تطل زيارته ، وانصرف بعد ان وعدته ان اخبره
في الغد ...

وخبرته في الغد ... وبعد الغد ... وزارني بعدها مرة ...
ثم ثانية ... ثم ثالثة ...

وكانت هذه الزيارات دائماً قصيرة ، لذيدة ، تسرني ،
وترضيني ...

لم يعد يتفوّه بأية كلمة تجرح شعوري ، ولم يعد يجزئي

بتلك النظرات الفاحصة ، على العكس ، أصبح ينير عينيه
بريقُ طفولة ظمأى الى حنان صافٍ ...

ورفرف بيننا نوع من التفاهم الودي والصدقة الهادئة .
لكن آراءه ظلت تضايقي . كان كل شيء برأيه مادة :
الحب ، امرأة جميلة ، والمرأة جسد ! الصداقة مصلحة
شخصية ، كلها زيف ! الأهل انانية ، روابط سخيفة !
التضحية ضعف !

نعم ، كان لا يؤمن بشيء اسمه سمو ، وعاطفة نبيلة ،
وحين كنت اعترض آراءه كان يقول :

— أنت طفلة ، تعيشين في الخيال ! متى تصبحين امرأة
واقعية ؟ المثل العليا لا تفيدك بل تحطملك ... ارميها وعودي
الى الواقع ...

وعرفت الكثير عن أشغاله ... الوظيفة في الشركة التجارية
والتدريس في المعهد ... وعن حوادث وحوادث جرت له
في الماضي ؛ فقد انس إليّ وأصبح يخبرني بما يحول في خاطره .
لكنني لم اعرف شيئاً عن حياته الخاصة ... ولا عن
صديقاته الكثيرات ... وما أردت ان اعرف !

فقد اعتبرت ان لكل منا حق الاحتفاظ بحياته الخاصة
لأن ما يربطنا لم يكن سوى مجرد علاقة فكرية صافية ...
صداقة شفافة ... وليس هناك موجب لأن يحشر الواحد
منا أنفه في حياة الثاني ... يكفيننا ان يرتاح احدهنا الى الآخر
خلال الساعات القليلة التي نقضيها معاً .

وكان يحيطني باهتمام ورعاية ، فيسأل عن عملي ...
ويهتم برائيّة ، ويشجّعني على الكتابة دائماً ، ويقنّعي بالعودة
إلى الجامعة وإكمال تحصيلي .
برغم كل ذلك ، كنت دائماً حذرة ، لأنني كنت أعلم
أنني لست بنظرة ، سوى امرأة !
لا شيء سوى امرأة ... امرأة كباقي النساء ... يستهويه
شبابها ، وتغريه وحدتها . وتسليه مشاكلها .

*

وخابرتني مرة يقول :
— ريم ... استمعي ، في الساعة الرابعة إلى مقطوعة لي ،
استداع من محطة دمشق ...
— أية مقطوعة ؟
— تلك التي لا تحبين ... استمعي إليها على كل حال ...
سأتي إليك بعد أن تذاق .
غصت في المقعد الأخضر ، وأنصت إلى المذياع . وعلت
الألحان ... وامتلاً الجو بنغمات رائعة حزينة ، وامتلاً قلبي
بالتساؤل ... والحيرة ... والعجب ...
أنا لم اسمع هذه الألحان من قبل ، وأخذت بروعتها
وانفرجت أصابعي بدون شعور ، وكأنها تريد التقاط النغمات
الساحرة ...
وفجأة ... تحركت مرتعشة : بلى ... هذه هي المقطوعة

نفسها ... انما مطلعها قد تغير !
وبين الألحان . تراءى لي طيف زياد . فابتسمت له
بحنان . شاكرة . طروباً ...
وما هي إلا لحظات . حتى تجسمت روئي ... وكان
هو الى جانبي .

— هل استسعت الى المقطوعة ؟
هتفت :

— انها رائعة ...

— هل اعجبتك كلها ؟

— اعجبني كثيراً ... واعجبني فيها ... مؤلفها !
ضحك :

— نعم غيرت مطلعها ! من الغريب ان رأيك ظل يلاحقني ،
ويضايقني . ومنذ يومين . عزفتها على قيثارتني في البيت .
فاقتنعت بانك على صواب ... وغيرها ... يا ريم ، الساعة
السادسة ... اشعر بان حلقي جاف ... هل تقدمين لي فنجاناً
من القهوة او اي شيء آخر ؟

تذكرت انني اشريت في الصباح زجاجة من مشروب
حلو المذاق ، سمعته مرة يقول انه يحبه .
أتيت بالزجاجة وبكأسين صغيرتين .

وحين لمحها . اوراق الحنان في تعابيرده ... وتجمع الشكر
دمعاً في عينيه . ولم يقل شيئاً ...
سألته برقة :

— الست تحبه ؟

نتم بضع كلمات متقطعة :

— كيف تذكرت ...؟ كيف ... تذكرت ؟ لا استطيع
ان اقول سوى انك عظيمة ... لم اعرف امرأة مثلك ... انت
انسانة كاملة ...

ومدّ يداً مرتجفة تأخذ الكأس من يدي . تضعها على
طاولة السجائر وتعود حالاً ... الى يدي ، ترفعها الى الشفتين ،
ليقدم لها شكره في قبلة دافئة ...

تعجبت للآثر العميق الذي تركه شرائي الزجاجة في نفسه ...
حادثة صغيرة لا قيمة لها . كان يجب ان يلومني لو لم اشترِ
هذه الزجاجة ، لا ان يشكرني وقد اشتريتها ...

وتأثرت من تأثيره ... لم اعتد في حياتي هذا النوع من
التقدير . كان والذي يقول لي في الماضي :

« أنا لن امدحك اذا فعلت شيئاً حسناً . فالمفروض ان
تفعل شيئاً حسناً . لكنني الومك على اخطائك ... لانك
تفهمين ويجب الا تقعي في الأخطاء ... »

اما ألفريد ، فكان لا ينتبه ابداً لما افعل ... كانت افعالي
ملتصقة بي ، وكان من الصعب عليه ان يراها ، ويحكم
عليها كاشياء مستقلة ...

والآن ... ارى امامي رجلاً يحبس دموعه . وينتفض
من الفرح كعصفور مبتل ... لانني اشتريت . صدفة ،
زجاجة من مشروب يحبه !

شعرت حالاً بالتحدي الذي غذيته في قلبي من قبل ،
يموت ... لينبع مكانه عطف وحنان ...

ونقمت على ظروفه الماضية ؛ ما نوع النساء الذي تعرف
به ومرّ في حياته ؟

كيف لم تشعر اية واحدة منهن بان هذا الرجل طفل يجب
الاعتناء به ؟

كيف لم تفكر أحداهن في ان تغمره بالعطف والمودة
والصداقة ؟ حتى بات يعتقد ان المرأة عاجزة عن اعطاء اي
شيء سوى جسدها !

هذا الرجل ليس إلا طفلاً افهمه واعذره ، وليست
ماديته سوى رواسب تجارب تافهة سطحية ... وليست
واقعيته سوى قناع يخفي وراءه الحس المرهف ، والعطش
الى العاطفة الصحيحة .

سأحيطه بحناني ، سأبرهن له ان المرأة قادرة على ان
تكون صديقة وانيسة ومواسية ، وان العاطفة الحقيقية
المخلصة ، اغلى من المادة ... واسمى من الحياة ...

*

القِسْمُ الثَّانِي

١

— كلما طالت معرفتي بك ، كلما ازداد اعجابي بشخصك ..
انت عظيمة ...

واردف ، وكان في لهجته استغرابٌ ولوم ، وكأن اكتشافه
انه من الممكن ان تكون امرأة ما عظيمةً يضايقه :
— آنستي الصغيرة ... كيف ... ولماذا انت عظيمة ؟
أجبهته على الفور :

— لانك لا تعرفني بعد !
استغرق في الضحك . وقال بمكر :
— هل تخبريني من اين لك هذه الأجوبة الطريفة في
بعض الأحيان ؟
ثم أرشق اليّ نظراته الفاحصة وغمغم :

— نعم ... ان اعجابني بك يزداد ... تعجيبني كثيراً ...
سانصرف الآن ... اسمعي يا ريم لقد اخبرتك اني مسافر
بعد غد الى الأردن لأسبوع ...

— إذن ، ستأتي غداً لوداعي ؟

— ما رأيك في ان نذهب غداً الى السينما ؟

رددت مدهوشة :

— الى السينما ؟

قال :

— انا اعرفك منذ اكثر من شهر ، وما دعوتك قبل
اليوم الى السينما لانني اعلم ان الفتيات هنا لا يقبلن دعوة
شاب ... ولكن ... انت ؟
— أنا ...

وخفت ان اقول « لا » فيظنني جبانة ... او أتصنع
التحفظ ، وخفت ان اقول « نعم » فابدو سهلة ومبتذلة ...
وحاولت ان اخفي ترددي ، فقلت :

— من الآن حتى الغد لدينا الوقت للتفكير ... سأخبرك
في صباح الغد ...

— إذن الى الغد ...

وانصرف ، وبقيت أفكر ...

انا أمام مشكلة ! مشكلة سهلة جداً وبسيطة جداً ...
ولكنها مشكلة !

هل أرافق زياد الى السينما ؟

ولكن ... لماذا لا ارافقه ؟
طبعاً ان اول جواب يتبادر الى ذهني هو : لأن التقاليد
تمنع ذلك هـ

وفجأة ، ضج رأسي بالاسئلة : ما هي التقاليد ؟ وأخذت
أجمع معلوماتي الضئيلة لأجدّ جواباً لهذا السؤال .
ما هي التقاليد ؟

كلمة « تقاليد » كما افهمها انا ، هي نموذج للعيش ...
عادات ، اتفق عليها مجتمع منذ مئات بل الوف السنين .
لكننا الآن في القرن العشرين . لقد تبدل المجتمع ،
وتغيّرت العقليات ، وتطوّر تفكير شعبنا ...
كل شيء تطوّر إلا التقاليد ... هذه التقاليد التي خلقها
مجتمع ولى ، واتفق عليها أناس تواروا تحت التراب من
الوف السنين ...

ومجتمعنا راض عن هذه التقاليد ... !
وانا ؟ انا ايضاً راضية عن بعض تقاليدنا بل اتمسك بها .
انا مثلاً اعتقد انه من واجب الفرد ان يحترم من هو اكبر
منه سناً ... احبّ ايضاً عادة الكرم في بلدي ، وغيرها ...
وغیرها من العادات النبيلة ؛

لكن الناس اليوم ساوا هذه التقاليد !
أصبحوا يتحاثون بالبخل ، واصبحت المنفعة الشخصية
هدف كل فرد ! صار الأخ يخون أخاه ، وامسى الشباب
ينكرون واجب احترام الكبار ، لان الحضارة بمفهومهم هي

الغرور ... والوقاحة !

نعم ... لقد سلا الناس التقاليد التي احب ، لئلا يتسكروا
فقط بالتقاليد التي تقيّد حرية الفتاة ... حريتي انا ...
وهذه التقاليد تمنعني من مرافقة زياد الى السينما ...
تمنعني ... تمنعني !

اذن يجب ان اخبره وأقول له اني لن أرافقه !
واتجهت طائفة نحو اخاتف ... ولكن افكاري اوقفتني :
اذا لم أرافق زياد الى السينما ، فهل يمنعني ذلك من رؤيته ،
ومن الاجتماع به غداً ... وبعد غد ... وبعد غد ... ؟
وعادت الاسئلة تحفر دماغي :

« هل تمنعني التقاليد عن الاتيان بافعال لا يرضى عنها
مجتمعنا ؟ »
وطار تفكيري الى سؤال أوسع : « هل تمنعنا هذه
التقاليد ؟ »

كيف اجد الجواب ، وأنا لا املك دماغ فيلسوف . ولم
أدرس في حياتي علم الاجتماع ؟
أنا لا املك سوى عصارة اعترافات صديقاتي الكثيرات ،
ونتيجة ملاحظاتي الخاصة . أفلا تكفي هذه المواد لاكون رأياً
شخصياً في هذا الموضوع ؟

كم من فتاة تذهب وحيدة الى السينما ، وعندما تطفأ
الأنوار . يأتي صديقها ، ويجلس الى جانبها . ويتحاشى
البقاء معها حتى نهاية العرض فيخرج قبل ان تضيء القاعة

الأنوار ؟

كم من فتاة تذهب خلصة الى موعد مع شاب في ركن ،
من البلد ، منعزل ، او لمرهة في سيارته دون ان يراها احد ...
ولا تلقي عليه السلام ، إذا صادفته في الطريق العام ؟
وكم ... وكم من فتاة تذهب الى شقة شاب اعزب ،
متسترة باجنحة الظلام ، وتخرج من عنده على رؤوس اصابعها ،
وتعود الى بيتها لتخبر امها انها كانت ... « عند الحارة » ؟
ستار الحبث !

لماذا تسدله الفتاة على افعالها في بلدي ؟ طبعاً لانها تحترم
التقاليد !!

هل اكون انا كالأخريات ؟ هل احترم التقاليد ؟ وهل
اتقيت بها ، وانا اعلم أنها في بلادنا منبع الحبث والنفاق ؟
وماجت الثورة في أعماقي فأخذت اروح واجي في الغرفة ...
لماذا لم أرافق شاباً الى السينما قبل اليوم ؟ لماذا ؟ لأنني
آمنت بهذه التقاليد البالية ؟ ابدأ ... ولكن لأن أكثر شباننا
يسيئون فهم الصراحة والروح الرياضية ، ويعتقدون ان الفتاة ،
إذا قبلت دعوتهم ، فمعنى ذلك انهم تملكوها ...
وزياد ؟

هل هو كالأخرين ؟ ... هل هو كالأخرين ؟ ...
وارتميت على الديوان ، لقد اتعبنى تفكيري ، ولكنني
لم اقرر شيئاً .
وعاد السؤال يلح في رأسي وينتظر الجواب :

— هل أرافق زياد الى السينما ؟
انا أراه كل يوم تقريباً ، فلماذا اخفي ذلك ؟ انا احب
الصراحة ، وأؤمن بأنها تسمو بأفعال الفتاة ، هذا رأيي انا ...
لكن المجتمع لا يفهم ذلك ، بل يحذر منه !
فاصبحت الفتاة تأتي أفعالاً لا ترضى عنها الأخلاق
الصحيحة ... أفعالاً منكراً لم تكن لتفعلها لو فهم المجتمع .
نعم ... ان حنان ، جارة ليلي ، لا تجرؤ على الاقتراب
من الهاتف حين يكون أهلها في البيت ... لكنها ، كل ليلة ،
بعد ان ينام الجميع تخرج خلسة لتلاقي صديقها .
والوالد راضٍ عن ابنته ! والمجتمع يتحدث عن حسن
سلوكها !

وشعرت باشمزاز !
ما اغيى الأهل الذين يجبرون فتياتهم على اقرار مثل
هذه الأفعال ! وما اقبح المجتمع الذي لا يحب الصراحة !
المجتمع الذي يُؤثر الدعارة في الحفاء على الابتسامة
الطاهرة علناً !

وهيبت واقفة ...
لا ... لا ... لن اتدهور الى وادي الكذب ... انا اكره
الحبث واحتقر النفاق ...
سأرافق زياد الى السينما ...
ستشرب الأعناق ... وتتسع الأحداق ... وتلوكني
الأسن :
١٠٨

« هذه الفتاة القليلة الأخلاق ... هذه الفتاة الوقحة ...
كيف تجرؤ على مرافقة شاب ؟ يا لها من فتاة مستهترة ... ! »
نعم ...
سيسيثون فهمي ... سيشوهون حسن تصرفاتي وسيخطئون ،
مرة أخرى ، في احكامهم على الأخلاق الصحيحة ...

*

ذهبنا الى السينما وغرقنا في زحام كبير .
مدّ ذراعه بصورة طبيعية ، واحاط كتفيّ وظهري لبحميني
اولاً من الجموع المحتشدة ، ثم من ظلام المعر .
وددت لو يبقى دائماً هكذا ، كبيراً ... جدياً ... قوياً ...
يشعر بضعفي فيحميني ...
تمنيت لو تظلّ هذه الذراع تحيط كتفيّ ، وترفع عنهما
مسؤولية الحياة ...

وتنهدت حين تلقائي المقعد ، لانه خبل إليّ ، للحظة ،
انني لن استطيع متابعة السير إذا بعدت هذه الذراع عن كتفيّ .
كان الفيلم سخيفاً جداً ، وكانت تعليقاتي لا تنتهي ،
وكان يضحك دون اكتراث ، ويقول :
— إلهي ... كم انت ثرثرين ...

لم يمسك يدي ، كما كان يفعل اكثر الشبان مع رفيقائي ،
ولم يحاول ان يمسني ، او ان يستثمر ظلام القاعة ، ولم يطلب
مني ، وأنا في سيارته ، ان أرافقه الى نزهة قصيرة ، بل

اوصلني الى البيت ، وهو يقول :
— انا مسرور جداً لانك قبلتِ دعوتي سأخبرك حاله
عودتي من الأردن ... تصبحين على خير ...

ومع ان غرور المرأة السخيف في نفسي أخفى بين طيآاته
قليلاً من الحية ، الا اني في اعماقي ، شعرت براحة عظيمة ،
وشكرت ، في قرارة نفسي ، هذا الصديق النبيل ...

٢

سافر زياد . وعدت الى عملي ، والى فراغي ...
لكن الفراغ في هذه المرة اصبح لذيذاً ... ناعماً ...
موجياً ...

صرت اذيل الى السكون . والهدوء . وأضيق بصحبة
الآخرين . اصبحت اجد في فراغي عالماً جديداً . لم افهمه
تماماً . يختلط فيه اليأس بالسرور ...

يأس هائي ... وسرور حزين ...
وتغللت في الشرود . فبت اشعر بأنني اتنقل بين الغيوم ،
وانظر . من بعيد بعيد . الى ما يدور حولي .

رافقت ليلى الى السينما . وعدنا الى بيت خالي نتسلى مع
بعض الأصدقاء . بلعب الورق . كما اعتدنا ان نفعل في

أكثر أيام الأسبوع .

وبدت لي هذه الحادثة العادية « الروتينية » ، غير طبيعية ؛

احسست نفسي غريبة بينهم !

ماذا افعل هنا ؟ وطار تفكيري الى ... الأردن !

وأفقت من شرودي على صوت ناديا :

- انت حاملة ... ابن انت ؟

وسألني « صديق » ضاحكاً :

— هل تنظمين قصيدة ؟

وتوالى التعليقات ... وعلا الضحك .

وددت لو اكون في غرفتي يغمرنني الهدوء . تحايلت اني

تعبئة ، ورجعت الى البيت ابتعد عن الضوضاء ، والى نفسي

اسائلها ماذا دهاها ؟ هل تدهورت دون ان تدري الى هاوية

الحب ؟

ماذا اصابني ؟ أنا احب هذا الرجل ؟ هذا الرجل الذي

تجرحني آراؤه المادية ، والذي لا يعرف كيف يحب ، بل

لا يؤمن بالحب مطلقاً ؟

يا للسخرية !

هل ابتدأت احب هذا الرجل الذي اردت ان اتحداه كي

ابرهن له ان المرأة ليست ضعيفة ، كما يظن ، وليست بضاعة

تُشترى بالكلمات الناعمة ، وبالتقد الزائف ؟

شعرت بغصة في حلقي ، وانا اعترف بأنني خسرت

الجولة ، وان تجربتي فشلت !

يجب عليّ حالاً ان أتخذ قراراً ، وان اكون حازمة
في رأيي .

هو لا يحبني . ولكن ... ما هو شعوره نحوي ؟
قد اكون نعمة جميلة . يريد ان يضيفها الى الحانه . وقد
يعتبرني رعشة . يخشوها في سجل مغامراته ...
انه يبدي لي شيئاً من الاهتمام . ولكن ... هل كان
اهتمامه يتغير ، لو انني كنت ... فتاة اخرى ؟ انا برأيه
فتاة ... فتاة ككل الفتيات !

لكنني لست كسائر الفتيات !
ابدأ ... لن أراه بعد اليوم

*

خرجت من الوظيفة في اليوم التالي . وأردت ان اعود
الى بيتي سيراً على الأقدام . مع اني اكره السير . لكنني
شعرت بحاجة الى التسكع في الطرقات ، والضياح بين الناس .
ورحت انظر ، شاردة ، الى واجهات المحلات . وأنا
ابتسم بظفر ؛ هذه العاطفة الطارئة لم تكن الا وهمماً ... وهمماً
مضى .

واخذت أعوامي التسعة عشر تضع قصتي في قبالب
« رومانتكي » ؛ فتاة احبت ... ثم تغلبت على عاطفتها ... !
وفجأة ...

توقفت عند واجهة مخزن . ودخلت اليه مسرعة . وانا

اسأل البائع :

— كم سعر القيثارة التي في الواجهة ؟ اريدها ...
وعدت الى بيتي فرحة ، اضم القيثارة الى صدري ،
وكأنني طفلة تخاف على لعبتها الحديدية .
ووضعتها على البيان . وانا احاول ان الفها بغلالة من
عنايتي وعطفي .

في المساء . جاءت اليّ جدتي ، وكان الاستياء يتطاير
من عينيها ، ليتجسم في كلمات على ثغرها :
— ريم ... اصحيح انك كنت في السينما ، منذ يومين ،
مع شاب ؟

اجبتها بصورة طبيعية :

— نعم ... لماذا ؟

— ريم ماذا دهاك ؟ هل جنت ؟

— على العكس يا « تيتا » ... لقد ابتدأت اعقل ...

— يا المي ! ومن هو هذا الشاب ؟

اجبتها منكممة :

— انت لا شك تعرفين اسمه ! فالذين نقلوا اليك الخبر ،

لا بد انهم ذكروا من هو ؟ !

— ابدأ والله ، لقد قالوا انهم شاهدوا في السينما مع شاب ..

صدقته ... ولم استغرب ! هذه هي الحال في بلدي .

يقولون : « ريم او هدى او حنان كانت مع شاب » ولا

يقولون ابداً : « زياد او حسن او يوسف كان مع فتاة »
عيون الناس تراقب الفتاة دائماً لا الشاب .

« ريم كانت مع شاب ... »

سيان عندهم ، اكان هذا الشاب « فارس » او « ادوارد »
ام « بشار » ... المهم انه شاب ، وان ريم كانت مع شاب ...
يا للوقاحة ! وضحكت ساخرة ، وقلت ببساطة :

— لقد كنت مع زياد مصطفى !

— مع هذا الشاب ؟ هذه كارثة ! هل تعرفين من هو هذا
الشاب ؟ انه معدوم الأخلاق ... يلعب دور « الدون جوان » !
انا اعرف عنه الكثير ... الكثير ... متى تعرفت به ؟
اجبتها بعفوية :

— منذ زمن بعيد ...

ولم اشعر بكذبي ، إذ خيل اليّ اني عرفت زياد دائماً ...
وتابعت :

— وقد كنت مع السيدة سناء ...

— هذا لا يبرر مرافقتك له ... لماذا ترافقيه ؟

ابتسمت وقلت بهدوء :

— لاني اجد لذة في مرافقته ، وهو يعجبني ...

جنّ جنونها :

— لا شك انك فقدت صوابك ! وماذا يعجبك به ؟ كلماته

المعسولة ؟ ام نظراته الوقحة ؟ ... ثم هو بعمر ابيك !

ضحكت في نفسي ، كيف أفهمها ان اكثر ما يعجبني

في شخص زياد هو عمره ؟ قلت :
- هو ليس معدوم الأخلاق ، كما تقولين ، وقد كان
معى مهذباً جداً ...

- انا واثقة باخلاقتك يا حبيبي ... لكنك صغيرة
والرجل في بلدنا لا يؤتمن ، وهذا الرجل بالذات سافل !
ساخبرك عن مغامراته ... اني اكرر قولي بأنه معدوم
الضمير ... انه ...

كانت كلماتها ترسم صوراً سوداً في جو الغرفة ، ومن
بين الكلمات كانت نظرات زياد تطل بريئة ... صافية ...
تراءت لي نظراته الطفلة وهو يريد مسح الدموع عن
خدودي ... ومرت صورة عينيه المليئتين بعبرات الشكر
وانا اقدم له كأس المشروب الذي يحب ... واخيراً غابت
جميع الصور السود خلف سماء زرقاء نقية ... تحنّ نجومها
لكلمة عطف ...

لا ... لا احد يفهم زياد ...
وسمعت جدتي تقول :
- هل تسمعين ما اقول ؟ ارجوك يا ريم ... ابتعدي
عن هذا الرجل ...
هزرت رأسي :
- سأحاول ...

وانصرفت جدتي . وبقيت منزعجة ، احاول الهروب
من كلماتها ، والضياح في سماء ... بعيدة ...

٣

— ريم ... كم انا مسرور برويتك ... لقد ذكرتك مراراً
وانا انتقل ما بين عمان ... ونابلس ... ورام الله ... وقد ...
ولم يكمل جملته ، اذ وقعت نظراته صدفة على القيثارة ..
وقف ،

واقرب من البيان ، وحمل القيثارة ، واخذ يتحسسها ...
ثم التفت اليّ ، يستوضحني .

هزرت رأسي ، وقلت ببساطة :
— وانا ايضاً ذكرتكَ ... وانا انتقل ما بين عملي ... وبيتي ..
نبض الحنان في عينيه وتتم :
— ريم ... ريم ...

واعاد القيثارة الى مكانها ، واقرب مني .

لكن دنا دخلت في هذه اللحظة تحمل القهوة .
شكرت الله ،

فقد ندمت على ما قلت ، اذ قد يعتبر جملي تصريحاً ...
وخفت مما سيقول بعد ان خرجت دنا ، فاردت ان اغير
مجرى الحديث ، ورأيت المجلة التي كان يحمل ، تنام على
الطاولة ، فاخذت اتفحصها ، وانا احاول ، كالعادة ، ان
اعلق على شتى المواضيع ...

كان يراقبني ، ولا يتكلم ...
وبينما كنت اقلب الصفحة ، وقعت المجلة من يدي ،
فانحنينا معاً بسرعة ... والتقطتها ... وانتصبنا معاً ...
وفي اعتدالنا ... تلامس وجهانا ... ثم تعانقت نظراتنا ...
فبقينا ثانية ، وكأننا مبهوران بهذا الوضع ...
فجأة ...

امسك وجهي بين يديه ... وقبلني ! ...
بقيت واقفة كالصنم ...
كالصنم الحائر ...

لا ادري ماذا افعل بيدي ... وبجسدي ... وبقامتي ...
ولكنني ظللت مطبقةً اصابعي على المجلة ، وكأنها الحيط
الوحيد الذي يربطني بالواقع ، والخشبة الصغيرة التي يجب
ان اتمسك بها كي لا اغرق ...
ولم ادري اي سحر اسبل جفوني ، ولا اي اكسير انعش
شغامي ...

والذي علمته : ان كل هذه الأيام الفائتة ، وكل ثواني
حياتي الماضية ، لم تكن الا خوفاً ... وهرباً من هذه اللحظة ...
ولم تدم هذه اللحظة الخارجة عن الزمن ، فقد ولى ذهول
الصدفة ، واضمحلت وطأة المفاجأة ، فاستجمعت وعيبي ،
وهزرت رأسي بعصبية ، وعدت خطوة الى الوراء ، وراحت
نظراتي ، في وجل ، تتلمس طريقها في غياهب عينيه ...
حاولت ان اتكلم :

— زياد ...

قاطعي :

— ارجوك ... لا تقولي شيئاً ...

لم استجب لطلبه ، وتابعت متلعثمة :

— زياد ... لقد قررت ... لقد قررت في غيابك ...

زياد ... يجب ... يجب ...

ثم قلت ، دفعة واحدة ، وبسرعة :

— يجب ألا أراك بعد اليوم ...

نظر اليّ باستغراب ، وقال ، وهو يتسم :

— ما هذه الأحكام التي تتخذينها في حقي دون علمي ؟

ماذا بك يا ريم ؟ اخبريني ..

— زياد ... الا تدرك ؟ ما نهاية هذه القصة ؟ الى اين

مستتهي ؟

رفع حاجباً ، وقال :

— انا احبك يا ريم ... و ...

كنت اعرف ان ذلك غير صحيح وانه لا يفهم ان الأعجاب
لبس حباً ، فقاطعته :

— زياد ... انت ترمي الكلمات ولا تفهم معناها . وانا
ابني من الكلمات قصوراً ... أقضي اياماً ولياليّ ابحث في
حروف كلماتك ... كلماتك البسيطة ، عن المعاني المختبئة ...
واصور هذه الحروف بالف لون ولون ... زياد ... انا فتاة
عاطفية جداً ...

— اعرف ذلك يا ريم ... انت عاطفية ، وفنّانة ... ولكن ...
هل تعتقدين ان من الحرام ان يحب أحدنا الآخر ؟
غلب الجواب على لساني ، وقلت فوراً :
— بل من الحرام الاّ يحب احدنا الآخر ...
أدهشه جواني ، فجاءت نظرتة الفاحصة تدرس تعابير
وجهي ، ثم ابتسم وقال :

— هذه اجمل واعقل جملة فطقت بها منذ عرفتك حتى الآن
واردف جاداً :

— يا ريم ... الحب خلق من اجلنا ، من اجل امثالنا ...
لا تكوني جبّانة ...

— ولكنني إنسانة يا زياد ... إنسانة تخاف الحب ...
وقد ... وقد احبك كثيراً في يوم من الأيام .

— هذا يسرني ، من الآن سأحيا من اجل هذا اليوم .

— زياد ... لا تورط نفسك في مشكلة ، ان حبي جنوني ...
ان عاطفتي تيار جارف ، لا يقف شيء في طريقه ... قد

يزعجك كبرُهُ ، انه مدمر ... قد تضيق به ...
- حبيتي ... انا احبك ... وسأحب حبك ...
- زياد ... انت لا ...
ولم اكمل جملي ، فلقد ضاعت بقية كلامي بين
شفتيه ...

٤

استيقظت ، في الصباح ، قلقة ، تائهة ، مرتبكة ...
اقتربت من المرأة .

الحيرة تراقص في عيوني ، وعلامات الاستفهام تراقص
حولي .

تأملت في انحاء الغرفة ، في السرير ، في الخزانة في
الطاولة ، في الستائر ...

هذه الغرفة ليست باردة ، وليست دافئة ، ليست اليفة ،
وليست موحشة ، ليست واسعة ، ليست ضيقة ... ليست
منسقة ، وليس فيها فوضى ...

غريب ... !

ليس لهذه الغرفة وجود مجرد ، ليس لها اشعاع مجرد ،

هي انعكاس لشعوري ، نفسيتي هي التي تعطيها حياة .
القيمة ليست في اثاثها ، ولا في تنسيقها ، قيمتها في نظرتي .
هي دافئة واسعة ، عندما اكون سعيدة ... هي مضطربة ،
عندما اكون ساخطة ... هي باردة في وحدتي ... وهي اليوم
علامة استفهام !

كل شيء فيها علامة استفهام ... علامة استفهام لا لون
لها ، حتى هذا اللون الأزرق يبدو اليوم رمادياً ، واللون
الرمادي ، بنظري ، ليس لوناً بل رماد جميع الألوان ! ...
هذه الغرفة ستأخذ شكلاً خاصاً . وسيخلق فيها جو
خاص ، عندما تزول حيرتي ، واجد حلاً لمشكلتي .
ماذا افعل ؟ أترك زياداً ... ام اتقى معه ؟
أهرب من صقيع الفراغ ، لارتمي في لهيب الحب ؟
وعادت الحيرة تراقص في عيوني ، وعادت علامات
الاستفهام تراقص حولي ...

*

لم استطع ، وانا في الوظيفة ، ان اتخذ قراراً ... وحاولت
ان احوّل تفكيري عن هذا الموضوع . ولكن علامات
الاستفهام كانت تراءى لي في كل شيء ...
سألني زميلة :

— ما بك ؟ انت شاردة ، ومضطربة ...

كنت بحاجة الى التحدث الى اي شخص ، فقلت :

— انني امام مشكلة صعبة .

ضحكتُ هازئةً وقالت :

— انت دائماً تعقدين امورك ، وتخلقين مشاكل من
لا شيء ...

سألتها بفضول :

— الا تجدين نفسك احياناً امام مشكلة من الصعب حلها ؟

— دائماً ... ولكنني لا اعقد اموري ... انا الآن مثلاً

امام مشكلة صعبة ، وهي الزواج ، ولكنني سانتظر وحين
يأتي العريس الصالح تحل هذه المشكلة

فكرتُ :

قد اعقد اموري انا ، ولكن لماذا تعيش هي ؟

ما معنى وجودها ؟ ما قيمة وجودها ؟

عدت اسأها :

— الا تشعرين بالفراغ ؟

اجابت هازئة ايضاً :

— الفراغ ؟ لا ... يا عزيزتي ... الفراغ مرض

الأرستوقراطيين ...

لم اردّ على تعليقها ، فقد كنت اودّ فقط الاستماع الى

آرائها ، لا مناقشتها . الححت في سثلي :

— الا تشعرين بالملل ؟

— انا امل من العمل ... انا لا احب الوظيفة ... الست مثلي ؟

ضحكتُ :

— الوظيفة هي الشيء الوحيد الذي يبدّد ، نوعاً ما ،

ماللي ... مللي الدائم ...
نظرتُ اليّ بغباء ، وقالت :
— حقاً ... انت غريبة الأطوار ... !
أنا الغريبة ام هي الساذجة ؟
أنا غريبة الأطوار لانني اريد ان احبها ؟ أليست هي الساذجة
لأنها تقبل . بصورة طوعية ، هذه الحياة التافهة ؟
قد تقول عني انني مجنونة لو حدثتها عن مشكلتي :
أبقى مع زياد ... ام اترك زياد ؟ .. أهرب من الفراغ ...
ام من الحب ؟
حب ... جنون ... ملل ... فراغ ... كلمات لا توجد
في قاموس حياتها . قالت بحسرة :
— لو كنت مكانك لكنت اسعد فتاة في الوجود ...
تذكرتُ بيتاً من قصيدة كنت احفظها منذ زمن بعيد :
ماذ لقيتُ من الدنيا ... وأعجبه ...
أني بما انا شاكٍ منه محسود ...

وابتسمتُ ساخرة ولم اقل شيئاً .
ان كل ما سأقوله سيؤكد رأيها في انني فتاة غريبة الأطوار .
كيف أشرح لفتاة لا تشعر بالفراغ ، ما هو الفراغ ؟ هل
أخاطب بالفرنسية او بالانكليزية شخصاً لا يعرف الفرنسية
او الانكليزية ؟
رفعتُ نحوها أبصاري ، فتحولت عيناها الى علامتي

استفهام سوداوين : من منا صاحبة الرأي الصحيح ؟ أنا ..
أم هي ؟

وجمعتُ حوائجي ، وعدتُ الى بيتي ، وانا افكر في جملة
زميائي : « الفراغ مرض الأرستوقراطيين ... »
هذا رأي ذاع في الغرب ، حيث اختلاف الطبقات ،
وحيث كان النبلاء الأغنياء يملكون كل ما تنوق اليه انفسهم حتى
اصبحوا لا يشتهون شيئاً من الحياة . فالحياة قد أختمتهم !
وكان لويس الثالث عشر يقول اكل واحدة من رفيقاته :
— « هيا بنا لنملّ معاً »

— *Allons nous ennuyer ensemble ...*

لكننا هنا ، نشتهي كل شيء ... ولا نحصل على شيء !
لأن الفراغ مرض شرقنا بكامله ، مرض ناشيء عن تقاليدنا
وعاداتنا ... هو مرضي ، هو مرض كل فتاة ، كل امرأة مرهفة
الحس ، يكتب لها ن تحيا في هذه البقعة من الأرض !

دخلتُ الى البيت شاردة ، واذا زياد ينتظرنني في القاعة .
— الحمد لله انك لم تتأخري ... انا هنا منذ خمس دقائق ...
في بيتنا ضيوف وقد هربت من الضوضاء .
ضحكتُ ، وارتبكتُ :

— اهلاً وسهلاً ! ولكن يجب ن تنتظر كيما اهي
الطعام ، فقد ذهبت دنا اليوم لترور أهلها .

— إذن يجب ان تشكري الصدفة التي حملتني اليك اليوم ...
فأنا طبّاخ ماهر !

وتبعني ، بصورة طبيعية ، الى المطبخ ، وفتح الثلاجة ،
والقى نظرة على محتوياتها :

— سنأكل البفتيك والبطاطا ... اليس كذلك ؟ هيى انت
السلطة !

ومسك باللحم ، وابتدأ يقطعه ، ثم اخذ يقشر البطاطا .
تلاشى ارتباكى ، وشعرت بنشاط ، فوضعت الزيت في
المقلاة على النار ، واخذت اقشر البندورة والخيار واختلس
نظرة سريعة الى زياد بين الحين والحين ، لاراه منهمكاً في
قلبي قطع اللحم ...

خيل لي ان الرجل يختفي ليظهر الصديق القديم القديم الذي
تعود مساعدتي دائماً ، وشاركني كل شيء . وددت للحظة
لو اخبره عما يشغني واسأله رأيه ، وضحكت للفكرة !
كيف اجد حلاً لمشكلتي في المشكلة ذاتها ؟ قال :
— ماذا يضحكك ؟

— ان منظرك يسليني ! يسرني ان اجد فناناً موسيقياً يجيد
الطهي ...

— ما هذه الفكرة السائدة عند جميع الناس ؟ الفنان برأيهم
يختلف عن غيره ، مع ان الفنان هو رجل قبل كل شيء ،
رجل كباقي الرجال ...
وانتهينا من الغذاء ، فقدم لي سيجارة .

لم اكن أدخن ، لكنني خفت ان تشذّ حركة رفضي عن
جو الأنسجام المخيمّ علينا ، فامسكت ، بارتباك ، سيجارة
أشعلها لي ، وجذبت نفساً طويلاً ... ارتجفت يدي ، ودمعت
عيني ، وسعلت ...

غرق في الضحك .

— انت طفلة ... وارتباكك جميل ...

نظرت اليه ، باسمه ، ومعاتبة ، فتأمل عينيّ ثم قال :

— ما لون عينيك ؟ كيف يقولون ان عينيك خضراوان ؟

أنهما عسلتان ...

— كل شخص يرى بمنظاره ... ما الفرق ؟

— الفرق انني احب العيون العسلية ...

ثم وقف :

— لديّ موعد في الساعة الرابعة ، يجب ان اذهب ...

كانت هذه اللحظات جميلة جداً ... أشكرك عليها ...

ثم اردف مازحاً :

— وكان الغداء لذيذاً ... هيا اشكريني عليه ...

دخلت غرفتي ، وارتمت على السرير ، اسائل نفسي ...

هذا العمل المشترك في المطبخ ... وهذا الحديث البسيط ...

وسيجارني ... وارتباككي ... وضحكك ...

كل هذه اللحظات ... اسعدتني ...

هل استمرّ في علاقتي مع زياد ... وقد تتطور ؟ هل اهرب

من طريقه ؟

ولكن ...

الن اعرف في حياتي سوى الهرب ؟ هرب من الفراغ ،
هرب من الملل ... هرب من الحب ... هرب من السعادة ؟
ولم ؟

لماذا اخاف ان اقتحم السعادة ؟

لماذا اخاف ان اعيش الحب ؟ ألاني قد اتعذب ؟ أخاف
من عذاب الحب انا الغارقة في عذاب الفراغ والوحدة ؟
سأموت يوماً ما دون إرادتي ، كما وجدت دون إرادتي ،
فلماذا ، وقد وجدتُ ، لا اعطي معنى لهذا الوجود ؟
لماذا لا أدع هذه الفترة من الزمن ، التي تفرق بين ولادتي
وموتي ، تشع بالحرارة ؟

اريد ان احيا ... ان اتعذب ... ان اتعب ...

اريد ان اعطي ... ان احب ... ان اتألم ...

اريد ان اقوم بأي عمل إيجابي لأثبت اني موجودة ...
اريد ان املا حياتي بالمعاني ...

نعم ،

قد تكون هذه المغامرة ناراً احترق بها ، ولكن ، على
الاقل ، يوماً ما ، في المستقبل ، سأشعر بأن وجودي لم
يكن تافهاً ، وبأن روحي أصبحت قيّمة لأنها تكون قد
احترقت واضاءت اكثر من أرواح الآخرين ...
السعادة ؟

ما هي السعادة ؟ هي لحظات قصار يتوقف فيها الملل مؤقتاً ، وينهار فيها الفراغ نسبياً ...

فلماذا اهرب من هذه الجلوس ؟

ألأني اخاف المستقبل ؟ وماذا ينتظرني في المستقبل ، انا التي اخاف واهرب من كل شيء حتى من التفكير في المستقبل ؟ لا ... سأعيش حاضري . حاضري جميل ، فلماذا لا اعترف بأنه جميل ؟

سأتمسك باللحظات الجميلة ... سأحياها بكاملها ... سأعصر توانيها كما تعصر الاسفنجة لآخر قطرة ماء في حناياها ... وسأصب فيها تأجج ذراتي وروحي ، فتختلط قوتها بنيران ، وتصبح هي وانا شيئاً واحداً ...
ابداً ...

لن اهرب من زياد !

وانتصبت جالسة في فراشي ، ورفعت يدي أرد خصلات الشعر المناسبة على جبيني ، وفجأة ... جمدت يدي قبالة وجهي وفاحت منها رائحة اعرفها جيداً ... رائحة يد زياد ...
السيجارة ! السيجارة التي دخنتها تركت في يدي شيئاً منه ... احسست بنشوة تسري في اعصابي ، واخذت انبش بين الأصابع ... عن طيف زياد ...

وانعكست صورتي في المرآة . وقفت ، واقتربت منها اسألها : هل انا جميلة ؟ وتفحصت صورتي بعين التساؤل

ونفسية الناقد . ما لون عيني ؟ ما لون بشرتي ؟ هل يحب زياد
البشرة الحنطية ؟ ولماذا اهمل شعري الطويل الأسود ؟
ودرت امام المرأة ؛ ان جسدي اصبح يميل قليلاً الى
السمنة ، كيف لم انتبه لذلك حتى الآن ؟ وكيف اعتقدت
ان الأكل هو اكبر لذة في الحياة ؟
ويدي ؟ لقد قال زياد انهما تقطران انوثة ، لم يشعر
بأنهما خشتان ؟

لماذا اهملت نفسي في الماضي ؟
وفتحت خزانة الملابس ، وبدت لي الأثواب مساجين
تستعطفني ، وتطلب مني ان افرج عنها ، واخرجها من سجنها
الدائم . منذ زمن بعيد لم ارتد هذه الثياب ، وكنت فيما مضى
اتضايق من كثرتها ... لكنني اليوم اشعر بأنها لا تكفيني ...
سأذهب الى الأسواق ... سأشترى اقمشة مختلفة ... اثواباً
ملونة ... سأعني بشكلي ... لقد اقبل الصيف يزهو بشمسه ،
وسأزهو انا كل يوم بلون جديد ...
انا الآن في حاجة الى ان ابدو جميلة ...

*

في الأيام التالية ، اجتمعت عدة مرات بزياد . كان يمر
بي احياناً اثناء النهار لمجرد اخذ فنجان من القهوة ويسهر
عندي اكثر الأيام ، لكنني كنت ادعو دائماً الاصدقاء لتكون
سهرتنا صاحبة . مسلية . وكان يعزف لنا احياناً ، او نلعب

الورق احياناً اخرى ، او يمر الوقت بين الأحاديث المتنوعة :
والتقيت به مرة ، وكنت عائدة من « سوق الحميدية »
ابتدرني :

— انت هنا ؟ هذه صدفة جميلة : لقد خابرتك منذ لحظات
الى البيت ... الى اين انت ذاهبة ؟
— يجب ان ذهاب الى الحياط « فارس » في شارع « البحصه »
لكني اشعر بتعب ، واتوق الى فنجان من القهوة ...
— وانا ايضاً ... هيا بنا ...

ومشينا معاً : كان كل مقهى نمر به يعجّ بالرجال فتتابع
سيرنا : اين نساونا ؟ الا ترغب احداهن في فنجان من القهوة
خارج جدران بيتها ؟ ألم تفكر احداهن مثلي في ان القهوة
تأخذ نكهة خاصة اذا تغير الجو الذي تُرشف فيه ؟
واخيراً ،

تعبه ، وقفت امام مقهى ، وقلت :
— سندخل الى هنا ...

وفجأة احسست بألوف السهام تحترق جسدي : التفت ،
فاذا كل من في المقهى ، من رجال ، يسفّ الى النظر والعيون
كالعلق ، تحيط بي ، وكأنها تريد ان تتغذى من لحمي ومن دمي ،
الجوع يصيح في المقل . مجرد كوني امرأة ، جميلة أو غير
جميلة ، شابة أو غير شابة ، جعلهم يسلون كل شيء ، ووقفهم
عن الحديث ، وعن لعب الررد وعن شرب القهوة .
شعرت « بقرف » ، وفهمت لماذا تختفي نساونا ، ولماذا

تختفي معها نكهة القهوة في مثل هذه الأمكنة ...
وجذبني زياد بحزم من ذراعي ، وهو يقول :
— سنشرب فنجان القهوة عندك او عندي في البيت ...
— هذا رأيي ايضاً ... سأذهب الى السيد فارس غداً

وعدت الى البيت مسرورة وساخطة :
مسرورة ، لأن زياد الى جانبي ولأنني حرة ، استطيع
ان اذهب معه الى اي مقهى ، الى اي مكان اشاء : وساخطة ،
لان هناك مثلاً فرنسياً يقول : « لا يوجد مزيّفو دراهم ،
في بلدة لا تستعمل فيها الدراهم » كذلك ، لا توجد حرية
في بلدة لا مجال فيها لممارسة هذه الحرية :
انا حرة ، استطيع ان اذهب مع زياد الى اي مقهى اشاء ،
ولكن المقهى الذي اتوق اليه ، والذي يذهب اليه من يشاء ،
من الرجال والنساء ، ليأخذوا بكل بساطة ، فنجاناً من القهوة ،
او كأساً من « البوظة » دون ان تلتهمهم العيون وتلوّكهم
الألسن ، هذا المقهى « الطبيعي » ، للأسف ، تفتقده بلدتي ...

٥

وفي ذات ليلة ، وكنت وحيدة استمع الى موسيقى شوبان ،
جاء زياد .

جلسنا نتحدث ، وفجأة ، اقترب ، واقترب مني : وامسك
يدي المرتجفة ليخفيها بين يديه ، وغيب نظراته في وجهي ...
كان في نفسي شعور غريب ، خفي ، ينبني بأن هذه
السهرة لن تكون كاللواتي سبقنها ...

وكانت انفاسي تتلاحق بسرعة ، ولكنني لم اقل شيئاً ،
وما كان باستطاعتي ان اقول !

وبقيت اتابع سير الحوادث ، واطرب سمعي بالكلمات
التي تنهمر من ثغره ، فتتهدل حول انفاسي عقداً متلاًئلاً ...
- ريم ... ان شعوري نحوك غريب ، لم اشعر بمثله من

قبل ... وحي لك يزداد يوماً بعد يوم ... ان شعوري نحوك
عميق ... عميق ... ريم ... صغیرتی ریم ...

ثم قال فجأة :

— ريم ... قبليني !

أردت حالاً ان استرد يدي من يديه ، واجفلت قليلاً ،
كطفل اهين في كرامته ، ثم تمتمت بطهارة وذعر :

— زياد ... انك تسيء لي الظن ... انا لست ... ارجوك
زياد ... انا لست ...

جذبني بشدة نحوه :

— انت عظيمة ... وانت حبيبي ...

شهوة تراقصت في عينيه ...

ونداء عربد في شفثيه ...

والدفء يثيرني ... وكنت ضائعة ... ابحت عن نفسي

بين ذراعيه ...

ولكن الشعور بأني ، في نظره ، امرأة كسائر النساء ،
البسني رداء من جليد .

— لا تجمدي هكذا ... أأست تشعرين ؟ أأست انسانية ؟

— بل لأنني انسانية ... ارجوك زياد ... اتركني ...

لكنه لم يسمع ما قلت ، ووثبت شفثاه محاولان إذابة

الثلج المسدل على وجهي ؛ انتفضت هاربة :

— زياد ... انت مخطئ ... مخطئ جداً ... ابتعد عني ...

ابتعد ... سأشرح لك ... فيما بعد ...

— ماذا يا ريم ؟
لم ادرِ فعلاً ما سأشرح له ، سوى ان الصلات المادية
والجسدية ، برأبي ، مقدسة ، ولا يمكن ان ادنيها الى مستوى
اللذة العابرة :

— فيما بعد ... سأشرح لك فيما بعد ... ابتعد عني ،
اكفهرّ وجهه ، وقال :

— كما تريدن ... سأنصرف ...
وزرّر معطفه ، ورمى اليّ ، من عليائه ، نظرة لثيمة ،
هازئة ، وقال :

— قبل ان تشرحي لي شيئاً ، اسمعي نصيحتي : تعلمي
انت كيف تكونين امرأة ! انت لست امرأة ...
وأعادها باللغة الانكليزية :

That's true ...

Learn how to be a woman .

وامسك لفافة اشعلها ببرود ،
جرحتني كلماته ...
« أنت لست امرأة ... انت لست امرأة ... »
اخذت هذه الحملة تدوّي في رأسي ، وزاغت عيوني
في بضع كلمات سود ، رسمتها مخيلتي في الهواء ... وفي
الدخان ... وفي اعقاب السجائر ... :
تعلمي ... كيف ... تكونين ... امرأة ...
انا لست امرأة !

قد يكون على حق ! انا لا اعرف كيف اقبل رجلاً ،
ولا اعرف كيف استجيب لشهوة رجل ، ولا استطيع ان
اهب نفسي رجلاً : ولكن ...
ولكن ... لماذا لا استطيع ؟

وبسرعة البرق ، لمعت ملايين الأفكار في رأسي ، وراحت
كالرعود تزجر ، وتعصف بكل اعتقاداتي الماضية ...
لماذا ... لماذا لا استطيع ؟ اهي التقاليد ؟ اهي العادات ؟
ألست املك تمام الحرية ، في ان اهب نفسي وجسدي من
اشاء ، ومتى اشاء ؟

تعلمي ... كيف ... تكوينين ... امرأة ...
أنا لست امرأة لانني لم استجب نداءه ؟
بلى ...

انا لست امرأة ، لانني شريفة ! ولكن ...
هل انا شريفة ؟

انا التي احدث الرجال ، وأحب صداقة الرجال ؟ هل
يعتبرني الناس شريفة ؟ انا التي أرافق شاباً الى السينما ،
واستقبله في بيتي ؟

انا لست امرأة ! لماذا ... ؟
الأنني اريد ان احافظ على هذا الذي يدعونه « شرفاً » ؟
ما هو الشرف ؟

هل لمعنى الشرف قيمة مطلقة ؟
هل لكلمة « شرف » مدلول واحد في جميع انحاء الأرض ؟

لماذا الفتاة الغربية ...

الفتاة السويدية مثلاً ، تدعو الشاب ليقضي ليلته معها ،
في بيتها ، وفي مخدعها ، ويرى الناس ذلك طبيعياً ؟
لماذا ، في جزر التاهيتي ، تحمل الفتاة ، وتنجب من اي
رجل ، ويعتبر الطفل شرعياً ، ولا تعتبر هي مردولة ؟
لماذا ، في المانيا وفي امريكا ، يرون انه من الضروري ان
يكون للفتاة صديق ؟

ولماذا ... لماذا في بلادنا يقولون عن فتاة ، إنها مستهتره
اذا قابلت رجلاً تعرفه ، وصافحته في الطريق ؟
كلمة « شرف » لا تعني شيئاً بحد ذاتها ، المجتمع هو
الذي يضع قيمة لمعناها .

يقولون عندنا عن امرأة تثير الضغائن ، وتحوك الفتن ،
وينخر قلبها الحسد ، ولا تترك فرصة تمر دون ان تسي فيها
الى الآخرين ، إنها شريفة ، لأنها لا تخاطب الرجال !
وينعتون بقلة الأخلاق ، فتاة طاهرة طيبة ، لا تريد للآخرين
سوى الخير ، لأنها احبت رجلاً ووهبته نفسها ! هذا هو
المنطق في بلدي ...

وانا ؟ ما رأيي انا ؟ ماذا اعتقد ؟
انا لست امرأة ! ولكن هل انا شريفة حسب مفهومي
لكلمة شرف ؟

انا اوأمن بالأخلاق الصحيحة ، بالافعال التي يرضى عنها
الضمير الصحيح لا العادات ...

انا لا اجد فضلاً لانسان لا يحيد عن الأخلاق لمجرد
انه يخشى التقاليد ، لان هذا الانسان لا يبذل مجهوداً شخصياً
للتفريق بين الخير والشر . اخلاقه أصبحت عادةً ورثها ،
لا ضميراً يهتز لأفعاله .

تعلمي ... كيف ... تكونين ... امرأة ... !
جملة صغيرة القاها ، فطعنتني في صميمي !
نظرت اليه ، كان ينفث دخان سيجارته ، ويطوي
أوراقه المنتورة على الطاولة ؛

نعم ! هو رجل ... وانا ... انا لست امرأة !
لان « قاعدة الشرف » في بلادى تطبق عليّ انا ... انا
الفتاة ...

ولكن ... اليس لي شعور يتدفق مثل شعور زياد ؟ بل
اكثراً ؟ أليس لي جسد تنهشه الشهوة مثل زياد ؟
انا اكره الابتذال ، ويزعجني ان تتدهور العلاقات الجسدية
الى مستوى الأكل والشراب كما هي في السويد .

انا لم اشعر بالحرمان قبل اليوم ، لانني لا استطيع بل لا
اريد ان اهب جسدي دون ان افني قلبي ...
ولكنني اليوم اتألم ... انا احب ... !

هل الحب محرم ؟ وهل يعلم المجتمع ان كلمة شرف كلها
تذوب في حروف الحب ؟
شرف ... شرف ...

كل واحد هنا ينادي بالشرف ، ولكن هل هناك واحد

يفهم معنى الشرف الحقيقي ؟
وفجأة ، تجسّمت امام ناظري قصيدة للشاعرة نازك الملائكة :
الأخ الذي يقتل أخته « غسلاً للعار » ، ثم يذهب الى
الحانة ليشرب بين احضان « الغانية الكسلى » نخب الشرف
المستعاد !

نعم !
الشرف كلمة نتغنى بها ، لا عن عقيدة ، بل عن اناية ،
وغرور وسخف !

تعلمي ... كيف ... تكونين ... امرأة ... !
جملة القاها ، فجاءت عاصفة تنفخ الرماد ، وتوجج
الجمر النائم في كياني ...

جملة صغيرة ، دمرّتي ... واشعلتني في آن واحد ...
هذا الرجل الذي تتكلم اعوامه التسعة والثلاثون عن
تجاربه في اوروبا ، نسي ... او تناسى اني شرقية ، ولم ابلغ
للعشرين من عمري !

اقرب من الباب ...

لا ... لا ... لن ادعه يذهب !

انا أعلم انه لن يعود ، فهو من النوع المادي الكسول الذي
يريد ان يربح المعركة منذ بدايتها ، ولا يمكنه ان يحارب حتى
غاية الشوط ؛ لان الهدف — مهما عظمت قيمته — لا يستطيع
ارغامه على التضحية ... فالاناية عنده دين ! والدين عنده
تجربة ... تجربة قصيرة يجب ان يكون لها حد .

لا ... لا ... لن ادعه يذهب !

— زياد ...

التفت ، لتحبو نظراته على ذراعيّ الممدودتين نحوه ،
كطريق مرمية ، ولتستقر على الثغر الذي ينغم :

— زياد ... انا ... انا امرأة ... وستبرهن لك الأيام ...
حملة الشوق من جديد نحوي ، وراحت يده ترحفان
على ذراعيّ ، وغمرت انفاسه وجهي :

— ريم ... ريم ... حبيبي ريم ...

لم اشعر بضعفي ، لأنني لبيت نداءه بملء ارادتي ، وانا
مستجمعة وعيي ، ومالكة اعصابي تماماً :

كنت اعرف ما اريد ، ووثاقة بما اريد ، ومقررة ان
استمر في تجربتي مع زياد حتى نهايتها ...
لكنني شعرت برخصه هو !

انه اصغر من ان يترفع عن الماديات ...

ولكنني سأبقى معه ، والأيام بيننا ...

سيعلمني ، كما يقول ، كيف اكون امرأة واقعية وفنانة ،
لا بأس ، قد ينفعني ذلك في المستقبل ؛

اما انا ،

فسأعلم هذا الرجل ، ذا العيون المتحجرة ، والعاطفة
التجارية ، هذا الرجل الذي هو اقرب الى المادة منه الى الحياة ،
سأعلم هذا الرجل الذي احب ، كيف يكون انساناً ...

٦

سأعلمه ...

سأعلمه كيف يكون انساناً .

سأزرع في عينيه النهمتين نظرات عاطفية ؛ سأغرس
في نفسه اليابسة قيماً صحيحة ، وسأزيح عن كاهله اعباء
السنين الماضية ، ورواسبها .

سأبقى معه ... وسأصبر ... سأصبر مع الأيام ...
وسيفهم يوماً ما ان قلباً واحداً ، يختلج بحب نبيل ،
يساوي جميع لذات الأرض الفانية ؛
في الأسابيع التالية ، تغلغلْتُ ، دون ان يشعر ، في
وجوده ؛ حاولت بجميع الطرق ان أفهمه ، وان اهتم بالأمور

التي تهمة ، وان اقدم له صداقة هادئة يرتاح اليها .
اصبحت ادرس الموسيقى في غيابه ، لأناقشه في موسيقاه ،
عندما يكون هنا ، ولأتمكن من مساعدته في نسخ المقطوعات
التي يولف . صرت اطالع ، لأجد مواضيع جديدة ابادله
فيها الرأي . وقبل كل شيء صرت اعني بشكلي ، وكيف
انسى اني امرأة ، واهتمامي بزياد يوقظ انوثتي ؟
وتوالت اجتماعاتنا ، وكنت اشعر ، في كل مرة ، بأنه
يتقرب اليّ نفسياً اكثر من المرة الفائتة .

صار يأتي اليّ خصيصاً ، ليسمعي مقطوعة جديدة ألفها ،
او ليحدثني عن مشاغله ، ويشكو اليّ همه ، ويسألني رأيي
في كل الأمور .

وكان يقول لي دائماً :

— ريم ... انا رجل اعرف الكثيرات . لكنك تختلفين
عن الجميع . ان روحك شفافة ، شفافة ... حتى اني اخاف
عليك ... انت تشغلين تفكيري دائماً ؛ شعوري نحوك
عميق ، هادئ ، وكأنني عرفتك دائماً ... صدّقيني ... انا
اخاف عليك ... هل تفكرين انت في مستقبلك ؟ هل
تعتقدين انه باستطاعتك ان تتفاهمي مع ألفريد ؟
وكنت دائماً اهز رأسي نفياً ، فيقول بحزم :

— اذن اتركي الوظيفة ، تابعي دروسك ، عودي الى
الجامعة . ثم ... لماذا لا تكتبين الشعر هذه الأيام ؟ لا اريدك
ضائعة في الحياة ... ضعي هدفاً لوجودك ... هيا اجمعي

قصائدك القديمة واطبعيها ، واكتبي اشياء جديدة ... اكتبني
انا موثمن بمواهبك ... اريدك ان تصبحي شاعرة مرموقة
بل سأجعل منك شاعرة كبيرة ...
كان اهتمامه بي يملأني بالنشاط . كنت بحاجة الى أب
يدفعني الى الأمام ، يشجعني ، يحميني .
وكان هو يزين حياتي بهالة عطفه ورعايته ، لكنني في
اعماقي لم اكن راضية تماماً ؛ فانا شابة والحياة تفيض من
كياني ، وهذا المزيج من الاهتمام والاعجاب والمودة الذي
كان يديه لي ، لم يغني عن الحب . كم من مرة شعرت
بحاجة الى ان اصرخ في وجهه : « لماذا ... لماذا لا تحبني ؟ »
لكنني كنت أعزي نفسي بأنه لا يعرف كيف يحب ، وكانت
كلماتي تذوب في ابتسامة حزينة ...

وجاء ذات مساء ، وكنت ارتدي ثوباً من « التريكو »
الأسود ، ضيقاً جداً . وكنت قد اشتريته ، بعد ان قال لي
مرة ، ونحن نسير في شارع « الصالحية » :
- انظري ... هذا الثوب في الواجهة ... انه جميل جداً ...
رمقني حين دخلتُ الغرفة ، ثم حذجني بطرفه وقال :
- ريم ... انت جميلة ... هل كنت جميلة هكذا حين
تعرفت بك ؟ ام استهوتني روحك حتى اني نسيت شكلك ؟
اليوم لاحظ انك جميلة ... بل مغرية ...
قلتُ ، وانا ابتسم بتجد :

— اذا كنت تنظر اليّ بعين الفنان ، فهذا مديح اشكره
عليه ؛ اما اذا كنت تتكلم بلسان الرجل ، فالأوفق ان
تستهويك روعي ...

— ريم ... لا تكوني ماكرة ... انت تشغلين تفكيري دائماً .

رنت ضحكتي تستخفّ بما يقول ،

— ريم ... لماذا ، دائماً ، لا تصدقين ما اقول ؟ لماذا

لا تصدقين انك تشغلين تفكيري ؟

شعرت بنوع من التسلية ، وأحببت ان أغيظه ، ممازحة ،

فسألت :

— أخبرني زياد ... هل كانت كل امرأة من اللواتي

عرفت ، تصدّق ما تقول لها ؟ اخبرني بكل صراحة ...

فذلك يُفيدني في دراستي الخاصة لعلم النفس ...

كانت لهجته الهازئة وهو يجيبني ، لا تخلو من الاسى :

— ايتها العالمة الكبيرة ، يؤسفني ان اعترف لك ، بان

كل امرأة مرّت في حياتي كانت تصدقني ، حتى ... حتى

لو لم أقل شيئاً ... اليس هذا مضحكاً ؟ وكان تصرفها يجعلها

تصغر في نفسي ، ويحيل اعجابي بها الى اشفاق ...

وسكت ... ثم اردف ضاحكاً :

— هناك امرأة واحدة ماكرة وذكية استطاعت ان تفهمني

على حقيقتي ... استطاعت ان تكتشف اني ... كاذب ...

وهذه الماكرة هي انت !

احببت صراحته ، وقلت بعجب :

— غريب ... كيف لم تفهم احداهن انك تتسلى بالكلمات ؟
ونظرتُ اليه ...

كانت عيناه ، برغم تقطيعه ، تفيضان بالعطف ؛ وكانت
شفته تترعشان ... تريدان البوح ... وتخشيان البوح ...
واخيراً تتمم :

— اغرب ما في الحادثة ، انك الوحيدة التي اكتشفت
كذبي ، وانك الوحيدة التي لم اكذب عليها قط ... يا للسخرية !
اختلج قلبي ، لا من كلماته ، بل من تعابير وجهه ،
وهو ينطق بهذه الكلمات . وفكرت : اما ان زياد قد ابتداءً
فعلاً يحبني ، واما انه ممثل في منتهى البراعة ! ولكن ...
هل انا ساذجة الى هذا الحد ؟ الا يمكن لحدسي ان يتبين
الحقيقة فيما يقول او يدعي ؟

وكانه فهم ما يحول في خاطري ؛ فاقرب ، وجلس الى
جانبي على الديوان :

— لماذا اكذب عليك يا ريم ؟ هل تعتقدين اني الهو بك ؟
لا تكوني سخيفة ! يؤلمني الاّ تجد عاطفتي تقديراً عندك ...
ريم ... ثقي انك المرأة الوحيدة التي استطاعت ان تملأ كل
فراغي ... اصبحت امل الآخريين ... والاخريات ... واضيق
بصحبة الاصدقاء ... ريم ... قد تجهلين انه ليس لي صلة بأية
مخلوقة غيرك ... قطعتُ صلاتي بالجميع ، لانني لا ارتاح الا
اليك ... يقولون انني لا اعرف كيف احب ... قد يكون هذا
صحيحاً ، لكنني لا استطيع ان انكر هذا الشعور الذي يملأني ؛

أودّ ان ابقى معك ... اود ان اسافر الى بلدان بعيدة وانت
الى جانبي ... أودّ ان أولف بالقرب منك ... غريب ، لم
اكن اتوقع ان تأخذ علاقتنا هذا الشكل الجدي ... كانت المرأة
بالنسبة اليّ تنتهي منذ الأيام الاولى لمعرفتي بها ... لكن تعلقي
بك يزداد يوماً بعد يوم ... انت لست امرأة فحسب ، انت
انسانة ... انسانة كاملة ...

وحضن وجهي بيديه :

– انظري اليّ يا ريم ... انظري اليّ ... على طريقي
الخاصة ... احبك ... نعم ... احبك من كل قلبي ...
ترقرقت الدموع في عيوني ...

كنت اشعر دائماً بحاجة الى البكاء عندما اكون سعيدة
وكأنني اريد ان أرصع لحظة السعادة بجميع احساساتي المتباينة ،
من ارتعاشات ، وابتسامات ، وضحكات ودموع .
وددت في تلك اللحظة ان اكون كالاخريات ، فتاة
كسائر الفتيات ، لأصدق تماماً ما يقول :

– صغيرتي ريم ... قولي إنك تصدقين ... قولي إنك
تعرفين ...

تلعثمتُ ... وخانتني الكلمات ...
وسمعنا نقراً على الباب ، فابتعدتُ عن زياد ، ودخلتُ
دنا تحمل القهوة .

كنت احبّ دنا ؛ كانت تأتي دائماً في اللحظات اللامتناهية ،
فتضع القهوة على الطاولة ... والحدّ لارتباكها ...

ورشفنا قهوتنا ، وطلبت من زياد ان يصحبني الى مقهى
افتتح مؤخراً في الصحراء ...
وذهبنا الى هناك ... حيث الهواء الطلق ، والفضاء الرحب
المريح ، والنجوم المبعثرة ...
هناك ... حيث يستطيع الانسان ان يمتّع طرفه بسماء
ليالينا الواسعة ، الصافية ، النقية ...



وجاء شهر تموز بحره المتزايد ... لكنني ، لأول مرة
في حياتي ، لم انزعج من الحر ، بل لم اشعر به . لأن
تفكيري في زياد استولى على جميع حسي ...
وكان زياد ، مذ ترك المعهد لعطلة الصيف ، يؤلف كتاباً
في الموسيقى الحديثة ، وكان المفروض ان ينتهي الكتاب في
نهاية الشهر ...

اما انا ، فقد تركت الوظيفة لأنني اقتنعت بانه يجب عليّ
ان اكمل تحصيلي ؛ وبقيت في البيت ، اهي نفسي لدخول
الجامعة بعد اشهر ، واحاول ان اجمع قصائدي القديمة
وانقحها لاطبعها في يوم من الأيام ، ارضاءً لزياد ...

وذاذ يوم لم يأت اليّ زياد ، ولم يخبرني ؛
بقيت انتظره ... لم يأت ! اخيراً خابرتة ، فلم اجده .
حالاّ استولى عليّ الضياع ، ووجدت يومي كله فارغاً .

وفي المساء ، حين جاءت ليلى وجدتي وبعض الاقرباء الذين
لم ارهم منذ زمن بعيد ، حاولت ان الهي نفسي باحاديثهم ،
ولكن ، فجأة ، بين اللغظ والكلام ، شعرت بخوف ،
خوف من الوحدة ومن اليأس ؛ الكل حولي وانا وحيدة ،
ووجدتي هذه المرة معناها انه سلافي !!

دخلتُ غرفتي ، وظلت الأصوات تلاحقني ...
هذه الأصوات تخيفني ، وتزيد في وحدتي ،
انا وحيدة ... وحيدة ... وخائفة ...
وشعرت بارتياح حين انصرف الجميع ، وبقيتُ ليلى :
- ما بك يا ريم ؟

- لا شيء ...

- اين زياد ؟

- لست ادري ...

هزتُ رأسها وقد فهمت سرّ ضياعي ، واردفت :
- الحر لا يطاق ! كيف لا تشعرين بالحر ؟ هيا الى
نزهة في السيارة ...

رافقتها ، وانا اقود سيارتي ، شاردة ؛ وهناك ، على
طريق « دمر » ، استوقفتني ليلى لتقول مازحة :
- يا آنستي ... الموسيقى تُستوحى من شلالات المياه ...
انه هنا ... انتظريني ، سألقي نظرة على المكان
وفعلًا ، كانت سيارته الصغيرة تربض الى جانب الرصيف.
ورأيتُ ليلى تدخل المقهى الصغير :

بقيت افكر : ان زياد جاء الى هنا هرباً من الحر ...
لقد انساه الحر وجودي ، ووجوده ينسني الحر !
انه حتماً لا يذكرني الآن ، ولكن يجب ، يجب ان اعبر
في خاطره ، فتعانقي افكاره ولو لثانية ، وانسى الخوف ،
وعادت ليلى راكضة :

— لقد لمحته هناك ... يكتب . انه وحيد ...
خطر لي خاطر ، فنبشت في جيب السيارة ، عن ورقة
وقلم صغير ، وخططت بضع كلمات ، ارسلتها اليه مع
البواب ، وعدت الى بيتي جذلي :
وانصرفت ليلى وهي تقول :
— انت مجنونة ...!

وبعد نصف ساعة من رجوعي ، ترنم جرس الباب
معلناً مجيء زياد . ابتدرني مازحاً :

— شاعرتي الصغيرة ، يظهر انه يلذ لك ان تشغلي تفكيري
بصورة مستمرة ، ويظهر انك تنجحين تماماً ... مذ تسلمت
الورقة وقرأتها ، لم اعد استطيع حصر افكاري ، ومتابعة
الكتابة ، فرميت اوراقي الى جهنم ، وهرولت اليك :
ثم انقلبت ملامحه ، وشعشع الحنان في وجهه ، ولفف
نفسه التأهة صوته الدافئ العريض :

— كيف تشعرين بالوحدة ، وانا دائماً الى جانبك ؟
وبرفق امسك وجهي بين يديه الكبيرتين ، وهمس :

— لا تخافي ابداً ... انا دائماً معك ...

فالتصقت به ، مرتعدة ، وتعلقت يداي بمنكبيه العريضين ؛
وتمنيت ... تمنيت في تلك اللحظة ، ان اذوب بين ذراعيه ،
هياماً ... ووجداً ...

اذكر اليوم هذه الحادثة بشيء من الحنين ... اذكر كيف
بقيت الورقة الصغيرة اشهرًا مختبئة في محفظته ، وبماذا اجاب
عصام الذي سأله مرة عن هذه الورقة ، وكانت قد وقعت ،
وهو يخرج بعض الدراهم :

— هذه يا عصام اجمل هدية ... اعذب عتاب تلميذته في
حياتي ... عتاب تذوب فيه الرقة وتفوح وتفوح منه الانوثة ...
كصاحبته ... »

واذكر اليوم تماماً هذه الورقة الصغيرة الخضراء ، ودبوس
الشعر الذي اخترق طباتها ليقفلها ، والكلمات القليلة البسيطة ،
البسيطة جداً ، التي همستها روحي داخلها ... :

« اهكذا سلوتني ؟

اهكذا تركتني

يا صاحبي ... وحيدة ؟

الست تلدي انني

من وحدتي ... اخاف ؟ »

٧

الخلاصة ...!

تعلقت بزياد تعلقاً جنونياً ، فقد وجدت فيه الأب الذي
افتقد ، والحبيب الذي انشد ، والطفل الذي أغمر بعاطفتي
الفياضة .

وتوالت الأيام ، وانا اعيش لزياد ، واتجمل لزياد ، واعد
الثواني الطوال التي تفرق بيني وبين زياد :..
اصبحت اكره النوم ، والأكل ، وكل ما يذكرني بانني
ما زلت مرتبطة بالحياة الأرضية : وكانت ليلى تمازحني :
« كيف ... هل نسيت ان الأكل من لذات الحياة ؟ »
وصرت اعجب كيف يقضي الانسان نصف حياته نائماً ،

الا يكفيه انه سينام طويلاً ... طويلاً ... بالرغم منه ، في
يوم من الأيام ؟

وكان الدافع الوحيد الذي يُغْمضُ اجفاني في كل ليلة هو
يَقيني بانني ساجتمع وزياي في احلامي ...

وكان الحر يزدداد ، يوماً بعد يوم ، مثل حيي ... حتى
صرت احار : أنا اتحرق بلهب صيفنا ام بضرام الحب ؟

وكنت احسّ نشوة حين يأتي زياد وقد ارهقه العمل ،
والحر ، فاركض اليه ، وامسح بيدي جبينه ، وألملم قطرات
السائل المالح ، الملتمة بين خيوط الشعر البيض ...
وتعتريني اللذة ، انا التي اكره الحر ، حين يحتضني ،
فاتلمس القميص المبلل بانخرة الصيف ، وأغمس فيه اصابعي ...



ومرت الأيام الاولى من شهر آب .
واستيقظت ، ذات صباح ، على موسيقى الهاتف :
- صغيرتي الحبيبة ... كل عام وانت بنخير ...
- زياد ... صباح الخير ... ماذا تقول ؟
- كل عام وانت بنخير ... أنسيت ان اليوم عيد ميلادك ؟
اردت ان اخبرك قبل ان اذهب الى عملي لأقول لك انني
فرح بعيدك ، وكأنه هدية لي ...

— شكرًا ... زياد ... ولكن كيف ... كيف تذكرت عيدي
— كل شيء يتعلق بك يهمني واذكره ... عيدك ... عيدي ؛
هل نسهر معاً هذا المساء ؟

— بل لن اسهر إلا معك ...
— اذن سامرٌ بك حال انتهاء عملي ...
— الى المساء ...

حادثة صغيرة ... وهاتف مبكر ... وصوت حبيب ...
صوت ملائي حيوية . لقد تذكر زياد ان اليوم عيدي ، فاحالت
هذه اللفتة البسيطة ثواني يومي الى قطرات نور وضياء .
قضيت الصباح ، وانا اعدو في البيت ، اداعب رانية ،
وامازح الخادمتين ، واشكر عيدي الذي حمل اليّ تفكير زياد .
عيدي ... اليوم عيدي ...

انا اليوم اشعر بان نسيماً سكران يحملني بين اجنحته
الى عالم جديد ... عالم مليء بالأحلام ، والأنوار ،
والموسيقى ، والشباب ...

اليوم فقط تبينت لي حقيقةٌ جميلة كنت اجهلها : حقيقةٌ
سني وشبابي . انا في العشرين من عمري ، وكل هذه الترهات ،
وهذه الأفكار السود التي اوحى اليّ بها ايام اليأس والفراغ ،
ليست الا خرافات .

انا شابة ، وصغيرة ؛ واعوامي العشرون تنادي الحياة ،
وتبتسم للرجل الذي يحمني ... ما اجمل هذا الشعور .
كنت دائماً أتلهّف الى رجل يحيطني برجولته ، وبأسه ،

وحبه : رجل استقر بين ذراعيه ، فيمزق شفاهي ، ويكسر
ضلوعي ؛ ويستطيع في وقت آخر ان يستقبل على كتفه دموعي...
كنت عطشى الى الشعور بحماية رجل ؛ هذا الشعور الذي
يبرهن لي عن حقيقة سني .

عشرون عاماً ! كم تمنيت لو تكون هذه الأعوام وروداً...
عشرين وردة ، اقدمها هديةً صغيرة ... لساقها .

وتلون الأفق بأشعة الأصيل ... وفاض قلبي بالأمل ...
بعد لحظات ... مع الغروب سيأتي زياد .
ونظرت الى نفسي في المرآة : طفولتي وانوثتي تختلطان
بشكل غريب ؛

عيناى تبسمان في براءة لطيف الرجل الآتي بعد قليل ،
هذا الرجل الذي يغلفني بعطفه وحمايته فيشعرنى باننى
طفلة ...

وشفتاى تنفرجان عن فورة من الشوق ، وترتجفان للرجل
نفسه ؛ الرجل الذي اشعل بنظراته النيران فى عروقي ، ونفخ
من انفاسه الحياة فى وجودي ، وفجر انوثتي .
تأملت فى ثوبي الليلكى الحديد : سيحبّه ...
انه لك يا زياد ... ولك وحدك ...

دعه يتلألأ فى عيونك ... واسحب خيوطه باهدابك ...
وابعث نظراتك تنسرب من خلال اشلائه ، لتلتهم الجسد

الذي يتفجر من اجلك حياة ...
وشعري الأسود الطويل ؟
لقد عقصته في مؤخرة رأسي ، كي يتسنى لك يا زياد
نثره عندما تشاء ، فتضيّع انفاسك في ليله العطر ...

وقطع عليّ تأملاتي مجيّ جدتي ، وليلي ، وناديا ، وبعض
الأصدقاء ، يحملون اليّ الهدايا ، ويهتئونني بعيد ميلادي ،
جلست معهم ، احاول ، واحاول ، ان اكون ... معهم !
احاول ان اشاركهم احاديثهم ،
ولكن عبثاً !

في ذلك اليوم شعرت بان الأصدقاء والأقرباء ،
والهدايا ، والأحاديث ... حتى صورتي في المرأة ، حتى
الثواني التي تمر ... كل هذه الاشياء ، تأخذ فجأة صورة
واحدة : صورة زياد ...

وفجأة ... دخل زياد !
لست ادري كيف ملكت اعصابي ، ولم ارتم بين ذراعيه ...
لكنني وقفت ... مذهولة ، أنظر اليه ... كطفلة ضيّعت
دنياها ، فوجدت ملجأً ومعبداً لها في عينيه ...
وتحولت نظراتي الى الرزمة التي يحمل ، فاخذتها دون
وعي ، وضممتها الى صدري ، واندفعت الى غرفتي ، انزع
الخيوط التي تربطها ، وامزق أوراقها ، لأغمر اكتافي بالشال
المنسوج بزهور الليلك : هدية زياد ...

لم ترعجني نظرات ناديا المترفعة ولا ابتسامتها الشاحبة ،
ولا وجه جدتي الذي انتفخ من الغيظ ، ولا امتقاع الأصدقاء ...
ولا ارتباك ليلى ...

لا ... لم يضايقي استياؤهم ، ولا انسحابهم بسرعة الواحد
تلو الآخر ، ووقفت فرحة ، ومددت يديّ لزياد ، فضمهما
في يديه :

— كل عام وانت بخير ... يا حبيبتى ... هيا بنا نتعش
في احد المطاعم ... قاربت الساعة الثامنة والنصف !

*

وفي حديقة مطعم الشرق ، انتقينا طاولة صغيرة جلسنا
حولها بطمأنينة ، تُتلون موسيقى الجوقة احاديثنا ، وتعزفُ
كأسانا نخبَ حبنا ، ونلتهم عشاءنا ، دون ان نغير اهتماماً
للعيون التي تلتهمنا ... !

وعلى باب بيتي ، امسك يدي وقبلها ...
— ريم ... كل عام وانت طيبة ... الى الغد ...
— لماذا لا تدخل يا زياد ، فتأخذ قدحاً من المشروب
الذي تحب ؟

— الآن يا ريم ؟ اودّ ذلك من كل قلبي ... ولكن ، ألا
تخشين السنة السوء ، والناس من حولنا عيون سارقة ؟ انا
اخاف عليك يا ريم ... لا على نفسي ...

— زياد ... ما دمتَ انتَ الى جانبي ، انا اتحدى السماء ...
تعال ... اليوم عيدي ... وفي الأعياد يجوز لنا ان نجعل من
الحياة العادية حلمًا جميلًا ... ومن الأحلام حقيقة ... تعال
زياد ... لننس الدنيا ... هذه اللحظات ملكي ... والليل قد
قتل مخاوفي ... تعال ...

احاط كتفيّ بذراعه ، ودخلنا معاً .
اضأتُ الفانوس الأصفر الصغير ، وبينما ذهبت احضر
له كأس المشروب ، اهتمّ هو بوضع اسطوانة لشوبان في
الحاكي ، وجلس على المقعد الأخضر ، مقعده الدائم :
قدمت له مع الكأس سيجارة ...

وتكوّمتُ عند قدميه كقطعة صغيرة أليفة ...
ورفعت الطرف ، أتأمل في هذا الوجه الذي انطبع في
عيوني ، فأصبحت ارى الدنيا من خلاله ...
احبّ هذه الأعوام التسعة والثلاثين التي تنساب تجاعيداً
في اعلى خديه ...

احب هذا التعب ... تعب الأيام ... الذي يسور شفثيه ...
احب آثار التفكير العميق ... والأتلام التي حفرها الهمّ
في جبهته ...

وهذا الحنين الذي قتلته السنون ... وعاد من جديد ...
ينبعث في عينيه ...

اعتدل في جلسته ، وتأملني ... طويلاً ... وقطّب وجهه ،
وتتابعت في سماء عينيه الشموس والغيوم ...

شموسُ الحب ، وغيومُ الخوف واليأس ، وتهدج صوته :
- ريم ... صغيرتي ريم ... احبك ... احبك كثيراً ...
ما ظننت يوماً انه بإمكانني ان احب امرأة بهذا الشكل ... حي
لك غريب ... انا اخاف عليك يا ريم ... اخاف عليك مني ...
اشعر بانني ممسك بيدي كأساً رقيقة من الماس ... كأساً ثمينة
جداً ... ورقيقة جداً ... وحساسة جداً ... واخاف ... اخاف
ان تكسرها يداي الخشتان ... ان حياتي وسخة يا ريم ...
وماضيّ غدير اخطاء ووادي معاصي ... نعم يا ريم ... لأول
مرة اشعر بقذارة ماضي ... ينخيل اليّ انك نموذج للطهارة
والبراءة ... ان روحك توحى اليّ بالثلج الناصع الشفاف
واخاف ... اخاف ان ألوثه بانفاسي السود ...

كنت اشعر بان حرباً تنشب في اعماقه ... بين عاداته
الماضية السقيمة ، وضميره . وكان حيي له يعظم في قلبي ...
هذا الرجل الذي يعترف باخطائه ، وجدت له الأعذار :
ان الظروف التي احاطت به ، هي التي دفعتة الى هذه الزلات :
قلت بحزم ،

- زياد ... انا احبك ... وافهمك ... ماضيك لا يهمني ،
يشغلني حاضرك . وفي الحاضر ، انت « عيوني » يا زياد ...
واعز من عيوني ...

واحنيت رأسي على كتفه ، فتسللت اصابعه تنقذ الحصلات
السود من الدبابيس القاسية ، وتعيد الحرية لشلال الشعر
العاتم ...

وارتفعت همساته الحنونة :

— ريم ... صغيرتي ... يا حبيبي ...

رفعتُ نحوهً ثغري ...

فخيمت أنفاسي على دفء كلماته ...

وامترج شوقه بصلاة عبوني ...

برفق ...

احتوى العشرين عاماً بين ذراعيه القويتين ؛ فاختلطت

في ناظريه الشهوة بالحنين ... وتماوج في ناظريّ الهوى والليل ...

وعلت ، شيئاً فشيئاً ، همهمة الحب ، تقصر المدى

بين شفاهنا ...

وتلاشي ، شيئاً فشيئاً ، خلف رموش عيوننا المغمضة ...

خضوء الفانوس الأصفر الصغير ...

٨

جاءني زياد في اليوم التالي ليخبرني انه مضطر للذهاب الى
بيروت لمدة عشرين يوماً لأعمال في الشركة .
سيذهب زياد ... سيذهب زياد ... هل يمكنني ان ابقى
بعيدة عنه عشرين يوماً ؟
لم انم تلك الليلة !
كيف ابقى وحيدة ؟
كيف اسمح للفراغ بان يعود من جديد ؟
ونَهَضت ، مذعورة ، في منتصف الليل . سيذهب ...
سيذهب زياد ...
ولاول مرة تنبهت ان العرق يتصبب مني ، الحر لا
يطاق ! كيف احتملته حتى اليوم ؟

وفهمت ؛

كان حبنا يقتل حدة الحر ... ولكن الحر ، وحيداً ،
يقتل كل شيء . حتى هذا الشعور الحزين بالفراغ .
هذا اول صيف اقضيه في دمشق ! لماذا ؟

وما الذي يمنعني انا من اصطحاب رانية والمربية الى لبنان ؟
ولم ينبلج الصباح حتى كانت الفكرة قد اتخذت قوة القرار
النهائي . فاتصلت « بعاليه » . وحجزت غرفتين في فندق هناك

وجاء زياد في الظهر ، ليودعني ، فرآني منهمكة في
جمع حوائجي ، ووضعها في الحقائب . ذهل :
— ماذا تفعلين ؟

اجبته ببراءة خبيثة :

— لقد وصف الطبيب لرانية ان تباعد عن الحر ... ففكرت
ان اضحي بلذتي الخاصة ، فأصحبها الى مصيف من المصايف ...
وقد ... وقد انتقيت عاليه ... وسنذهب اليوم ...
وضحكت والتفت اليه :

— ما رأيك ؟

هزّ رأسه مستنكراً ، ثم جاءت ذراعاه ترنّران خصري :
— انت مجنونة ...!

وسعت شفتاه الى أذني ... تهمسان :

— لكنني احبك ... لانك مجنونة ...

*

كان زياد يأتي اليّ في كل مساء ، فنقضي سهرتنا في احد
الملاهي الكثيرة في عاليه .

ومرت الأيام ...

وانا اطير من ثوب الى ثوب ... من مكان الى مكان ...
من يوم الى يوم ... ومن خيالي المليء بزياد ... الى سماء
عيون زياد ... الى ذراعيه القويتين ...

ولكن ...

في اللحظات التي كانت السعادة فيها تنسيني وجودي ، كان
يتسرب مع الأشعة المتألثة الى نفسي شعور حزين ...
ربما كان قليلاً من اليأس ، مبعثه الخوف ... خوفاً على
هذه السعادة !

وكان هذا الشعور بحثاً وعيياً ويدفعني الى تقدير
اللحظة ، فاتمسك بها ، وافني فيها نفسي ، واذوب في
ثوانها ذراتي ، ليقيني من انها ستزول ... ستزول ...
ستزول ...

وابتداً اهتمام زياد المتزايد بي يولد عندي مركب نقص .
انا التي كنت املّ الآخرين . اصبحت اخشى عليه من
الملل برفقتي !

هل انا جميلة ؟

هل انا ذكية ؟

أحاديثي ممتعة حتى يكرس لي زياد ، لي وحدي ،
جميع اوقات فراغه ؟

وفي اليوم السابق لتركبي « عاليه » ، وقفت في الصباح ،
اتأمل نفسي في المرآة . وكانت رانية قد سبقني باكراً ، الى
دمشق مع المربية . ولم يكن هذا التصرف سوى قرار اتخذته
كي اتفرغ في اليوم الأخير كله لزياد ، او بالاحرى ،
للاعتناء بنفسي من اجل زياد .

ورمقت صورتي المنعكسة قبالي ...
لقد مللت شكلي ...

وتساقط نظراتي الجسد المترنح بنحمر الشباب ، وارتفعت
تفحص الرأس ؛
وقطبتُ !

اللهفة تفجر في شفتي دماءً وردية ، والامل يزغرد في
عبوني ، ولكن لون بشرتي يضايقي !
لماذا بشرتي حنطية اللون ؟ يجب ان اصبغ وجهي بمسحوق
داكن !

وشعري الطويل ؟ شعري يضايقي ايضاً ...
هل اعقصه ؟ ام اربطه كذيل الفرس ؟ ام اتركه متدلياً
على اكتافي ؟

لقد مللت تسريحه ، مللت طوله ! لماذا اتعب نفسي في
مداراته ؟ وتصفيفه ؟ لمن هذه الحصلات التي اقضي ساعات

في جمعها وعقصلها ، ونثرها ؟
ان زياد يحب شعري ، ولكن الم يقل مرة منذ زمن
بعيد انه معجب بالشعر القصير ؟
الشعر القصير ! لماذا لا اقص شعري ؟ وحالاً استشرت
ساعتي : العاشرة والنصف . لديّ الوقت الكافي كي انزل
الى البحر وارفع وجهي الى السماء مدة ساعتين او ثلاث ،
فتصبغه الشمس بالوان نحاسية ؛ ثم اتوجه تواءً الى الحلاق ،
وامر بزياد في طريق عودتي ...
وخرجت من الفندق .

•

اقربت الأصابع الغليظة من شعري ، وانغrust انياب
المشط بين الحيوط الحالكة المتموجة ،
نظر اليّ الحلاق متأسفاً ، وقال :
— انا اجمالاً لا احب الشعر الطويل ؛ ولكن شعرك
ثروة ... هل انت مصممة على قصه ؟
تذكرت ما كان يقوله لي زياد :
« هذه الحصلات السود هي اماسي العاطرة ... نظرائي
تسحر من وهج سوادها ... هي انهار طيب يلذ لأصابعي
ان تختفي في شلالاتها ... احب شعرك بقدر ما احبك ...
بل اكثر ... »
هل يزاحمني شعري في حب زياد ؟

وضحكت للفكرة :

— هيا اقطعه !

وفجأة تذكرت ألفريد !

مع شعري ، ساقطع آخر خيط ، ولو رمزي ، في
خطبتنا . ألم يقل لي مرة : « اذا قصصت شعرك فلن تري
وجهي في حياتك ؟ » ألم ار ، مرة ، دمة تنحدر من عينيه
حين قصصت خصلة صغيرة دليتها على جبيني ؟

ولكن من يدري متى اجتمع بآلفريد مرة ثانية ؟ وشعرت
بحنين اليه ... ولكن حنيني عبر بسرعة في قلبي ليضمحل امام
شوقي الى زياد ...

— ماذا قررت ؟

قالها الحلاق بلهجة حزينة مضحكة .

— ماذا تنتظر ؟ هيا اقطعه !

واقترب المقص يحزر هذا المارد الأسود ، ونظرت الى
الحصلات تنهار ، دون حياة ، عند الأقدام ، وكأنها لم تكن ابداً
اين الشلالات ؟ اين العطور ؟ اين الليالي الحالكة الطويلة ؟
هذه الأماسي العاطرة ، سأدوسها اذا كانت ستسبب ملل زياد

وضحكت عندما ردت لي المرأة صورة فتاة ذات رقبة
طويلة ، تلمع عيناها بين الحدود النحاسية ، والجبين الموشى
بالحلقات الصغيرة السود ...

*

التفت زياد الى الفتاة التي تمر الى جانبه ، وذهل حين
"نأكد ان هذه الفتاة ليست الا انا ...

— ماذا ... ماذا فعلت ؟ يا الهي ! هذا جنون ! ما اقبحك !
وغرب وجهه عني :

— ابتعدي ... وعودي اليّ بعد سنة او سنتين حين يعود
شعرك مثلما كان ...
وعاد يحدجني :

— انت فتاة اخرى الآن ... يا نك من مجنونة ... كيف
تجرات على ذلك ؟ ومتى اتيت الى بيروت ؟ ومتى ذهبت
الى البحر ؟
ضحكت :

— هذا الصباح ، وساعود توأ الى « عاليه » لاستريح
قليلاً ... ثم انتظرك ...

— ابدأ ... انا لا اسهر مع فتاة قبيحة ...
ثم هز رأسه ... وغمغم :

— مع ان هذه التسريحة الغلامية تلائم جنونك ...
لم أقل شيئاً ، كنت واثقة بانه سيرضى ، فالمفاجآت تسره
دائماً ، حتى ... لو كانت غير سارة !
وتركته ، قائلة :

— لا تتأخر ...

في « عابدة ايل » صغيرة ، جلسنا في ركن منعزل .
تستغيث من فجوات في جدرانها ، اضواء حمر خافتة .

تأمل شعري ، وقال :

— الآن ... تحسن شعرك وشكلك قليلاً ...

ابتسمتُ ، وتابع :

— تبدين اصغر مما كنت ... الآن انت في العشرين .

كان شعرك الطويل يعطيك شيئاً من الرزاة ... من الهيبة ،

كسيدة متقدمة في السن !

— اذن ... أعجبك ؟

ضحك :

— قد يعجبني ... بعد ايام ...

ورفع يده يتلمس الحلقات السود ، وتابع :

— وقد تتعود اناملي مسح الزغب الأسود ... بل قد تحبه ...

وسكت .

وعزفت الجوقة الموسيقية ، وصدحت الألحان ، تدعو

الجالسين الى حلبة الرقص ...

سأل :

— هل خابرتك رانية حين وصلت الى دمشق ؟

— اتصلت بي ناديا واخبرتها اني سأعود غداً ...

تمهل السؤال على شفتيه :

— غداً ...؟ غداً ؟ او بعد غد ؟

ابتسمتُ ... وقلت بعفوية :

— انا ... لست ادري ... سأعود معك ...

ارتفعت نظراته تعانق الشفتين الحائيتين ، ثم العينين الملحتين ؛
وبين عينيّ وعينيّه ... عزفت نظراتنا انغماً جنونية ...
وبين الشفاه ... عربدت لهفةً مسكرة ...
وامتدت يده بسكون ، تشدّ يدي ، ونطق :
— سرقص !

وتسللنا بين الراقصين ...
وفي انعكاس الأضواء الخافتة على الجدران ... كنا خيالاً
واحداً ... يتلوى ... يتوجّع ... ويدوب مع الأنغام ...



**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

القِسمُ الثَّالِثُ

١

كان الطريق يركض ، ويطوي الأشجار وراءنا ،
ويقصر ، ويقصر ، وكأنه حبل يشدنا الى دمشق ، الى
بيتنا ، الى حياتنا ...

وددت لو تطول ، تطول المسافة ، وتلفظنا الدرب في
عالم جديد ، في بيت صغير ، هناك بين احضان الأفق ، نعيش
فيه بعيدين عن الدنيا وعن الواقع ؛ نعيش فيه وحيدين ...
ناسيين ... ومنسين ...

واحسست بقلبي ينكمش بين ضلوعي ، حين احتوانا
مدخل دمشق الواسع الجميل . احب بلدي ، لكن مجرد
وجودي فيه ، في ذاك الوقت ، قذفني من حلم جميل
كنت احياء واسعد به ، الى الواقع الذي تناسيته لفترة .

شعرت فجأة ... بان زياد ابتعد عني قليلا ...

مع الأشجار الوارفة الحانية ، ومع الأنهار الغزيرة المتساحمة
استقبلتنا طبعاً الأقاويل ... والانتقادات ...

فقد وجدت في البيت ، مع رانية ، جدتي تنتظرني :
— اهلاً بك يا حبيبي ... تأخرك شغل تفكيري
ثم حدثت إليّ مشدوهة ، ومدت يدها تبحث من نظاراتها
لتؤكد رؤيتها .

— الهي ! اين شعرك ؟ ماذا فعلت ؟

— قصصته ! الا يعجبك ؟

— هذه النسيجة الصبائية « تفرفي » ... اضعت رونق
وجهك ! ما هذه الافعال الطائشة ! لعن الله من اوحى اليك
بهذه الفكرة !

ضحكت ، وحملت حقائبي ، ودخلت غرفتي ، وانا اقول :
— ستتعودين رؤيته ... يا تينا ... وسيعجبك ...
تبعثني ، واغلقت الباب وراءها . وبينما كنت افتح
حقائبي ، واخرج منها اثياب ، جلست بوقار ، على حافة
السريـر ، وقالت ، وكأنها حاكم يستنطق ظنيماً :
— أصبح ان زياد مصطفى كان في لبنان ؟

أجبتها بلهجة طبيعية :

— نعم كان في بيروت ...

— وطبعاً اجتمعت به ؟

اكّدت :

— طبعاً طبعاً !

— لماذا يا ريم ... لماذا ؟

— لانه صديق يا « تيتا » ... صديق يعجبني كثيراً

— اعرف ... اعرف انه يعجبك ! يا للمصيبة ! افلا

تكفينا هذه المصيبة ؟ وهل يجب ان نزيد الطين بلة فنعرّف

الناس اجمعين على بلوتنا ؟

قلت هازئة :

— انا احب الصراحة ...

— صراحة ... صراحة ... هذه ليست صراحة بل وقاحة !

على الاقل حاربي هذا الأعجاب المجرم الذي يملك !

سألته ببساطة :

— لماذا ؟

— يا ريم ... « اذا بليتّم بالمعاصي ... فاستثروا ... » !

رميت الثوب من يدي ، وجابهتها بنظراتي الحازمة :

— انا لا اعتبر صداقتي لزياد معصية ... انا اعتبرها

اوج الأخلاق ...

انهمرت دموعها ، وارتفع نحيبها :

— ليتني ... ليتني متّ قبل ان اسمع هذا التصريح

منك ! ليتني رحلت قبل ان اسمع هذا الكلام الجنوني على

شفتيّ من افنيت حياتي في تربيتها ، ووضعت فيها كل

آمالي ...! ستقضين انتِ عليّ ...

لم اتأثر من بكائها . لماذا تبكي ؟ لأنها فعلاً تخاف على
اخلاقي ؟ ام لأنها تخاف ان يتعد العريس الممتلئة جيوبه
دراهم ، فلا يتقدم للزواج بحفيدتها ؟ ازعجتني هذه الفكرة .
احب جدتي ، ولكن ، كيف أفهمها اني انا لا اريد الزواج ؟
كيف أقنعها بانني لا ارى الدنيا بعينها . ولا احكم على
الحوادث بمفهومها !

ناديت دنا :

— كوب ماء يا دنا ، وفنجاني قهوة ...

واقتربتُ من جدتي امسح دموعها :

— ارجوك يا تيتا ... البكاء لا يجدي ... الأفضل الا

نتحدث بهذا الموضوع اطلاقاً ...

•

في اليوم التالي جاءت ليلى وابتدرتني

— انا جدّ متأثرة يا ريم ... ان قصتك على كل لسان ...

حديث الناس انت وزياد ...

ابتسمتُ ، فاهتاجتُ :

— انهم يقولون انك تركتِ ألفريد كي تتزوجي هذا الرجل ..

هزئت :

— احقاً ؟

— ومنهم من اكّد لي انكما عقدتما قرانكما !

— ولماذا انت مهتمة بما يقولون ؟ دعهم يتكلموا كما

يشاؤون ...

— ابدأ ... ابدأ ... انا لا تحمل الأقاويل ... ابدأ ...
ثم تحولت لهجتها الى النصيح :
— لماذا يا ريم ؟ لماذا تركين لهم المجال في التحدث عنك
لماذا ترافقين زياد الى كل مكان ... وامام الجميع ؟
— لانني اكره النفاق يا ليلي
— انت لا تقدرين الأمور ! اذا اجتمعت به سرّاً فهذا
لا يعني نفاقاً وخبثاً ... هذا يعني سياسة ودبلوماسية ...
عجبت لأرائها ، ولم يسعني الا ان اهزّ رأسي واقول متأسفة :
— حتى انت يا ليلي ... حتى انت الفتاة المثقفة ...
المتحررة ... حتى انت التي تنادين بحرية الفتاة ، وتنقمين
على التقاليد ، حتى انت تؤمنين كأهل بلدي بالحبث والنفاق !
— حاولي ان تفهميني يا ريم . لماذا تعرضين سمعتك لالسنة
السوء ، وبامكانك ان تحتفظي بسمعتك وزياد لو اردت ؟
فكرتُ :

لماذا ألومها ؟ قد يكون ما تقوله صحيحاً بالنسبة اليها ...
فالحبث هو الحل الوحيد لعملية جمع الصراحة والسمعة !
والسمعة ضرورية في بلدي لان مستقبل الفتاة يتوقف عليها .
لا ... لا ...

انا لا اريد رجلاً غيباً يتقدم للزواج بي لمجرد علمه بان
سمعتي ناصعة ... مثل سمعة الكثيرات من اللواتي اعرف ؛
سمعة ناصعة تأتي الحبث في نسجها ، وزادها التمثيل
اشعاعاً

لا ... ابدأ ...

انا اريد رجلاً يحبني لانه يفهمني ، لانه يقبل تاريخي
ويقرأه ككتاب مفتوح دون صفحات مطوية وملصقة ! اريد
رجلاً يمتدحني او ينتقدني لأنني شخصياً اعجبته او لم اعجبه ،
لا لأن الناس قالوا او لم يقولوا ...

— اسمعي يا ليلي انا اطلب منك الا تهتمي بما يقولون

عني ...

— ان عدم مبالاةك يقتلي ...! انت لا تقدرين ...
انهم يؤكدون انك ستتزوجينه ...

اجبتها بمزحة :

— وبعد ؟ إذا الحوا فعلاً فسأتزوجه !

وضحكت . وفجأة تنبّهت على ما قلت : « سأتزوجه ...
سأتزوجه ... ولماذا لا اتزوجه ؟ »

وصرخت ليلي كالملسوعة :

— ارجو ان تكوني مازحة ... هذه كارثة ... هل
جنت ؟ هل تضحين بكل شيء عندك ؟ كل شيء من اجل
هذا الرجل ؟ هل نسيت في الدرجة الاولى ان دينك يحرم
ذلك ؟ ماذا دهاك ؟ لا ... انت طبعاً تمزحين

ابتسمت ولم ارد ، واشعلت سيجارة ، وسحبت نفساً
طويلاً . وصعدت نظراتي مع الدخان تبحث عن اللازمين
واللاحدود ، وتلاشت في فضاء الغرفة . لتحيا في فضاء
ارحب ... فضاء حي ...

لماذا ... لماذا لا اتزوج زياد ؟

*

ذهبت ليلي . وبقيت مع افكاري اعتصرها لأغذي شوقي الى زياد ...

هل تعتقد ليلي ان الأقاويل ستخيفني ؟ وان حبي سيتقهقر امامها ؟ على العكس ، اصبحتُ احب حتى هذه الأقاويل ، لانها تجمع بيني وبين زياد ...

ورن جرس الهاتف ، فطرت نحو الآلة ، واذا بصوت ناديا . انكمش قلبي ؛ كنت دائماً اشعر بخيبة عندما لا تحمل لي الأسلاك صوت زياد .

— الحمد لله على سلامتك يا ريم ... هل انت باقية في البيت ؟
— نعم ...

— إذن سأكون عندك بعد قليل .

لم أر ناديا منذ زمن بعيد ، وكنت اعلم انها تتحاشى ملاقة زياد هنا . ومع انها الشخص الوحيد الذي احبه من كل قلبي ، وارتاح اليه . لم ارحب قلبياً بمجيئها ...

— اهلاً ناديا .. انا لم ارك منذ زمن بعيد ... بعيد ... لماذا ؟

ارتسمت على شفتيها الحميلتين ابتسامة معاتبة :

— لانك في ظروفك الحالية لا تفكرين فيّ يا حبيبي ...

حاولت ان احنج ، لكنها اوقفت كلماتي بحاجبها الذي
ارتفع ، وقالت :

— انا اعرفك تماماً يا ريم ...

ضحكتُ معرّفة ، واردفتُ :

— ثم ... انا لا اريد ان اتحدث معك عن موضوع

معين ، لاننا سنختلف ...

سألتها فوراً بتحد :

— اي موضوع ؟

— ارجوك ... لا تتجاهلي ... طبعاً عن الموضوع الذي

اصبح على كل لسان !

اسمعي يا ناديا ... انا لا يهمني مطلقاً ما يقوله الناس ...

— يا ريم ... افهم تماماً كيف تحكمين على الأمور

ولكن ... هل أذكرك بانك لا تعيشين في عالم افكارك

وآرائك الحر ؟ انت تعيشين في حياة اجتماعية ، طغت

قوانينها على عادات الطبيعة ... ومحتها ...

— لكنني لست مؤمنة بهذه القوانين ... وبهذه التقاليد ...

— اوافقك ، ولكن من واجبنا ان نحسن التقاليد لا ان

نهرب منها لنقع في اسوأ منها ...

— مصيبتك يا ناديا انك فيلسوفة ، ولا تشعرين ! العاطفة

معدومة لديك ...

ابتسمتُ ساخرة :

— انا لا اشعر ؟ انا امرأة يا ريم ... انساة ... ولي عاطفة

متدقة مثلك ، بل اكثر ... لكنني لن ارضى ، لن أقبل
الرخص في حياتي ...
صرختُ غاضبة :

— ما هذا الكلام الفارغ ! هل تعتقدن ان الحب رخص ؟
— لا ، انا افهم الحب ، واحترم الحب ؛ لكن المرأة ،
برأيي ، اذا احبت رجلاً يلهو ولا يقدر قيمة حبها ، هي
التي ترخص !
جئتُ :

— عمن تتكلمين ؟ هل ...
قاطعتني بهدوء :
— اتكلم عن الرجال اجمالاً في بلدنا ... انا لا اعني ،
لا اقصد احداً ... مجرد رأي أبديته ! ولماذا تضايقت من
كلماتي الى هذا الحد ؟ قلت لك ان آراءنا ستضطدم ... ما لنا
ولهذا الحديث ... جئت الآن لانني مشتاقة اليك جداً ...
فهمتُ وغيّرتُ الحديث :

— كيف ترين شعري ؟
— اعجبني ؛ الشعر القصير يضفي اناقة على جمال
المرأة ... يا ريم ، خالك سيسافر الى اوروبا بعد فترة وجيزة ،
وهو لم يرك منذ زمن بعيد ايضاً ...
— سأمر به غداً ...

— على كل حال سنقيم سهرة عندنا قبل سفره ومن الآن
اخبرك بذلك ... وارجو ان تنفرغي لنا في تلك الليلة ...

سهرة ؟ اذن لن اسهر مع زياد في تلك الليلة ؟
— انت تعلمين يا ناديا اني لا احب الحفلات ...
— اعرف انك الآن في هذه الفترة تكرهين السهرات ...
ولكن ... لا تنسي اننا ... نحبك ...
ابتسمت ...

— يا ريم ، يمرّ الانسان في حالات يعتقد فيها ان كل الذين
يحيطون به لا يفهمونه ، ويريدون له شراً ، فيصبح يكره
اقرب الناس اليه ... انت الآن تكرهين الاجتماع بكل
الاصدقاء القدماء ، لان نفسك تغيرت ، اما هم ، فما
زالوا كما كانوا ... انا لا اريد سوى ان الفت نظرك الى
نقاط لا تنتبهين لها ... او تتجاهلينها ... كنت دائماً صديقتي ،
وحبيبتي ، وابنتي ، هل تشكين لحظة في اني اريد صالحك ؟
— لا اشك في ذلك يا ناديا ... ولكنك لا تعرفين ابن
هو صالحني !

نظرت اليّ ، نظرة الأم الى طفلها المغرور ، وهزت
رأسها وقالت بهدوء :

— قد تكونين على حق ... سأنصرف الآن يا ريم ...
الى الغد ...

وانصرفت ،

نظرتُ بلهفة الى الساعة . لقد قاربت الساعة ، وقد
يأتي زياد بعد لحظات ...

سيأتي زياد ! ما همني سفر خالي او بقاؤه ؟ ما همني

الأصدقاء . واجتماعاتهم ؟ ما هممتي آراء ناديا ؟ انا
غريبة عن كل هؤلاء ، انا اعيش في عالم جميل ، فوق
دنياهم ...

الست حرة في ان انتقي عالمي ؟
وحالاً ... علا في ذاكرتي صوت ناديا يجيني :
« لا ... انت تعيشين في حياة اجتماعية ، طغت قوانينها
على عادات الطبيعة ... ومحتشها ... »

*

— ما هذه البلدة . وما هذا المجتمع ؟ سألي احدهم
اليوم اذا كنت قد تزوجتك ...
— ان الناس سخفاء يا زياد ... وبماذا اجبته ؟
— اجبته ، ليت هذا صحيح ! ولكن هناك اسباباً كثيرة
تمنعنا من الزواج ، او بالاحرى تمنعك انت من الزواج
بي ، اولها انك ما زلت مخطوبة الى ألفريد ...
— نعم ... نسي الناس اني مخطوبة الى ألفريد ... ولكنني
في الحقيقة لن اتزوجه ...
تأملني ملياً ... ثم سأل :
— هل انت فعلاً لا تريد الزواج ؟
— كان هذا رأيي دائماً ... واذا كنت سأتزوج يوماً ما فلأنني
أريد ان ابقى مع الرجل الذي احب ، لا حباً بالزواج ...
— وهل تحبين ألفريد ؟

نظرتُ اليه معاتبة :

— يا سيدي انا ليس بامكاني ان احبّ رجلين في آن واحد !

ابتسم :

— وهل تحبيني انا ؟

— اذا كنتَ حتى الآن لا تعلم اني احبك ، فانا ...

قاطعتني :

— الى اي درجة تحبيني ؟

رفعت نحوه عينين أدمعهما الوجد ، وقلت بصوت

ترقرقت فيه الأنوثة :

— أحبكَ ... احبكَ الى درجة اني اضحي بأي

شيء ... اي شيء عندي من اجلك ..

ثم تمتمت :

— وأريد ... أريد ان أعطيك ... طفلاً ...

فتح عينيه مذهولاً ... ثم توهّج النور في اساريه :

— صغيرتي ... يا حبيبي ... طفلاً ... عيناه بلون .

عينيك . وسيكون طبعاً موسيقياً ...

أجبتَه بطفولة :

— لا ... لا أريد طفلاً ، بل طفلة ... لانني سأدعوها «لنا»

— «لنا» ... «لنا» ... ما ابدع هذا الاسم ... انت شاعرة

فعلاً ...

سألت بخوف :

— انت لا تحبّ الأطفال ...

— احبّ « لنا » ... بل اعبد « لنا » ... ولكنك انتِ
ايضاً لا تحبين الأطفال ؟ فما الذي ايقظ في نفسك هذا الشعور
— انا احبك انت يا زياد ، وأريد ان اشعر في ذراتي
بمعنى وجودك ، وبمعنى وجودي ، ... وبأننا واحد ...
وبعد لحظات سكوت ، تابعتُ :

— هذه امنية ، اعرف انها مستحيلة ، لاننا لا نملك ورقة !
بل لا نستطيع ان نحمل ورقة ! ورقة تافهة ، وقع عليها بعض
الاشخاص العاديين ... بعد ان سجلوا فيها زواجنا ...
وانفعلت كلماتي :

— لماذا ... لماذا لا يستطيع الانسان ان يتزوج بمن يشاء ؟
لماذا توجد الموانع دائماً ؟ لماذا لا يربط الحب ، لا الزواج ،
بين الرجل والمرأة ؟

وقرّع الباب ، ودخلت رانية ضاحكة :
— ريم ، أريد ان اعزف على البيان ...
ضحكتُ ، وقدمت لها الكرسي الصغير قائلة :
— تفضلي ...

كان زياد يتفحصني ، يدرس حركاتي ، تمنيت لو اسمع
منه « ريم ... لنحطّم الحواجز ... ولننزوج ... »
لكنه قال :

— يا ريم ... انت لا شك فنانة ... فنانة في كل تصرفاتك ...
لماذا لا تستغلين فنك في الكتابة ؟ يجب ان تصبحي شاعرة كبيرة .

كنت سأبوح ...

كنت سأعترف له بأنني اخاف الوحدة ... كنت سأقول
اني في حاجة الى شخص حبيب يبقى لي جانبي ، ويدلني
على طريقي ... ويدفعني فيه ... ؛ شخص يبدّد ضياعي
وخوفي ، ويعطي معنى لوجودي . فوجد في ظله الامان ،
ثم ... اكتب ... واكتب .. واكتب ...
لكنني لم اقل شيئاً من ذلك . وسألت :
— زياد ... الا تشعر بالوحدة ؟

— الوحدة ؟ الوحدة خصبة يا ريم ... خصبة جداً ...
انا لا اعيش وحيداً ... انا اعيش مع في والحاني ... ثم
انا احب الحرية ، والحرية توجد في الوحدة ... انا لا
استطيع ان ارتبط بقيود ... ان ذلك يحد آفاق في ...
لا ... انا احب الوحدة ...

فهمت ان زياد يستبعد فكرة الزوج . وانه لم يشعر بعد
بصقيع الوحدة . سألته بلهجة رقيقة :

— زياد ... منذ زمن بعيد لم استمع الى الحانك ... الا
تعزف لي المقطوعة القديمة التي احب ؟
ابتسم راضياً :

— بأمر عيونك !

وامسك بالقيثارة ، فطلت من رانية ان تتوقف عن
عزف البيان . واقتربت ، اجلس كالعادة على كرسي
صغير قبالة .

تسرّبت انامله تداعب حبيباتها الأوتار ، وجاءت الألحان
تطوي حديثنا ، فطويت امنيتي في اعماق قلبي ، وانا متأكدة
من انها ستصبح « واقعاً » في يوم من الأيام . إن زياد سوف
يطلب مني الزواج . سأرتمي بين ذراعيه ، وستجيبه دموع
فرحي ، وسيكون « لنا » طفلة ...

كنت واثقة في ذلك الوقت ، بان القدر سيغير مفاهيم
زياد ، وبان الظروف ستبلور جوهره الحقيقي ...
نعم ... آمنت بقوة القدر ، وبتأثير الظروف ؛ لكنني
نسيتُ ، انني انا ايضاً انسانية ، وان عاطفتي كانت هي ايضاً
بين اكفّ القدر والظروف ...

٢

في الشهر التالي تراكمت اشغال زياد : فقد افتتح المعهد ابوابه من جديد ، وتكاثرت الأعمال في الشركة ، واخبرني زياد انهم ينتظرون قدوم مفتش جديد من تركيا ، وان الشركة تحاول تصفية كل الحسابات قبل وصوله .

اما انا ، فقد التحقت بالجامعة ، وتسجلت في فرع الحقوق ، وقررت الا اواظب على محاضرات الأساتذة ، بل ادرس وحدي في البيت .

وفي الحقيقة ، ما اردت الدراسة حباً بالعلم ، بل لأهلي نفسي ، واقتل الوقت الذي اقضيه وحيدة ، بعيدة عن زياد . وكان هذا الوقت يتزايد ولا ينقص ، يطول ولا يقصر ، يحمل نفسي مع أوراق الأشجار ، نحو الشحوب والأصفرار ..

فاعمال زياد كانت ، يوماً بعد يوم ، تسرق مني اهتمامه ،
وكان اهماله لفنه يزيد في شقائي .
ودون ان اشعر ، كانت جرائم اليأس تتسرب بسكون
الى اجوائي ...

وفي ظهيرة يوم ، خابرنى زياد يسألني عن صحتي ، اذ
انني كنت اشكو من اوجاع الجيوب القديمة التي نبهتها في
جبهتي رياح الحريف ... المتقلبة ؛ وطلب مني الا اخرج من
البيت ، فاعرض نفسي للبرد . وقال انه سيأتي اليّ في الغد ،
اذ انه مضطراً الى سماع محاضرة في مساء ذلك اليوم .

وفي الغد ، شفيت طبعاً ! ففكرة وجود زياد الى جانبي
كانت تسكب في نفسي قوة تتقهقر امامها جميع الأمراض ...

اخذ يروح ويحي في الغرفة ، ونظراته تتبخر في الفضاء ،
وكانه لا يعرف ماذا يشغله ، ولا ماذا يريد ...
— زياد ... انت تعمل كثيراً وترهق نفسك ... لماذا
لا تترك المعهد ؟

— ان عقدي ينتهي بعد ثلاث سنوات ، وساترك بعدها ...
— لماذا لا تترك الآن ؟ انت فنان ، يجب ان تتفرغ لفنك ،
يجب ان تؤلف ... وتؤلف طوال النهار ... لماذا تهمل موسيقاك؟
ان الحانك ملك للجميع ولا يحق لك ان تهملها ...

— يا ريم ... انا لا اودّ ان اترك المعهد ، فهذا الجو
الدراسي يروقي كثيراً

— إذن اترك الشركة !

— كلها بضعة اشهر وستمضي . سأتفرغ للموسيقى في
الصيف . يا ريم ... هل تقدمين لي فنجاناً من الشاي ؟
اشعر باوجاع في رأسي ...
اجابته ابتسامتي ، وخرجت من الغرفة اتوجه الى المطبخ .
تبغني يقول :

— كان وصول المفتش البارحة الى الشركة مفاجأة ...
— لماذا ؟

— لأن المفتش امرأة !
هتفتُ حالاً :

— هذا عظيم !

تابع ضاحكاً :

— وامرأة شابة وحلوة

— فعلاً عظيم ... عظيم ...
واردفتُ مازحة :

— يا سيدي . سنبرهن لكم ، انتم الرجال ، اننا عظيمات .
ويوماً ما سنحكم البلاد ...
قال ساخراً :

— انتظري ... لم نرَ شيئاً من اعمالها العظيمة بعد ! لقد
رافقتني البارحة الى المحاضرة . وسأمر بها غداً صباحاً . لأقلها

بسيارتي الى العمل ، لانها غريبة ، لا تعرف البلد بعد .
وتابع :

— وذلك يزعجني . لأنني محبر الآن على ان استيقظ باكراً..
ضحكت :

— يا الهي كملك ! آه نسيت ... لقد جاء اليّ اليوم
شاب يدعى صباح عنى ما اعتقد ، وقال إنه يعرفك وانك طلبت
منه ان يحمل اليّ بعض الكتب الحقوقية ... وهو طالب
— حقاً ؟ اذن لقد تذكر ... انه شاب طيب ، يجب ان
تقرئي هذه الكتب . يجب ان تدرسي وتحصلي على الليسانس ...
ثم توسعين ثقافتك وبالاحرى ، تبدئينها !!! لانك لا تعرفين
شيئاً ... وبعدها ... تنفرخين للشعر ...
ضحكت :

— فملاً يجب ان ابدأ ثقافتي ، فانا لا اعرف شيئاً !

وحملنا فنجاننا لتساي . وعدنا الى الساعة .
جلس على مقعده . وشردت نظراته في البعيد ... وساد
السكوت ... راقبته . وحاولت ان افهم سرّ ضياعه ، لكنني
لم استطع ، وعللته بأنه نعب ...
عصر الفنجان في يديه . واغرقت نظراته في السائل
الدافئ ، وجمعهم :

— اشعر بالملل ... ملل فائق ... ان شاء الله البلدة عتيقة ...
انا مرتبط بها لأنها بلادي ... لأنني سوري لكنها عتيقة ...

انا في حاجة الى بلاد جديدة ... الى سماوات جديدة الى
وجوه جديدة ... امل ... امل ... يكاد الملل يقتلني ...
شعرت بالكلمات تمتد اصابع قاسية وتطبق على قلبي ؛
كيف يملّ البلدة التي انا تحت سماءها ؟ كيف يملّ الحياة
التي اشاركه اياها ؟ لكنه استمر :
- وانت ؟ كيف لا تملّين هنا ؟ لو كنت مكانك لركت
هذه البلدة منذ زمن بعيد ...

قلت برقة :

- زياد ... انا احبّ هذه البلدة ... احبها حبّين : حي
لها ... ولأنك فيها ...

نهض ، واقترب مني ، ووقف قبالي ، وتأمّلني ،
وافكاره تقطّب جيئه ، ولم يتكلم ؛ ثم ابتعد ، ليستلقي
على الديوان ، وتتمّ :

- انت الشخص الوحيد الذي يحبّني بهذه البلدة ولست
ادري ما كنت فعلت بدونك ... نعم ... لولاك ...

وهزّ رأسه ، واغمض عينيه ، ولم يتابع .
جلستُ الى جانبه ، على حافة الديوان ، وراحت يدي
ترحف برفق على جبهته ، تحاول ان تجرف عنها الهموم
والمشاغل والأوجاع ...

وارتفعت يد زياد تبحث عن يدي ، شكرها في ضمة على
اهتمامها . وخيم السكون علينا ... سكون ناطق باسمي
والعواطف ...

وددت لو يبقى عندي الليل كله ، لأُنيمه على زندي ،
وأهدده ، وأقص عليه حكايات كطفل صغير ...
وددت لو يبقى ، لاعتني به ، كما يعتني الإنسان بأغلي
واحلى امانيه ...

تمنيت لو اغطيه بانفاسي الدافئة ، فاحجب عنه البرد
والملل ولو استطيع ان ابعث ذرات قلبي في الفضاء ، فيغمره
الفضاء ... بالحنان ...

واقتربت شفتاي بوجل ، تهديان الراحة التي صاغها قلبي
في قلبه ، الى الحيين المتعب الحبيب ... وأغمضت عيوني ، فقد
كان عطفي اقوى من ان تربطني نظرائي بالواقع ...

*

توالت الأيام ...

كنت اجتمع بزياد كل يوم ، لكن لقاءاتنا اصبحت خاطفة
وصرت اشعر في الأيام الاخيرة بقليل ... قليل من البرود في
تصرفاته ، في احاديثه ، في نظراته ...

لم تعد هذه اللفتة الملحة تدفعه الي ... لم يعد هذا العطف
يلون احاديثه ... لم يعد الامان الذي انشده ينساب مع نظراته ؛
بل حجبت اشعة عينيه سحائبُ مبهمة ، عواطفُ تتصارع ، لم
يعرف هو كنهها ، لم يعرف مبعثها ، لذلك لم يستطع ان يجابه
واقعه الذي لا يفهم ، فحاول ان يهرب منه ، فانزلق في الضياع
ضياع تام استولى عليه ... ضياع ضيغني ... وذكر

الاعماق بجروحي ...

لكنني حاولت بجميع الطرق ان اجد الاعذار لبروده .
وان اقنع نفسي بان ضياعه ليس سوى تعب وملل من الاعمال
المتكاثرة .

وصرت اعمل جهدي : كي اهي له الجو الذي ينسيه
متاعبه ...

٣

واهلّ شهر كانون ينذر بزحف الشتاء الى سماننا ...
والى قلبي ...

في عصر ذلك اليوم جاءت ليلى تزورني ، وكانت ،
كعادتها ، متهيجّة ساخطة :

— يا ريم ... سمعتُ قصصاً ... قصصاً ... هذا الصباح
ضحكتُ :

— ما اخبار اليوم ؟ من تزوّج ... من طلق ؟ من سيقتله
الناس باقاويلهم ؟

— لا ... لا ... قصصاً تهملك ، تتعلق بك . كنت البارحة
في زيارة بعض المعارف ، وكان بيتهم يعجّ بالناس ... وقد
تحدّثوا عن زياد

- زياد ؟

- نعم ... وعنك طبعاً ... وقالوا انكما افترقتما !
ومع اني ضحكت ، الا ان حدسي تنسّم نذير سوء :
- آه ؟ ولماذا افترقنا ؟

- قالوا إن زياد يصادق الآن فتاة اخرى ، وهم يتساءلون
إذا كان سيتزوجها ...

نغل الفضول قلبي :

- ومن هي هذه الفتاة ؟

- لا اعرفها ! لقد ذكروا اسمها ... لكنني نسيت ...
انها غربية ... تركية على ما اعتقد ... ونعمل معه في الشركة ...
شهقتُ :

- انها المفتشة الجديدة ... سوزان ...

- سوزان ... نعم سوزان ... يظهر انها جميلة يا ريم ،
ومثقفة ، وترغب في الزواج ...
قلت بتحد :

- وهل يتزوجها زياد لانها هي ترغب في الزواج ؟

- يظهر انه معجب بها ؛ فهما دائماً معاً في الشركة ...
ويغادران الشركة معاً ... ويمرّ بها كل صباح ...
ارتجفت منزعجة ؛

أنا اعلم ان زياد يمرّ بها كل صباح ، ويوصلها ، أكثر
الاحيان ، الى حيث تقطن . انا اعلم انه يشرب القهوة معها
في الشركة ، وأنها رافقته الى المحاضرة في اليوم الاول من

وصولها ... هو اخبرني كل ذلك ، واعتبرت كل شيء عادياً
وطبيعياً ، فلماذا الآن أشعر بقلبي يتمزق وانا اسمع اخباراً
عرفها ، لكن يتفوّه بها شخص غير زياد ؟ اخباراً من ليلي ،
نقلًا عن إلسنة الناس ؟
قلتُ بهدوء مصطنع :

— اعرف كل هذه الاخبار ... انها تعمل معه ، وبطبيعة
الحال يجتمعان كل يوم ؛ لكنني لا افهم لماذا يريد الناس ان
يزوجوها زياد ؟
قالت فوراً :

— لانهما اذا تبادلا الاعجاب ، فلا عائق يقف في طريق
زواجهما ... انسيت ان الدين يقرب بينهما ؟
ثارت ثورتي !

هل يعتقد الناس ان هذه الفتاة التركية اقرب الى زياد مني ؟؟؟
انا التي رضعت معه ينابيع بلدة واحدة ...
انا التي تحرقتُ معه بشمس سماء واحدة ...
انا التي شاركت معه أرضنا الشوق الى امطار سماء واحدة ...
انا التي احنو معه على احجار بلدة واحدة ...
انا التي اتغنى معه بتاريخ بلدة واحدة ...
وانا ...

انا التي أفني حياتي ، معه ، لازدهار مستقبل بلدة واحدة.
هل هي اقرب اليه مني ، وهي التركية التي يزور ، لأول
مرة ، بلادي ؟

هل هي اقرب اليه مني ... لأنها من دينه ؟

يا للسخافة ... ! يا لتفاهة تفكيرهم ... !

رفعت انظارى أزجر ليلى :

— هل تعتقدين ... انتِ ايضاً ...

وتوقفتُ فجأة عن اكمال جملي ، وغصصتُ ببقية
الكلمات : ربما ... ربما زياد ايضاً ... ككل الناس ، لا يفهم
ان الوطن الواحد يربطنا ، ويعتقد انها اقرب اليه مني ... ؟
وسكبتُ هذه الفكرة مياها مثلجة في قلبي ، جرت في
عروقي ... وتجمدت ، فيست اطرافي ... بجهد جبار مددت
ذراعي ببطء ... فسمعتُ لانفراج المرفق صوتَ فرقعة :
تكتكات ... تكتكات تنخر أعصابي ... وسقطت يدي الحامدة
تطبق على علبة السجائر ، وسحبتُ سيجارة ، استمدتُ من
احتراقها قليلاً من الحرارة الى الجسد المثلج ...

وضج رأسي بالاسئلة : هل يحبها زياد ؟ هل سيتزوجها ؟
هل يفكر ، كغيره ، انها اقرب مني اليه ؟ هل ... هل ...
إذن بروده معي ليس مبعثه التعب من الأعمال ؟ اذن هو
لا يحبني ؟ اذن ... يجب الا أراه ؟ اذن ... اذن ...
وباحترق السجائر المتسلسلة بين شفاهي ، تسلسل الهدوء
المبعثر بين افكاري ...

ماذا بي ؟ ماذا بي ؟

وفجأة ... زعزع جمود جسدي رنينُ الهاتف ...

رفعت السماعة ، واذا بصوته :

— اهلاً ريم ... اما زلت في البيت ؟
— واين يجب ان اكون ؟
— في بيت خالك ... اليست السهرة اليوم ؟
— بلى ... ولكن ، قد لا اذهب
— لا يا ريم ... خالك سيسافر غداً . ومن واجبك ان
تسهرى معهم الليلة ، انا مريض ؛ قضيت كل يومي نائماً ،
واشعر بتوعك في كل جسدي ... ساعود الى السرير حالاً ...
نهضت فقط كي اخبرك ، واسأل عنك ، واقول لك اني
معك ؛ انا افكر فيك كل الوقت ...
سكت :

ماذا ... ماذا تغير في زياد بين البارحة واليوم ؟ لا شي
لا شي مطلقاً ... نطقت :
— ساخبرك غداً في الظهيرة ، كي أطمئن على صحتك ...
— سانتظر مخابرتك ... ارجو ان تتسلي في سهرتك ...
وتذكّرني ...

*

تجمع الضيوف حلقات ... حلقات ... في ردهات بيت
خالي الواسعة ... واقترب مني صديق قديم :
— آنسة ريم ... مساء الخير ... منذ زمن بعيد لم أرك ...
— اهلاً ... ما اخبارك ؟
اخذ يتحدث ، واذا بي لا افهم ما يقول ، بل استرق

السمع الى حديث يدور بين آخرين على مقربة منا :
« نعم ... هذا الموسيقي يلهو دائماً ... لكنه هذه المرة ،
سيقع في الفخ ... هذه التركية لا بأس بها ... »
اجاب صوت آخر :

« انها جميلة وطبعاً هي مثقفة ولولا ذلك لما حصلت على
هذه الوظيفة ... لكنني لا اعتقد انه يحبها ... »
وارتفع الصوت الاول :

« انا اعرفه ، فانا اعمل في الشركة ذاتها ، وسوزان رئيسة
دائرتنا الآن ... انه يلاحقها دائماً ! كان يجب ان تراه منذ
يومين ، كيف قفز من خلف مكتبه ، ليلم شالها الذي سقط
على الارض ، ويلف به كتفيها ، كان منظرأ رائعاً ، اضحك
جميع الموظفين ... »

امتقع وجهي ، وعادت الافكار تعصف بهدوئي ، وتمثل
انفعالي بنظرة شرر ، ألقيتها الى المتحدث السخيف ، وماذا
بها لو لمّ رجل شال فتاة سقط على الارض ؟

وتتبع الصديق نظرتي ، وكان مثلي قد سمع الحديث ، فسألني
- انهم يتحدثون عن زياد مصطفى ، اليس كذلك ؟
- اعتقد ...

- انت تعرفينه ؟

- اعرفه جيداً ... انه صديق ...

- انا لا اعتقد انه من الممكن ان يتزوج هذه الفتاة ...

تسرّبت هذه الجملة الى نفسي ، نسيماً دافئاً ، فسألت ،

احاول ان اسحب من فمه الكلمات :
— لماذا ؟

— لأنني لا اعتقده غيباً الى هذا الحد ... انا اعرف هذه الفتاة ... فقد قابلتها منذ سنين في اوروبا ، وكانت تدرس هناك ؛ انها حلوة لا شك ، وشابة ، فهي في الثامنة والعشرين ، لكنها ليست ذكية ، وهي متصنعة ، ممثلة ... كل همها ان تتصيد رجلاً يتزوجها ... وقد طلبت من الشركة ان تنقلها الى دمشق خصيصاً لتجد هذا الشخص ... انا لا اعتقد زياد ساذجاً حتى لا يكتشفها ويفهم مآربها ...

واقرب منا في هذه اللحظة شخصان لا اعرفهما ، فقدمهما اليّ ، وفهمت انهما لبنانيان ، من اصدقاء خالي سمير ، ثم قال — كنا نتحدث عن زياد مصطفى ... هل تعرفانه ؟
— هذا الموسيقي ؟ اعرف جيداً صديقة له لبنانية ، حدثتني عنه مراراً ...

ازداد امتقاعي ... وتابع الصديق :

— يظهر انه سيتزوج ...

اغرق هذا الخبر « الثاني » في الضحك ، وسأل :

— هذا « الدون جوان » ؟ وعلى اية واحدة من صديقاته

الكثيرات وقع اختياره ؟

سحقتني هذه الجملة ؛

احسست بكل جسدي يطوى بعضه على بعضه الآخر ،

احسست بشخصيتي تصغر ... وتصغر ... وتصغر ... لم اعد

فهم شيئاً من حديثهم ... وراحت افكاري فجأة تجرّ جملة
قالتها ناديا : « المرأة اذا احبت رجلاً يلهو ... هي التي
ترخص ... ترخص ... ترخص ... »
لست ادري كيف انسحبتُ من حلقتهم ، وودعت خالي
وناديا التي كانت سترافقه حتى بيروت ...
وانصرف ، مشحوبة الوجه ، اهرب من الضوضاء ...

ومرت لحظات وانا اروح واجي في بيتي المهادى ،
وتفكيري ينوء بمئات الاسئلة ، وأصوات اشخاص لا اعرفهم
تمزق نفسي ، وقهقهات شيطانية تخيفني ...
« انه يلهو ... سيتزوجها ... انها متصنعة ... انها جميلة ...
لفّ كتفيها بالشال ... صديقة اخرى لبنانية ... صديقاته
الكثيرات ... انه يلهو ... دائماً يلهو ... »
وعلت حولي الأصوات ... واستفزّت عنفواني : لا ...
سأتركه ! لن أراه ! انا لست العوبة ! لا ... لا ... لن
احزن ... لن ابكي ...

وبتحد ، رجت ابحت عن علبة السجائر ...
هذه السجائر التي كانت تحدثني عن زياد وترسم طيفه
في فضاء بيتي ، ستساعدني الليلة على نسيانه ...
ساحرق معها مرارتي ...
وساخط حبي برمادها ...

وبعد ساعات احرقتُ ثوانيتها بسجائري ، غرقت في مبات عميق . وفي الصباح نبهني من نومي رنين الهاتف . رفعت السماعة بكسل . وهرب نعاسي حين وصلت الى اسماعي نبرات صوت لا يشبهه صوت :

— ريم ... هل كنت نائمة ؟ آسف . لكنها الساعة العاشرة الآن ...
قلت ببرود :

— كيف حالك اليوم ؟

— لقد شفيت ... شفيت تماماً لكنني لم اذهب الى الشركة ، ولم استطع ان انتظر حتى الظهر كي اسمع صوتك ... انا بحاجة الى ان اسمع صوتك ...

حيرتني كلماته ، وضعتُ بين رأيين تضارباً في نفسي :
« يجب ان تبتعدي عن زياد .. » « لا .. انت تظلمين زياد .. »
واردفت :

— كنت سأتي اليك يا ريم لكن حين اخبرتني الخادمة ان غداءنا اليوم سيكون « الكبة » قررت انك ستتغدين هنا معي ، فهذا طبقك المفضل
وضحك قائلاً :

— ولا تخافي ... لم انس ... لقد طلبت من الخادمة ان تهنيء لك صحن « المتبل » ايضاً ... هيا انهضي وتعالى ...
انا منذ الآن جائع ...
نعم ،

انا ظلمت زياد البارحة ، ظلمته ، وظلمت نفسي ... لماذا ؟

وتابع :

- ثم لقد ألقت بمقطوعة جديدة صغيرة ، أنهيتها هذا
للبصباح ، وان ارتاح حتى تسمعها ...
ابتسمت ...

حتماً ساسمعها ... كيف اعتقد ان زياد يلهو ؟ وعلاقتنا
اسمى من الحب ، علاقتنا مبنية على التفاهم ، والمودة ، والصدق ...
- لا تتأخري يا ريم ...

هتفت :

- سأكون عندك بعد ساعة ...

- كيف كانت سهرتك البارحة ؟

قلت ، فوراً ، حاقدة :

- انا اكره المجتمع !

ضحك :

- تعالي ... ومتحدثيني عن ذلك ...

واقفل الحط .

جلست في فراشي احاكي نفسي !

لقد كرهت زياد ليلة البارحة وحكمت عليه وقررت ان

اهجره ... لماذا ؟

هل صدر عنه شيء يؤمني ؟ هل كذب علي ؟ لا... زياد

كان دائماً صادقاً ... وصلي به لم تتغير ... نحن الآن كما

كنا منذ شهر او شهرين ... لكنني البارحة سمعت اقاويل
بنيت عليها احكامي !!!

نعم ... كانت الاقاويل سبب انزعاجي ! وفهمت ذلك
اليوم ، فهتفت لزياد : « انا اكره المجتمع ! »

لماذا احمل المجتمع لومي ؟

انا دائماً انتقد المجتمع ! ولكن هل فكرت مرة ما هو
المجتمع ؟ هل حاولت مرة ان افهم اعماق هذه الحروف
الخمسة التي تكون كلمة « مجتمع » ؟

من السهل جداً ... بل من الضعف ان اصب نقمتي
وكرهي على « كلمة » ! الجرأة هي ان اجابه معنى هذه
الكلمة ، وعندها اصدر احكامي ...

ما هو المجتمع ؟ من هو المجتمع ؟

المجتمع هو اهلي ، هو اصدقائي ، هو معارفي ...
هو آراء ناديا التي اعتنقها ، واحاديث ليلى التي اصدقها ،
واقاويل المعارف التي تبني احكامي ...

المجتمع ... المجتمع ... هو انا !

وانا ضعيفة ... انا تافهة ... انا ككل الناس . دمية
تتقاذفها سائر الدمي ...

ونهضت ناقمة ؛ كيف لا انتقد نفسي ، واحسن نفسي ،
قبل ان ألوم المجتمع ؟

كان زياد يعزف حين وصلت اليه . وجلسنا نتجادل في
اللحن ، ثم قرأنا معاً مقالة في إحدى المجلات كان زياد قد
قرأها واعجبته ، وأرادني ان اشاركه اعجابه .
وبينما نحن على الغداء ، نادانا رنين الهاتف .
قال مستاء :

— ما ازعج الهواتف ... لماذا لا يتوقف هذا الرنين ؟
سألته :

— هل تريدني ان اجيب ؟
هز رأسه موافقاً . خرجت من غرفة الطعام ، ورفعت
السماعة ، واذا بصوت رفيع حاد يسأل بتحد :
— اين زياد ؟
عجبت من لهجتها القليلة الذوق ، واجبت :
— هنا ...

— اريد ان احديثه ...

— دقيقة واحدة ... ارجوك ...
وناديت زياد ، وعدت الى غرفة الطعام . كنت دائماً
اشعر بانني اهين كبريائي اذا استمعت الى زياد يتحدث على
الهاتف مع احدهن .
وبعد لحظات عاد الى غرفة الطعام ، ضاحكاً ؛ وقال :
— انها سوزان ...

وسكت . انزعجتُ : « اين زياد ... انها سوزان ...
هذه اللهجة تضايقني . رفعت الكلفة تماماً بينهما .

وقال بدون اكتراث :

— انها تسأل لماذا تغيبتُ عن العمل ؟

عجبتُ وسألته :

— وهل هي تخابر جميع الموظفين المتغيبين ؟

ضحك :

— طبعاً لا ... ولكنني الشخص الذي تعرفه اكثر من غيره .

علقتُ حاجبي ، مستوضحة ، فقال بشي من الغرور :

— اعني انها قرأت عني كثيراً في المجلات ، وسعت

موسيقاي ، وذلك يجعلها تتخيل انها تعرفني منذ زمن بعيد ...

انت تفهمين ... انها غريبة في هذا البلد ، وخجولة ،

وخائفة قليلاً ... لذلك تريدني ان اكون في العمل ، لانها

تقول ان وجودي يُشعرها بامان !

ازداد عجبي . ولم اقل شيئاً . وتابع ، ولمست قليلاً من

الحنان في نبراته :

— انها فتاة طيبة ... ومسكينة ... انها حساسة جداً ...

احتارت اللقمة في حلقي ! هذا الطرق الانثوية الماكرة

لاستجلاب رجل ، وربع عطفه ، انا افهمها تماماً ... ولكن ...

كيف افهمها لزياد ؟ وهو ككل الرجال طفل كبير ، تؤثر في

قلبه العيون الدامعة ... ويدغدغ غروره التجاء فتاة ضائعة ،

وحيدة ، اليه ... ولا يقدر زيف الابتسامات ... انه ككل

الرجال « يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ... »

ولكن ...

وهل تسمح لي كبريائي بان اتدنى واتدخل في هذه الشؤون ؟
وهو لن يصدقني ، وسيعتبر تدخلني بدافع الغيرة ! ثم ان رأيي
قد يسيء الى صداقتنا المتينة ... لا ...
سيكتشف بنفسه كل شيء دون ان يقوم بأي عمل يجرح
شعوري . انا اثق به . برغم كلام الناس . برغم اعتقاد
الناس ، برغم الأقاويل ... وبرغم محاولات سوزان لربح
عطفه ...

٤

في الأسبوع التالي جرت بضعة حوادث ، كلها تافهة
يحد ذاتها ، لكنها آلمني كثيراً .

كان يؤكد لي انه سيسهر عندي ، فاقضي يومي ، اهي
بيتي ، واحضر طعامه المفضل واعتني بشكلي ، وأطرز احلامي .
وفي المساء يخبرني ليقول انه تعب او انه يود القراءة ؛

نعم ، حوادث تافهة لكنني كنت اعمرّ منها ايامي . كان
مثلاً يعدني بانه سيخبرني ظهراً ؛ فانتظر مخابرته كل الصباح ،
ويأتي المساء ، ويختم الليل على دمشق ... وعلى قلبي ... فادير
رقمه ليجيني بلهجته الفاترة ، انه لا يذكر انه قد وعدني !
ولكنني ظللت اجد له الاعداد ، وصار منطقي يحاول
ان يقنعي بان المرأة العاقلة هي التي تفهم اعمال الرجل

وظروفه ، وهي التي نتقبل بروده وتبرّره .
ولكن حدسي كان يُسرّ لي بأنه تغير ... بأن شيئاً أصبح
يبعده عني .

وجاء ، في نهاية الأسبوع ، وجلس يقرأ إحدى المجلات ..
بقيت أتأمله ، ثم بادرت به :
— ماذا بك يا زياد ؟

التفت متعجباً :
— لماذا ؟ لا شيء ... لا شيء مطلقاً ... لم هذا السؤال ؟
الحقت :

— زياد ، أخبرني ماذا بك ، لماذا لا تصارحني كعادتك ؟
الا تعتقد اني سأفهمك ؟

— انك الوحيدة التي تفهمني فعلاً يا ريم
— اذن ... ارجوك قل لي ما بك ... انت تغيرت ...
تغيرت كثيراً ...

— انا لم اتغير يا ريم ... ان الظروف التي تحيط بجنّنا
تغيرت ... الأعمال ... الأشغال ... الحياة اليومية ...
— لا ... انت لم تعد تحبني مثل قبل ...
صرخ في وجهي :

— كم انت مخطئة ! انك الفتاة الوحيدة في حياتي التي
احببتها حباً صادقاً ... ولكنك تريدن حباً جنونياً ، وانا
عاجز عن اعطاء مثل هذا الحب ...

— لا ... لا يا زياد ... انت تغيرت ، انا اعرف ذلك ...
ماذا بك ؟ كل ما اريده هو فهمك ومساعدتك بقدر
امكاني ... اذا كانت هناك فتاة اخرى تستهويك فسأجد
لك عنبراً ... وسأفهمك ... انا دائماً صديقة ... صديقة
مخلصة يا زياد ...

قال بلهجة جدية جداً :

— ريم ... انا مسرور لانك طرحت عليّ مثل هذا
السؤال ... ثقي انك الفتاة الوحيدة في حياتي ... ان مكانتك
في قلبي لن تملأها انسانة غيرك ، انا احبك كثيراً ... انت
قطعة مني يا ريم ، صدقيني ... حين سأعجب بفتاة فسأخبرك
حالاً ... تأكدي انني اذا كنت سادعو فتاة الى اخذ فنجان
من القهوة فسأخبرك ... انا لن اكذب عليك ...

— اذن ارجوك قل لي الآن ما بك ؟

مدّ يديه ، وانفجرت اصابعه تحاول ان تشرح كلماته :

— انا رجل فنان ... احب واعبد في ... كما تعلمين .

لكنني الآن اشعر بالحنين يملأ نفسي ... اشعر بيبوسة في
أنامني ...

— ولكن هذا ناتج عن عملي المرهق يا زياد ، انت

تعمل دائماً وكثيراً ، ولا تترك مجالاً لفنك ...

اعترض :

— لا ... لا ... انت لا تتركين لي مجالاً ...

اتسعت عيناها دهشة ، لكنه اردف :

— ارجوك ريم ... لا تفهمي خطأ ما اقول : لقد ملكت جميع وقتي ... ان اجتماعاتنا المتواصلة تأكل من وقتي ... او بالأحرى من وقتنا ... فانت ايضاً لا تكتين الشعر ابداً ... لماذا ؟ يجب ألا نجتمع كل يوم ... مع ان ذلك يؤلمني ... ولكن لنعمل معاً ... لتكن محاولة ... في سبيل الفن ...

فهمت تماماً حيرته وارتباكته ؛ ان الطائر الحبيب اصبح يملّ وردته ويشعر بالحزين الى سنيه الماضية ؛ انه يريد الانطلاق ، يريد ان يسكر بعير بقية الورود ؛ لم يألف هذه الحياة الهادئة من قبل ؛ لماذا يرهن ايامه الى وردة واحدة ... والورود تملأ الحقائق ؟

انه لا يريد ان يحبها لأنه يخاف ان يزجّه حبه لها في قفص مذهب . انه طائر يحب التحليق ... انه طائر يبحث عن عير جديد ... ليخلق منه لحناً ...

تابع يقول :

— انت يا ريم لا تكتين الشعر هذه الأيام ... لم تكبي شيئاً مذ عرفتك ... هذا مؤسف ...
فعلاً كنت لا اكتب ... ولكن ...

هل اخبره اني ارمي الشعر والفن والدنيا الى الجحيم من اجله ؟ هل اخبره اني اكره الفن اذا كان سيعدني عنه ؟
ما الفائدة ؟

اقتربت منه ، واليأس يملأ عيني ، واشعلت له لفافة ،
وسألته بهدوء ، وأنا أحاول بجهد جبار ان اتمسك بابتسامتي
الباهتة :

— زياد ، هل تريد ان نقطع علاقتنا ؟
— ابدأ يا ريم ... الا تفهمين اني احبك ؟ ولكن ...
لنقلل من اجتماعاتنا ... لتقابل مرة او مرتين في الأسبوع ...
احسست دمي يتجمد في عروقي ؛ انه لا يفهم ان اقتراحه
يدمني ، واني أؤثر الف مرة الانفصال النهائي على هذا
الموت البطيء .

نظرت اليه ، كان ينظر الى يديه ... تأملت في انامله ...
لا ... لن ألعن فنه ؛ احب هذه الانغام التي تنساب من
اصابعه ؛ ولن اكون انانية : سأضحى ، وبقدر الامكان
سابتعد عنه ... :

— زياد ... سأذهب غداً مع رانية الى بيت خالي نقضي
عندهم بضعة أيام

— لا بأس ... ريم ارجو ان تكوني فهمت ان هذه ليست
سوى تجربة ... محاولة ... في سبيل الفن ... كي نتج نحن
الاثنان ...

واقترب مني ، واحتواني بين ذراعيه ، وقال برقة وطفولة :
— ثم تركيني طويلاً ... انت تعلمين أنني احبك اليس
كذلك ؟

تممت ، وقد اغرورقت عيناى بالدموع :

— زياد ... انا احب فنك ... احب الحانك ...
— انت عزيمة يا ريم ... ولكن ... هل تبكين ؟ هل
تبكين يا ريم ؟ ريم ... ريم ... اعود عن كل ما قلت ...
ساراك غداً ... وبعد غد ... وكل يوم ... لا اريدك ان
تبكي ...

حاولت بجهد ان ابتسم :
— لا ... زياد ... لا ... انا لا ابكي ... انه دخان
سيجارتك في عيوني ...

٥

خائفة ...

خائفة ... من رجوع الشتاء ...

خائفة ... في الليالي الطوال ... الطوال ... في ليالي

الصقيع ... من عويل السماء ...

ثلاثة ايام وانا الوب في هذا البيت ؛ ثلاثة ايام وانا
اتخبط في الفراغ ، في الفراغ المليء بطيف زياد ... انه
يعتقد اني في بيت خالي ، وانا هنا وحيدة ... حاولت
ان ادرس واقرأ فرأيته بين السطور ؛
حاولت ان اكتب فرأيته في الحرف ، واني الحرف الا
هان ينوح في اشعاري ...

وحاولت ان اشرد في عالم الموسيقى ، فترنحت الدمعة في عيني ، وصارت تنتظر وقف الايقاع ، لتتهالك صرعى على اصفرار الحدود ...

انا خائفة ...

لقد عاد الشتاء ، وانهمرت الأمطار هذين اليومين مع دموعي ؛ وكأن الطبيعة أرادت ان تشاركني ألمي ، فزادت في اضطرابي ويأسي :

ان الأمطار ترسم ... وتضيّق حدود وحدتي ، والعاصفة تخيفني ، والرعود توقظ في نفسي شعوراً حزيناً ، حاجة ملحة ويأثسة الى الهرب ، الى الاختباء بين ذراعين قويتين ... انا في حاجة الى زياد . انا في حاجة الى رجل يقيني العاصفة ، والرعود ، والدنيا ... انا خائفة ... ووحيدة . حاولت عبثاً ان اخمد الصوت الذي كان ينخر اعماقي : « يجب ان تبتعدي عنه ... انه لا يحبك ... »

ولكن .

الم تكن هذه الفترات الجميلة التي قضيناها معاً سوى هو بالنسبة اليه ؟ والوعود التي اضاءت ، واشعلت قلبي ، اكانت وعوداً ككل الوعود ؟

نعم ... كل ما قاله لي وكل ما وشوشه في اذني ... كل شيء لم يكن الا ... كلمات ... كلمات ... كلمات ... كلمات عطرت وحدتي ... كلمات زينت فراغي ...

كلمات بنيت منها وجوداً ... كلمات لم يفهمها هو ...
كيف لم يشعر بأنني احيا الوعود ... واهوى الكلمات ؟

مرت ثلاثة ايام ... مرت ثلاثة دهور ...
وارتميت على الديوان الأخضر يائسة ؛ يجب ان اخبره ،
لم اعد استطيع الانتظار ... يجب ...
وفجأة اخترق صوت الرعود زعيقُ الهاتف . ارتجفت .
لا ... لا اريد ان احدث احداً ؛ ولكن هذا الرنين مخيف ...
ركضت نحو الآلة ورفعت السماعة مترعجة ، واغرورقت
عيوني « بالفرح » وانا اسمع صوته :

— ريم ... يا اهلاً ... متى عدت من بيت خالك ؟ هل
انت مشتاقة الي بقدر استياقي اليك ؟
لم ارد ، فقد لحم الفرح لساني .
— ماذا بك ؟ الست مشتاقة اليّ ؟

ضحكت . وانطلقت الكلمات من فمي ، مسرعة ، ناعمة :
— اذا كان الشوق مرضاً ... فانا في حالة خطرة ... واذا
اعتبرناه عذاباً ، فانا في اعماق جهنم ... واما اذا كان أملاً ،
فقد عشت لهذا الامل ... اين انت ؟

ضحك بدوره :
باقية في البيت ؟ سامرٌ بك حالاً ...

— هيا اخبريني ، ماذا فعلت في هذه الأيام الثلاثة ؟
اقتربت منه بطفولة :

— زياد ... انا لا استطيع ان افعل شيئاً وانت بعيد عني .
شعرت بأنه تضايق من كلماتي :

— ما هذا الضعف ؟ انا لا احبك تأهة ... ضائعة ... لا
تربطي حياتك وشخصيتك برجل ... لا تكوني ضعيفة ...
— انا لست ضعيفة ... ولكنني احبك ... احبك يا زياد
— وانا احبك يا ريم ، ولكنني احبك بعمق ، وحبك
كنت جنوني لا يقدر شيئاً ... ويمنعك عن تذوق الحياة ...
انت لا تحبين بفن !

— ولكن يا زياد ، لا معنى لوجودي دونك ... وجودي
تافه !

تأجج غضبه :

— لماذا ... لماذا ...؟ ومن اكون انا ؟ انا رجل ككل
الرجال ... انا رجل عابر في حياتك ...
احسست بطعنة خنجر في صميمي ؛ « رجل عابر » هذا
الرجل العابر ... ليته يدري انني افديه بعيوني !
تابع :

— ضعي هدفاً لحياتك يا ريم ... أدرسي ، اكتبي ...
اكتبي ... هل تريدان ان تكوني امرأة عادية تتزوج وتنجب
كل سنة طفلاً ؟
— ولكنني امرأة عادية يا زياد ...

قال محتدماً :

— اذن تزوجني ! لماذا ترفضين ألفريد ؟ لماذا ترفضين
هذا الثري اللبناني الذي يطلب يدك ؟
كيف لا يفهم انه محور حياتي ، واني لا استطيع ان
اثبت وجودي الا بين ذراعيه ؟
وهذه الحملة : « رجل عابر » !

يا لها من طريقة مهذبة يشرح لي بها اني انا العابرة في
سجل مغامراته :

— اريد صالحك يا ريم ... اريدك قوية ... انت خلقت
كيما تكونين فنانة ؛ لماذا لا تكتبين ؟ هل نضب نبع الهامك ؟
استفيدي من مواهبك ، اكتبني ... استثمري حروفك ...
ضحكي من اجل فنك ، واجعلي من الفن حياتك لا من الحب !
الحب ! الحب عاطفة سخيفة ، وزائلة ...
— انت لا تحبني !

— لا تفهمي كلامي خطأً ، ارجوك ! انا احبك حباً
عميقاً ، عميقاً جداً ؛ ولكن هذا الحب الذي تتحدثين
عنه ، انا لا اوّمن به اصلاً ... ! يا ريم ، الفن وحده يخلد
وكلّنا الى زوال ، الفن يبقى بعدنا ؛ لكن الفن يحتاج الى
تضحية ؛ انا احب في ... حاولي ان تفهميني ؛ انا مطارد
صور وصياد انعام ... الفن بحاجة الى مواد اولية ، وانت
لا تقدرين ذلك ؛ ان حبك الجنوني يحد من حريتي كفنّان ...
انا احبك ، ولا اريد فتاة غيرك ... مطلقاً ... انا معك

دائماً ... ولكن ... ارجوكِ ... افهمي في ...

قضيتُ ليلي مسهدة ، أتقلب في سريري . ان زياد يضيق
بجي ، انه بحاجة الى وجوه جديدة ... الى « مواد اولية ! ... »
انه يأتي اليّ دائماً ، لا لأنه يحبني ، ولكن لمجرد انه
بحاجة الى امرأة ... وانا ... انا ... يا انا ... انا امرأة ،
يعرف انها دوماً في انتظاره ؟!
وشعرت بشي من الذلّ .

*

عودت نفسي الاّ أراه كل يوم ، وبالعادة يسهل المقصود :
ولكنني اصبحت اتألم من وجهتين : لانني لا أراه دائماً ،
واتألم اكثر لان نفسي تقبلت ذلك ، وتعودته !

ارتيت في احضان المجتمع ؛ صرت ارافق ليلي الى
السينما ، وألبي دعوات الصديقات الى سهرات في بيوتهن ،
وارافق احياناً ناديا الى نادي الشرق ، حيث الهى نفسي
بلعب الورق ...

ولكن ... في الحقيقة ، كان هدفي من كل ذلك ان أسترد
نوعاً ما مبعثرات قوتي وان استثير زياد . كنت اذهب الى
السينما لأخبره عن « فيلم » جميل شاهدته ؛ واسهر مع
الأصدقاء ، واعتني بمظهري وشكلي لعلمي ان احدهم سيخبره

في اليوم التالي انه رأني في تلك الحفلة ، او في النادي ، واني كنت جميلة .

نعم كان كل هدي ان اثير غيرته ، لكنني لم انجح ؛ على العكس ... لم يبال وكان يرحب بنشاطي الاجتماعي !
واشقائي عدم غيرته ...

لا ... لا ... ليست ثقة عمياء تلك التي تجعله غير مبال ...
الست جميلة ؟ الست مغرية ؟ الست شابة ؟ الست زهرة يحوم
حول عيرها الرجال ؟
ثقة عمياء !

هذه الثقة العمياء تثير نقمتي ... وتستفز غروري !
هل اخون زياد لانتقم من ثقته القاتلة ؟ ولكنني بذلك اكون
قد انتقم من نفسي ... لا منه ...
لماذا لا يغار زياد ؟ لماذا ؟ انه حتماً لا يحبني ... ولن
يحبني الا اذا فقدني ... لانه ، يومها ، سيتعرف عليّ ؟
بلى ...

يجب ان اتركه ... لأبقى معه ...

*

واستيقظت ذات صباح على صوت دنا :
— آنسة ريم ... رسالة ... وصلتك الآن من خطيبك
— خطيبي ؟
عجبت ؛ لماذا يتذكرني ألفريد الآن ؟

وجلستُ في فراشي ، أمزق الغلاف ، لاقرأ بالفرنسية :
» ريم ...

انا في مزيد الشوق اليك ... الى رانية ... والى شمس
دمشق . وبما ان الدروس ستتوقف في الجامعة بعد اسبوع
لمناسبة اعياد الميلاد ورأس السنة فقد فكرت ان أقضي العطلة
معكم في دمشق . هل انت باقية في دمشق ؟ اكتب لي في
اسرع ما يمكن ؛ هل انتم بحاجة الى شيء من هنا ؟ قابلت
خالنا سمير ويظهر انه لن يعود قبل شهرين او ثلاثة ...
وهو يهديكم السلام .

سلامي الى الجميع ؛ قبلاتي لك ولرانية .. وانا .. احبك ..
ألفريد ...

ذهلتُ !

هذه الكلمات المقتضبة تحمل معاني ومعاني ... لماذا يريد
المحبي الى دمشق ؟ ليرى خطيبته ؟ انا لست خطيبته ! وهل
هو فعلاً يحبني ؟ لماذا ؟ وكيف يحبني ؟
ودخلت رانية مسرعة :

— ريم ... ماذا يقول ألفريد ؟

— يقول انه بشوق اليك ...

سألتُ بطفولة :

— اذن ... لماذا لا يأتي اليّ ؟

غرس سؤاها البري في قلبي حيناً الى ألفريد ؛ لماذا لا
يأتي ؟ انه قريبي على كل حال ، ويحمل رائحة امي وذكري

أبي ...

نهضت من الفراش حالاً ، وخططت اليه بضع كلمات
اخبره بأنني دائماً في دمشق ، لاني قد تسجلت في الجامعة ،
واني ورائية وناديا نرحب بقدميه .

وفي المساء ، اخبرت زياد وليلى وكانا عندي ، عن رسالة
الفريد ، فقال زياد ببرود :

— هذا حسن يا ريم ... ربما تتفقين معه هذه المرة
وتتزوجينه ... يجب ان تفكري في مستقبلك ...
جرحتني كلماته !

كيف ... كيف يريدني ان اتزوج غيره ؟ قلت بتحدٍ :
— انا لا اريد الزواج !

فانبرت ليلى تقنعي بان الزواج ضروري لان الأطفال
هم الشيء الوحيد الذي يعطي للوجود معنى ...
ضحك زياد وقال :

— الأطفال ؟ الأطفال اكبر ازعاج في الوجود ... وجود
الأطفال فناء لوجود الأهل ... ! اما الزواج فهو بحد ذاته
انتحار !

نظرت اليّ ليلى تسألني رأيي :
— انا اعتقد ان الزواج مقبرة الحب
التفت زياد الى ليلى وقال هازئاً :

— ان ريم لا تؤمن الا بالحب ! لكنها ستفهم في يوم
من الأيام ان الحب زائل ، الحب سخافة ، وان الفن وحده
يخلد ...

ابتسمت ولم ارد .

انا اعلم ان الفن يخلد ، لكن زياد سيقدر يوماً ما ،
ان الفن بدون حب عظيم لا يكتمل ...

٦

لم يصلني اي خبر من ألفريد في الأيام التالية ، فبت
اعتقد انه عدل عن المجي .

اما زياد فقد تأكدت في الأسبوع الذي سبق الاعياد ،
انه يعتمد ايدائي ، بآرائه وبكلماته ...

ولاول مرة في حياتي لم استطع ان اتخذ موقفاً حاسماً
تجاهه ، فقد ضيعتني تصرفاته المتناقضة .

حاولت ان افهم لماذا يريد ان يقنعني بانه لا يحبني ، لأنه
فعلاً لا يحبني ؟ ام لأنه يحبني ، لكنه لا يريد ان يستسلم
لطغيان هذا الحب ، فيحاربه بكلمات وافعال تجرحني ؟

لم ادر .
وجرّفتني ضياعه ، فاصبحتُ نفسيّتي انعكاس تصرفاته

وابامي صدى وجوده .

وصبرتُ ، آملة ان يجد زياد نفسه ، فاجد حينذاك نفسي .

•

و ذات يوم علمت ان احدى دور السينما تعرض شريطاً
رائعاً ، فقررت ان اشاهده مع زياد ، ودخلت غرفتي ،
اخابره .

ولول الحقد في عيني ، وزمجرة النقرة في شفتي ،
وهرولت سماعة الهاتف تبتعد عن يدي الحانقة ، وتفرقع
في سقوطها على الآلة الجامدة .

« لا ... ليس موجوداً ... سافر اليوم الى بيروت ...
سيعود غداً ... »

كلمات ...

ونبرات صوت كتيب مجهول حملتها الى الأسلاك .

كيف ...

كيف يسافر زياد بعد ان أخبرني قبل يوم فقط ، حين
طلبت اليه ان يصطحبني الى هناك ، انه لا يودّ مغادرة دمشق !
كيف يكذب عليّ زياد ؟ كيف لم يتجرأ على الاعتراف
لي بأنه سيسافر لكنه لا يودّ اصطحابي ؟

كيف لا يفهم ان الكذب سلاحُ الضعفاء ؟ لماذا لا تقف
شخصيته سنداً لتصرفاته عوضاً عن ان يتهرب من التصريح
بآرائه ؟

الا يملك ثقة بنفسه ؟ هل هو ضعيف الى هذا الحد ؟
هل يريد ان يرهن لي ... ان يذكرني بانني امرأة ،
ومعناها في بلدي ، انني لا املك حق التدخل في امور الرجل ؟
وبذلك يعيدني الى حدودي ؟

او ... هل يريد ان يرهن لغروره انه ما زال طائر
مخلقاً ، لا يعترف بحقوق الورود ؟

سافر دون ان يخبرني ، وسيعود غداً ، وسيأتي غداً من
توه اليّ ! انا متأكدة من ذلك . ومن واجبي كامرأة ، ان
ارحب به ، وأقفل فمي ، وكأن شيئاً لم يحدث !
اذن ... انا نعمة اضافها الى نعماته ، ويتسلى بعزفها
حين يلذّ له !

اذن ... انا وتر من اوتار قيثارته يستبدله بآخر حين
يطيب له !

اذن ... انا غصن يغرد عليه الطائر المستهتر حين يشاء ...
اذن ... انا لست سوى انثى !
لا ... لا ... ولا !

انا الألحان بكل تموجاتها ... انا الطبيعة بكل عنفوانها ...
انا الحياة بكل انتفاضاتها ...

انا لست انثى ! انا انسانة صديقة تريد المشاركة ، المشاركة
في كل شيء ، والا ، فلا اريد شيئاً اطلاقاً ...
نعم ...

سيعود اليّ غداً ... ولكن ... غداً ، لن اكون بانتظاره !

وفي مساء الغد خابرتُ ناديا وطلبت منها ان تمرّ بي ،
كحي ارافقها الى النادي ، وبقيت في البيت انتظرها . ورن
جرس الباب ، فخرجت من غرفتي ، اسأل دنا : من القادم ،
واذا بي وجهاً لوجه مع زياد !

– الله كم انت جميلة ! الى اين ذاهبة ؟

قلت بيروء :

– الى سهرة ما ...

– وصلت الآن من بيروت ، وجئت تواء اليك ...

أجبتة بلهجة لئيمة :

– الحمد لله على سلامتلك !

– ماذا بك ؟ ولم هذا اللؤم ؟

لم اردّ .

– اخبريني هل انت غاضبة لاني ذهبت الى بيروت ؟

– انا لا اعاتبك يا زياد ...

– عاتبي ... انا اكره اللؤم . الى اين انت ذاهبة ؟

– زياد ... اعتقد انه من الأوفق ان تكون علاقتنا مجرد

صداقة ، فالأصدقاء لا يتدخلون في امور بعضهم البعض ،

وهذا ما تريده انت ... ان حبي يزعجك ، وانت لا تفهم

الحب ...

انفعل ، وقال بيروء لاذع :

– وانت ؟ هل تفهمين انت الحب ؟ الحب في رأيك ان

يوضع الرجل في زجاجة تخفيها في جيبك ! انت لا تحاولين

تفهم حياتي ؛ وماذا بها اذا ذهبت الى بيروت ؟ لقد طُلب
مني في الشركة ان اذهب ، وكان الطقس حسناً ... فسافرت .
- وهل كان يتعبك ان تخابرنني ؟

- لم افكر في ذلك ... كلها ليلة واراك بعدها . لكنك
تثورين وتغضبين !

- انا لا اثور ولا أغضب ، لكنني اعتقد انه من الأوفق
ان نظل صديقين . مجرد صداقة ...
نطق مغتاضاً :

- كما تريدن ! هل انتهيت من نسخ مقطوعي الأخيرة ؟
- لا ... غداً ...

- اذن ... سأمرّ غداً كي آخذها ...
وانصرف مترعجاً .

*

جلست في نادي الشرق لعب الورق مع بعض الاصدقاء ..
كانت نفسيتي محتدمة ، وكنت اضحك ضحكة عصبية
تزيد في تمزق اعماقي . وكان تفكيري في زياد يلهيني ،
ويمنعني عن الانتباه للعبة .

لقد ذهب زياد الى بيروت فقط ليكيدني ويبرهن لي انه
حرّ ! لماذا ؟

وبين رسوم اوراق اللعب نُفِشت الاسئلة الكثيرة ؛ هل
يشكو زياد من عقدة نفسية ؟ هل احبّ في شبابه امرأة شرقية

غبية ، أسرته ولم تترك له مجالاً كي يتنفس ؟ حتى بات يعتقد
ان كل امرأة شرقية لا يهتمها سوى خنق الرجل بحصارها ،
واصبح يتمسك بحريته ويستमित من اجلها ؟
اخبرني مرة في الصيف ، انه في الماضي البعيد ، كان
يعرف امرأة ويحبها ، وانها كانت تغار حتى من موسيقاه ،
وفنه ! هل هذا منبع تصرفاته الغريبة معي ؟ هل هذا سبب
اعتقاده بان الفن والحرية متلازمان ؟ انا متأكدة من انه
سافر الى بيروت ، لا لأن الشركة طلبت منه ذلك ، سافر
فقط كي يفهمني ، نهائياً ، ان لا حق لي بالتدخل في اموره !
ولكن لماذا ؟

لماذا يعتقد اني اضع الحدود حول حياته ، وانا لم اتدخل
مرة في شؤونه الخاصة ؟ ولماذا تظهر نتائج عقده النفسية
معي انا ؟

وبينما كنت غارقة في افكاري ، اذا بصوت يقول :
— آنسة ريم ... لقد احترقت للمرة الثالثة ، هل تريدن
ان تتابعي ؟

وسألني احد الاصدقاء ضاحكاً :

— اين انت يا ريم ؟ انت لا تنتبهين للعب ؟
قلت في ضحكي :

— معك حق ... كنت أحلم بانني عالمة نفسية عظيمة !
وعاد السؤال :

— هل تتابعين ؟

فاقتربت مني ناديا ، وقالت :
— هل خسرت ايضا ؟ سأشاركك !
ابتسمت .

— نعم ... ساتابع ... والآن سأربح !
وفكرت ؛ ان زياد سيزورني غداً ... سأحاول مرة اخرى
ان افهمه ، والآن يجب ان احصر افكاري في اللعبة .

*

في اليوم التالي لازمني هيجاني النفسي ، فرحت العب
مع رانية . وكنت ابدو جد مريحة ولكن « الطير يرقص
مذبوحاً من الألم » ...

وجاء زياد في المساء ، فادخلته دنا غرفة اختي ؛
وقف على عتبة الباب بحدجني بانظاره وانا ارتدي
البنطال ، واتربع على السجادة ، ابني بيوتاً من اوراق
اللعب ! رفعت رأسي وقلت :
— اهلاً زياد

هزّ رأسه مستنكراً وقال :
— انت طفلة ...!

ضحكت :

— وانت استاذي ... الكبير ...

— هل انتهيت من نقل المقطوعة ؟
انتصبت واقفة دون ان ارد . وخرجت الى القاعة احمل

الأوراق . تبغي ... جدياً ، وجلس يلقي نظرة على النوتات
المسوخة . قلتُ :

— زياد ... ان هذا المقطع لا يعجبني ...
قال متحدياً :

— انت دائماً تنتقدين ! وهل تفهمين انت الموسيقى ؟
— لا ... انا جاهلة بالتأليف ؛ ولكنني كمستمعة عادية
اعتقد انك يجب ان تغير هذه النوتة ... هنا ... ان حدثتها
تجرح سمعي ولا تناسب وبقية اللحن ... على كل حال هذا
رأيي ... وطبعاً رأيي لا قيمة له فانا تلميذتك يا استاذ ...
ظل يتأملني ، ثم طوى الأوراق ووضعها في جيبه .
— لا شك انك طفلة !

وتابع بلهجة هادئة :

— متى سيكبر عقلك يا ريم ؟ متى ستفهميني ؟ متى
ستفهمين حيي لك ؟ متى ستفهمين ان الحب ليس في ان
آتي كل ليلة . واقوم « بسيرناد » تحت نافذتك ... متى
تفهمين ان الحب لا يُقدّر بعدد المخابرات الهاتفية التي
افتحها لك ! انا لا افهم الحب هكذا ... ان حيي عميق !
افهميني ... يزعجني جدّ الازعاج ان اعطي تقارير عن
تصرفاتي ؛ انا احبك ... ولكن لا تحاولي ان تضعي حدوداً
حول حياتي ...

كان يتكلم ، وكنت احاول ان اقارن بين كلماته
وتصرفاتي : أأنا اضع حدوداً حول حياته اذا طلبت منه

الآ يكذب عليّ ؟ وما هو هذا الحب العميق الذي لا يريد
ان يبينه على التناهم والصدقة ؟
حب عميق !

ان هذا الحب العميق يقتلني لانني اتقاسمه مع اثاث بيته !
أفلا يحب زياد مقعده حباً عميقاً ؟ لقد رفض ان يبيعه في
الاسبوع الماضي لانه متعلق به ! وخزائنه ... ومكتبته ...
وفنجان قهوته الكبير !

انه لا يشرب القهوة الا بهذا الفنجان ، ولا يسمح له
بان يتدخل في شؤونه ، وليس بحاجة الى ان يعطيه تقارير
عن تصرفاته !!!
وتابع ضجراً :

— انت لا تطايقين ... اذا لم اخبرك كل يوم فاننا لا
احبك ، واذا كنت تعباً ، فاننا لا احبك ... واذا سافرت
الى بيروت لليلة واحدة فاننا لا احبك ... وتقولين إنك
تفهمين الحب !
فكرت ،

قد اكون انا مخبطة ، ربما انا فعلاً لا افهم زياد ... ربما
هو يحبني ... على طريقته الخاصة ، ربما الرجل في سن
الأربعين يحب بهذه الصورة ...

— انا احبك كثيراً يا ريم ... واريدك ان تفهمي ذلك ...
سألته وانا احاول ان تبدو لهجتي غير مكترثة :
— هل تسهر معي الليلة ؟

تردد قليلاً :

— لست ادري ... هل تودّين ذلك ؟

بقيت صامتة ، فقال .

— سنسهر معاً مساء الغد في مطعم الكزانوفا

— غداً ؟ آه غداً ... ليلة عيد الميلاد

وتذكرتُ أنا منذ اسابيع قررنا ذلك ، وتابع :

— اعتقد انه من الأوفق اذن ان انام باكراً الليلة . واذا

شعر بثقل في رأسي ... ما رأيك ؟

لم الح :

— كما تريد ... اما انا فقد اسهر في نادي الشرق

تمنيت لو يقول ، لو يأمرني ان ابقى في بيتي ، لو يُشعرني

بسيطرته ، لكنه قال بغير اكتراث :

— لا بأس ... الى الغد ...

٧

في نادي الشرق ...
أحاطتني نظرات النساء الفاحصة ... الناقدة ... وعيون
الرجال الملتهمة ...
واقترب احدهم من طاولتنا ، والقى بالسلام على ناديا ،
وجلس الى جانبي وقال :
- انت كل يوم اجمل من اليوم الذي سبقه ...
ثم اردف همساً :
- اليس من الحرام ان تحب فتاة مثلك رجلاً واحداً ؟
شعرت برخصه ... وباشمئزاز ! والتفت حلاً الى السيدة
التي سألتني اذا كنت اريد لعب الورق واجبتها :
« بكل سرور ... » وابتسمت ناديا .

وقفتُ ، وسرت نحو غرفة اللعب ، وانا اشعر بأن
نظرات حاقدة تذيل مشيتي . طبعاً : « اليس من الحرام
ان تلعب بالورق فتاة مثلي ، وترك رجلاً جائعاً يجترّ وحده
تصريحه الرخيص ؟ »

جلستُ وراء الطاولة ، وأخذت اللعب بصورة « اتوماتيكية » ،
لم انتبه مطلقاً لأوراقي ، بل صبيت كل اهتمامي في مراقبة
الأصابع الطويلة الصفراء ، وهي تمتد ... حذرة خائفة ...
مرتجفة ... على الساحة الخضراء ، وكأنها عقاربُ مليئة
بالسم ، تعقص الأوراق ، وتحاول التهام الأموال المتراكمة ،
المغرية ...
ثم تردّ خائبة ...

فيتسرب الأصفرار والامتقاع الى الأذرع ، ليكسو
الوجوه القلقة .

وابتسامة الطمع الشرهة ، تتمايل على وجه واحد من
اللاعبين : الرابع ، ثم تركه ، لتستولي على شفتي آخر ،
وهكذا من وجه الى وجه ، والأصابع الصفراء تمتد
دائماً مرتجفة ... وتعود خائبة ...

شعرت بملل ، وبشيء من الخوف ، وأخذتُ فميلي تحطّ
بين الأصابع ما قاله لي زياد منذ اسابيع :
« كنت أوّمن بمواهبك ... كنت اثق بانك ستصبحين

شاعرة كبيرة ، واكنك تضيعين اوقاتك باللهو ... باشيء
تافهة ، انك تخيين آمالي ... »

وأفتمت من تأملاتي على صوت احدهم يسأل :

– « هل نلعب دوراً ثانياً ... ؟ ؟ »

لا ... لا ... انا لا اريد ان اضيع اوقاتي باللهو . اريد
ان اعود الى بيتي ... اريد ان اكتب ... سأبرهن لزياد اني
قادرة ... قادرة ... قادرة ...

اعتذرت شاكرة ، واتجهت نحو الباب .

وعلى مدخل النادي التقيت بالاستاذ مروان ، وكنت اعرفه
منذ زمن بعيد وقد كان صديق والدي .

مدّ يده وصافحني :

– اهلاً ... يا اهلاً بك ... هل انت ذاهبة الى البيت ؟

– نعم ... وانت ؟

– جئت الآن الى النادي ، ولو عرفت انك هنا لاتي

منذ بدء السهرة ...

حدقت الى وجهه ؛ كنت في الماضي أراه كثيراً عند والدي
ولكنني لم اكن اشعر بوجوده ؛ والآن أتنبه فجأة على جمال
طلعته .

– لماذا تنظرين اليّ هكذا ؟

احمرت وجنتاي ، وتمتمت :

– عفواً ... لم ارك منذ زمن بعيد ...

قال بصوت هادي رزين :

— انا دائماً أراك يا ريم ... واتبع اخبارك ... هل
تأمريني بخدمة ؟ هل تريدني ان اوصلك الى البيت ؟
— شكراً ... سيارتي هنا ...

فكرت ، وانا اخرج من النادي . انه قد يسرّني ان
اجلس مع مروان بضع لحظات ... وابتسمتُ ؛ انا ، ككل
كائن بشري ، معرضة دائماً للاغراء ! ولكن هنا ، في
هذه الحالات بالذات ، تظهر قوة الانسان الذي يصمد ؛
فلا يبيع شخصيته بنظرة ثاقبة فاتنة ، او بضع كلمات
دافئات ...

ثم ، مجرد وجودي مع شخص يعجبني ، يبعثني خطوة
عن طيف زياد ، وانا اريد ان ابقى متلاشياً في طيفه .
ان زياد نائم الآن .

كم وددت لو أراه ، فأخبره ، مستجدية كم انا بحاجة
اليه ، ليحميني من النظرات الملتهمه ... من الأصوات الهادئة
الرزينة ... ومن الأصابع الصفراء ...

كم انا بحاجة اليه ليقول لي اني جميلة ، وانه يريد ان
يحافظ على جمالي له ... فيحيطه باسوار غيرته ...
ولكنه تعب ونائم وقد ازعجه لو مررت به .

وكالعادة ، قدتُ سيارتي ، واخذت الطريق الذي يمرّ
من امام منزله . كان دائماً يلذّ لي ان امرّ امام منزله حتى
لو كان هو ، الى جانبي في السيارة .

وفجأة ، بلحت سيارتي بقلمي !

اين سيارته ؟

إنها تنام كل ليلة هنا ، امام الرصيف ... لا بد ان زياد
قد خرج من البيت . واول فكرة تبادرت الى ذهني هي
انه قد ذهب الى بيت اخته ، او الى بيت بعض اقربائه .
اذن لقد شفي من ألم رأسه وأستطيع ان أراه دون ان
ازعجه ! يا الهي كم اودّ رؤيته ... ستسرّه المفاجأة حتماً .
كم اودّ ان أراه لأخبره فقط اني احبه ...

كيف أفهمه اني بحاجة ملحة الى عطفه وحبه ورعايته ؟
يجب ان أراه الآن ، لارتمي بين ذراعيه ، لأبكي على كتفه ،
وأشعر بنفسي صغيرة ، طفلة ، في احضانه ... هل انتظره
امام بيته حتى يعود من سهرته ؟ هل اعود الى بيتي ... واخبره ؟
وقدت سيارتي ، وقلق الفرح ، وتساؤل الانتظار بملآن
نفسي ...

وصلت الى منتصف الشارع . لا ... لن أستطيع ان
اذهب الى بيتي دون ان ارى زياد ، ان دخول بيتي يخيفني .
سأعود اليه ، سأنتظره امام بيته ، مجرد رؤيته يشعرني بأمان ...
انا خائفة ... يجب ان أراه ... ان تقمي عليه في غير موضعها ؟
وماذا بها اذا ذهب الى بيروت دون علمي ... ماذا بها ...
ماذا بها ؟

وكنت غارقة في حديني مع نفسي ، واذا بانظاري
تسمرّ على سيارة صغيرة رابضة هناك قرب الرصيف في

شارع الصالحية .

عجبتُ ... ماذا يفعل هنا زياد ؟

ماذا يوجد في هذا الشارع سوى علب الليل وبعض
المطاعم ؟ ولكن زياد لا يرتاد هذه الأمكنة ، ربما اخوه
او احد اصدقائه قد دعاه الى هنا ...

وراحت عيوني تبحث في العناوين المضاعة ، علّها تكتشف
فيها ايجاءً .

وصفقت أهدابي لعنوان « الكزانوفا » ، وشعرت
بسرور ؛ سأتي غداً مع زياد الى هنا ؛ لقد اخبرونا أنه
مطعم جميل ، وقد رفض زياد ان يرافق أخاه اليه ، قائلاً
إنه يريد ان يسهر فيه لأول مرة معي ...

وابتسمتُ ، كيف اعتقدت ان زياد لا يحبني ؟
وفجأة ...

جمدت الابتسامة على شفاهي ، واتسعت عيوني ،
وصعقت ... مذعورة !

كان زياد يخرج من المطعم ذاته ، ولم يكن الى جانبه اخوه ،
ولا صديق من اصدقائه ... بل فتاة جميلة لا اعرفها ...

نعم ... كان الى جانبه وجهٌ جديد !

امتعق حين شاهد سيارتي ، ثم اقترب ، وانحنى على
النافذة ، وقال بصوت خافت :

— اهلاً ... انت هنا ؟

لست ادري حتى الآن كيف استطعت ان احتفظ

بابتسامتي ... وهدوئي ، وقلت :
– اني عائدة من نادي الشرق ، ما هذه الصدقة ؟
قال متعجباً :
– لكنك مبكرة ... الساعة الحادية عشرة والنصف ...
هل تريدان ان اعرفك بالآنسة ؟
قلت بسخرية
– اذا اقتربت ...
ناداها ...
فتبخرت صوبي ... وانحنت بدورها على النافذة . قال ،
وخيل اليّ ان صوته غدا شريطاً شاحباً :
– الآنسة سوزان ... الآنسة ريم ...
من اول لمحة تأكدت انها حلوة . قلت ببساطة تامة :
– اهلاً وسهلاً ... لقد سمعت بانك جميلة ، ولكنك
اجمل مما وصفوا ...
رفرفت أهدابها بصورة مصطنعة ، وهزت رأسها بغنج ،
فتطايرت خصلات شعرها القليل ، وجاءت ابتسامة مدروسة
تشدّ شفتيها الجميلتين ، وقالت بصوت حاد رفيع ، زعزع
من ثباته غرورُ الثناء :
– اشـ ... اشكرك ...
تابعتُ بصورة طبيعية جداً :
– هل تسمحان بان اوصلكما ؟
أجاب زياد :

— سيارتي معي يا ريم ...
— اذن ... تصبحان على خير ...

وابتعدتُ .

وحالاً ...

انهارت اعصابي ... شعرت بالدنيا كلها تدور ... تدور ...
امامي ، وشخصت عيوني ، ولم استطع ان احوّلها عن هذا
الدوار الأسود المخيف ...

واخذت ساقي ترتجفان بصورة هستيرية ، حتى ان
سيارتي صارت تقفز قفزات غير منتظمة ... وكنت عاجزة
عن لجمها !

لم استطع ان ابكي ... لم استطع ان افكر ... بل كنتُ
اتحمل بصورة طوعية ارتجاف جسدي كله ، واتألم من
تفجر ذراتي ، اسي ومرارة ...

وددت لو انني متّ ... متّ في تلك اللحظة ...
لا ...

لن اعود الى بيتي ! سأذهب ... سأذهب ... لست
ادري الى اين ... يجب ان اهرب ... ان ابتعد بأية طريقة
عن هذا الدوار الذي يكاد يبتلعني ...
سأذهب ... ولكن ... الى اين ؟

هل اعود الى هذا الرجل الرخيص في النادي ، لاهمس
في اذنه بدوري ، انه على حق ، وانه من الحرام ان تحب
فتاة ... رجلاً واحداً ؟

اين مروان ؟ لماذا لم ابق معه ؟ انا لست قوية ، بل غبية
لاني صمدت امام اغرائه ! هل اذهب اليه الآن لارتمي
بين ذراعيه ... سكرى ... مخمورة ؟

ما همّة اذا كان سكري بالخمرة ... ام بالألم ؟
الى اين اذهب ؟ وقد سُدت الأبوابُ في وجهي ،
وازدرد كل آمالي ، هذا الدوار الأسود المخيف ؟
لا ... لن اعود الى البيت ... يجب ان اهرب ...
وادت المقود ، وبصورة لا شعورية ، عدت في الطريق
نفسه . وحين وصلت الى مفرق شارع بيروت اذا بسيارة
تتبعني ... تقترب مني ... تلامس سيارتي ؛ خففت السرعة ،
واذا برأس زياد يطلّ من النافذة ويسأل بصورة طبيعية :
- الى اين ذاهبة من هنا ؟

جاءني صوته بعيداً ... بعيداً ... من وراء القبور ...
فحملت به ، لم أر تقاطيع وجهه ! اين زياد الذي كان
يحميني ؟ هذا الرجل غريب ... لماذا احدثه ؟ اين زياد
القديم ... كي اهرب اليه من هذا الرجل ؟

وتعجب من تعابير وجهي الغريبة المروعة ، فاعاد سؤاله :
- ريم تمهلي ... الى اين ذاهبة ؟

اجبت بصوت مثلج :

- لست ادري ...

فهم ... فانقلبت سحتته وقال :

- انتظري ... انتظري لحظة ...

واوقف سيارته الى جانب الرصيف ، ورأبته بسرع صوبي ؟
 لماذا انتظرته ؟ لماذا لم اهرب ؟
 الانني ضعيفة ؟ الانني كنت متلفة الأعصاب ، وبحاجة
 الى احد يأمرني فاتبعه دون ادنى مقاومة ...؟
 الانني فهمت انني لن اجد الدواء ، الا في سبب الداء ذاته ؟
 ام لانني اردت ان اقنع نفسي بان زياد الذي احب ليس
 زياد الذي شاهدت هذه الليلة ؟
 لماذا انتظرته ؟ لست ادري ...
 وفتح الباب الأمامي ... وكان الى جانبي :
 — ماذا بك يا ريم ؟
 تجسمت اللوعة في وجهي ، ولم يسعني الا ان اقول :
 — اهكذا ... اهكذا ... يا زياد ...
 — ماذا بك يا ريم ...؟
 ورحت اهز رأسي والحسرة تقطع صوتي ... :
 — اهكذا ... اهكذا ...؟
 — ماذا ؟ قولي ماذا بك ؟ ريم ... قولي ما بك ؟
 — كذبت عليّ ... لماذا ... لماذا يا زياد ؟ لماذا كذبت
 عليّ ؟ لماذا لم تخبرني ؟ لماذا كنت تمثل طيلة هذه الأيام ؟
 لماذا ؟ لماذا يا زياد ؟
 كانت لهجتي آسفة لا معاتبة ، وكان ينظر الي مرتاعاً ...
 قال بسداجة :
 — ريم ... ريم ... انا لم اكذب عليك ... هل أزعجك

انك شاهدتني مع سوزان ؟ هل ازعجك ذلك ؟
- ليتني متّ قبل ان أراك تلوس حينا ... ليت الأرض
ابتلعني يا زياد ...

كان صوتي يبكي ... كانت كلماتي تبكي ... كان وجودي
يبكي ... لذلك خجلت عيوني من تفاهة دموعها ... فجفّت !

- ليتني متّ قبل ان أراك تقتل هذا الحب الذي سقيته
من مآقي ...

اختلجت عيناه ، وتهدج صوته :
- ارجوك ريم ... حبيبي ... لا تقولي هذه الكلمات
ريم ... لم اتخيل لحظة انك ستترعجين ... ريم ... استمعي
اليّ ... كانت تنتظرني ، وطلبت مني ان أرافقها الى المطعم
لأنها لا تؤد ولوجه بمفردها ولا تعرف هنا احداً غيري ...
صدقيني ... لم اكذب عليك ... لم اكن ادري انها في انتظاري ..
هل تريدن ان نذهب اليها الآن ونسألها ؟ والله يا ريم ... لم
أقدر اني قد اسيّ اليك ... ريم صدقيني ... كيف ابرهن
لك عن ذلك ؟ هل تريدن ان استقيل غداً من الشركة ؟
جمجمت بسخرية حزينة :

- وما الفائدة الآن ما دام حينا قد ولى ؟
- ريم ... اتوسل اليك ... استمعي اليّ ... لقد اعتبرت
الحادثة طبيعية جداً ، ولم ادري اني قد اوذيك ... اما الآن

غانا اعتذر ... انا فعلاً اعتذر ... ريم ... ريم ...
لم افهم ما كان يقول ... ومرت لحظات ثقيلة ... بطيئة ،
وانا في شبه غيبوبة ، اقود سيارتي على غير هدى .
كانت الدنيا باكملها قصوراً تتحطم فوق رأسي ، وكان
الوجود دواراً يحملي ... يدوّخي ... يرهقني ... ويأبى ...
يأبى ان يُفنيني ...

وكان زياد بجميع الطرق يحاول ان يعتذر حتى انني رأيت
دموعاً تتحدّر من عينيه ، لكنه كان كشخص غريب يتحدث
عن ميت عزيز ... شخص غريب لا اكرهه ، ولكن ...
هل كان بامكانه ان يردّ لي الشخص الذي مات ؟ هل كان
بامكانه ان يصلح الكأس الثمينة التي هشم ؟
لم اشعر بنقمة عليه ... لم اشعر بغضب ... كنت فقط
حزينة ... حزينة ... حزينة الى درجة الجمود ...
حزينة لانني فقدت شيئاً في اعماقي ... شيئاً بريئاً طاهراً
قد اسميه ايماناً ، وطفولة ...

وشعرت فجأة بانني كبرتُ ... واصبحت هرمة ...

— ريم ... يجب ان تعودني الى البيت ... يجب ... ريم ...
ارجوك ... قاربت الساعة الثانية والنصف وانت تعب ...
— ساوصلك الى سيارتك
— وانتِ

– وبماذا اهمك انا ؟

– ريم ... لا تكوني مجنونة ... ساذب معك واطمن
على انك في بيتك ثم اعود ...

– لا ... شكراً ...

واوقفت سيارتي قرب سيارته ، فترل وهو يردد باصرار :
« ساتبعل كي اتأكد من انك وصلت ... »
فكرت الا اعود الى بيتي ... ولكن لم لا ؟
وماذا أجني من الهرب ما دمت لا استطيع الهرب من
عذاب نفسي ؟

وعدت ، وفي عيوني انقاض نظرات شباب ...

*

منذ الساعة الثامنة صباحاً كان زياد عندي . قال ضاحكاً :
– ان صباحك اجمل صباح في الدنيا ... لم اذهب الى
الشركة اليوم كي أقضي يومي كله معك ...
سخرت في اعماقي من كلماته ! هل يعتبر مجيئه اليّ
تضحية كبرى ؟

– انا تحت تصرفك ... مريني بما تشائين ... وأنفد ...
لم اقل شيئاً ، وماذا اقول لهذا الرجل ؟ وهو يعتبر المرأة
دمية من « عجين » ، يؤذيها ، يرميها ، فيمحو معالمها ...
ثم بقليل من الجهد ، يعيدها الى شكلها الاول !
إنه لا يفهم ان نفسي كإناء من « الكريستال » الرقيق ،

تكفيه نقرة جافة كي ينصدع الى الابد ... لا ... انه لا يفهم
ان جهود حياته باكملها لن تعيد الاناء الى نقائه الاصلي !
بقي عندي طيلة النهار يحدثني ، يحاول ان يكون مرحاً ،
يحاول ان يظهر لي حبه ! لكنني في اليوم كنت بحاجة الى
شيء واحد ، ما عاد يملكه : الشعور بانني ربيته الصغيرة ...
الشعور بحمايته !

لم يعد زياد ذلك الانسان الذي كنت اركض اليه لاختبئ
من الدنيا ... من الامطار ... من الوحدة ...
كان معي ، يحدثني ، يدعي حبي ، لكنني لأول مرة ،
وانا معه ، شعرت بنفسي ... وحيدة ... !

وفي المساء ذهب الى بيته ليغير ملابسه : ومع انني اخبرته
انني لن اسهر هذه الليلة ، الا انه اصرّ على ان يبقى معي !
فقررت ان نبقى في البيت .

لبست ثوبي الأسود ، وكان شحوبي يضيفني على وجهي
النحيل لحناً حزيناً رقيقاً ، وكانت عيناها الذابلتان تلمعان
خلف الدموع المكبوتة ، وتبدوان اكبر مما هما ...
تأملت نفسي في المرآة ، وشعرت بحزن ...
لمن هذا الشباب ؟ لمن اعطني بنفسي ؟ الجمال يستطيع
الرفاهية ، ويتطلب العزة ويستحق السجود ، وانا افني شبابي
مع رجل لا يقدره ... ولا يقدرني ...

حاولت طوال السهرة ان اكون مرحة ، ان اتناسى ...
ونجحت نوعاً ما ؛ ولكنى ... حين اقرب منى ... وامسك
بيدي ... وقبلها ... ثم احتواني ، فجأة ، بين ذراعيه ...
شعرت بانزعاج ! شعرت بنفسى مبتذلة ... رخيصة !
لا ... لا ... انا لست لحناً يعزفه حين يشاء ...

كان حبنا « سمفونية » جميلة لا تكتمل الا بالتحام
مقطعها ... اما الآن ... فالالحن الناشزة قد دمرت
السمفونية . واصبحنا ... غريبين !
فقرت من بين ذراعيه ، وعدت الى الوراء واقا اقول ،
بذعر :

— زياد ... زياد ...

— يا ريم ... اما رضيت بعد ؟ انت تحملين الأمور
اكثر مما يجب

— لا يا زياد ... شيء قد تحطم في داخلي ...

— أنت لا تحييني ؟

— ليس هذا مهماً ... بلى احبك ... ولكن ... اصبح
شيء يبعدك عني ... هاوية تفرق بيننا ...
سأل مستعظماً :

— هل ... هل تريدني ان انصرف ؟

هزرت رأسي إيجاباً ...

فامسك كأسه وجرعه دفعة واحدة ، واشعل لفافة وحاول ،
ان يحرق انزعاجه مع التبغ ، لكن وجهه ظل ممتقعاً تعبس ،

في تقاطيعه المرارة والحقد ، وغمغم بلوّم :
- لم تفهميني للأسف ... ظننتك ستصرفين على غير
هذه الصورة ... لكنك خيّبت ظني ... لا ... لم تفهميني ...
تريدين ان تقطع علاقتنا ... على كل حال انا لا الوملك ...
تصبحين على خير ...

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

٨

تمترج روحي احياناً بأنغام العذاب ، فتصبح لحناً يائساً
 يتطاير في فضاء البيت ، يسكب في كل ركن فيه جواً ،
 هادئاً حزيناً ... ويهيم باحثاً بين الحروف ، عن ذراع
 رووف ، يرتمي عليها ... باعياء ...

ولكن الحروف خانتني في ذلك اليوم ، وشعرت بالوحدة
 تمتصّ جراحي ...

خانتني الحروف لأنها لم تثق بحبي لها ... وفي الحقيقة هل
 احببتها انا كما يجب ؟ ألم أهملها من اجل زياد ؟ ألم اسخرها
 جميعها لخدمته ؟ ألم انثرها كلها نجوماً في سماء عينيه ؟

لا ... لم احب الحروف ... ولم ارعها ...! لو احببتها
 لما سمحت لزياد بان يطفئ بريقها ... لو احببتها ، لما

خانتني ...

وتضايقت من وحدتي ، مع انني كنت ادري ان زياد سيأتي اليّ في المساء مع بعض الاصدقاء ، وكان قد تواعد معهم منذ اسبوع على زيارتي ، وكنت اعرف انه لن يتجرأ فيتخلف عن الموعد ...

لكن فكرة مجيئه هذه المرة لم تعطر يومي ، فصرت أروح واجي في البيت ، ارحب بكل طيف زائر ...
وانتفضت من الفرح حين دلفت ليلي الى غرفتي وهي تقول :

— لقد قابلت ناديا في الطريق وقالت انها ستمر بك بعد

قليل ...

ناديا ...

احسسته بشوق عميق اليها ... وكأنني لم ارها منذ سنين وتذكرت جملتها : « في ظروفك الحالية انت لا تفكرين فيّ يا حبيبي ... »

كيف نسيتهما ؟ كيف نسيت انها صديقة امي ، وانها تحمل في نفسها كل الاخلاص للغالية التي تركتني منذ سنين ؟
كيف نسيت انها كانت دائماً الى جانبي ، في احلك أيام يأسني قالت ليلي :

— ان شكلك اليوم يدل على انك شاعرة ... هذه الابتسامة للتأهة الحزينة على شفتيك ... وهذا الشرود في عينيك ...
وبالمناسبة ، لقد رأيت زياد ايضاً ، وقال انه سيأتي في المساء ...

ومن الغريب ان شكله كان يشابه شكلك الآن ... فالضباع
الحزين البائس كان يبدو في عينيه ؛

وضحكت وهي تتابع :

— اتعلمين ... لقد ذكرني منظره اليوم بابن جارتنا
الصغير ... حين توبّخه أمه ...

دهشت من ملاحظتها ، وحملتني كلماتها الى ليلة البارحة ،
حين جلستُ انظر الى البعيد ، وجلس هو بالقرب مني على
الديوان يقول بطفولة :

« اعذريني ... اذا اتيت ذنباً ... اعذريني ... لم يخطر
ببالي ان ذلك قد يؤذيك ... »

كيف انقم على زياد ؟

كيف لا اعذر طفلاً يتوب عن ذنبه ، بل لا يدري اصلاً
انه قد اتى ذنباً ؟ كيف لا اصفح عن طفل يصفعني لامباليا
وهو لا يدري ان يده الصغيرة توجع عيوني ؟
وجاءت ناديا ، فركضت اعانقها :

— ما سبب هذا الحب الفجائي يا ريم ؟
ضحكت :

— انا احبك دائماً ... اما شوقي فهو خط بياني ترسمه
للظروف ! وفي ظروف الحالية — وهذه جملة — انا
مشتاقة اليك ...

التفتت اليّ ليلي وقالت :

— ما هذه الحمل الهندسية ؟ حديثك بحاجة الى ترجمان !

حدقتني ناديا ثم هزت رأسها :
- ماذا في الجو ؟ شوك اليّ لا بد ان له سبباً ! هل
ازعجك احدُهم ؟
تأملت وجهها الهادئ الجميل وعينها الدعجاوتين المبللتين
دائماً :

- لم يزعجني احد ... يا ناديا ... ولكن ... لكنني
حزينة ، لانني فقدت شعوراً جميلاً ... شعوراً بحماية
رجل ...

استنكرت كلماتي ، ساخرة :
- ارجوك ريم ... ارجوك لا تتكلمي عن هذه العواطف
البدائية ! هل تشعر فتاة ذكية ، مثقفة ، بأنها محتاجة الى
حماية رجل ؟ ما هذا الكلام ؟

فانبرت ليلي تدافع عن وجهة نظري :
- ولكن المرأة كي تحب رجلاً ، يجب ان يكون عندها
شعور بأنه يحميها ...

- هذا خطأ ! الحب الصحيح يقوم على التفاهم ، على
التآلف ، ولا يمكن ان نبنيه على الضعف !
- ولكن المرأة ضعيفة يا ناديا

- ابدأ ... المرأة الشرقية ضعيفة لانها ما زالت تن تحت
سلاسل القيود الثقيلة ... لأنها كسلى ، لا تتجرأ بمفردها على
شقّ طريقها في الحياة ... نعم انها كسلى ! انها تمشي وراء
الرجل تتستر بظله للتهرب من مجابهة مشاكل الحياة بمفردها ...

لا ... ارجوك ريم ... هذا ضعف ... انعدام شخصية ...
تمسكت بآراء ناديا ؛

هل انا اتهرب من مجابهة مشاكل الحياة ؟
نعم ... انا اتهرب من كل شيء ، انا اخاف كل شيء ...
انا لا استطيع حتى ان اكتب الشعر وانا بعيدة عن زياد ،
لاني اخاف الوحدة ، لاني اخاف الفراغ ، لاني لا افهم ...
لا افهم معنى الوجود .

نعم هذا ضعف ! لماذا لا اكون شخصيتي بنفسى عوضاً
عن ان تكون حياتي انعكاساً لأشعة عيونه ؟
لماذا لا املأ وجودي بطيفه عوضاً عن ان يتلاشى
وجودي في وجوده ؟

لماذا لا اجد سعادتي في افكاري عوضاً عن ان تكون
سعادتي على شفثيه ؟

نعم ... هذا الشعور بالحماية بدائي ... انه تلاشي للشخصية !
ومع ان النتيجة التي توصلت اليها ليست لصالحى ، إلا
اني شعرت براحة : انا لست بحاجة الى الشعور بحماية زياد
كي احبه !
قالت ليلى فجأة :

- ريم ... اسمعي ... في المذياع ...
فهمت انها مقطوعة لزياد ، وشعرت بارتباك ؛ كنت
لا احب ان تأتي على ذكره امام ناديا وهي لا تحبه ؛ لكنني
قلت بصورة جعلتها طبيعية :

— انها المقطوعة الأخيرة ، وهي رائعة ... عدا مقطعاً
لا يعجبني ...

وانصتنا الى الألحان البديعة التي اعرف . وفجأة احمرت
وجتاي وبرقت عيوني ، وسألت ليلي :
— اي مقطع لا يعجبك ؟ كلها رائعة .
دمدمتُ :

— نعم ... تعجبني كلها الآن ...
وابتسمت بخنان ، ان زياد ككل مرة في الماضي قد
غير المقطع الذي لم احب ...

•

وصل زياد قبل الاصدقاء ، ودخل شارباً ... تأثماً ...
فاستقبلته ضاحكة :

— اهلاً زياد ...

هزّ رأسه بفتور مجيئاً تحتي ، ثم سأل ناقماً :

— الم يأتوا بعد ؟

— سيأتون بعد قليل ...

— ولماذا تأخروا ؟

— وهل يؤذيك تأخرهم ؟ هل يزعجك ان نبقى وحيدين

بضع لحظات ؟

— ولماذا ابقى معك بضع لحظات ؟

— لسبب بسيط جداً ، وهو انه يلذ لي انا ان ابقى معك ...

قال بلهجة طفلٍ حارد :

- لا ... هذا غير صحيح ... لقد قلت ان شيئاً أصبح
يبعدك عني ... فلم النمثيل ؟

ما اردت ان اضعف فقلت مؤكدة :

- فعلاً ... اصبح شيءٌ يبعدك عني ...

اخذ يروح ويحيى مساء ... وجلست انا أراقبه ؛ قال
متندساً :

- لقد تأخروا ...

- وبعد ؟

- لن انتظرهم سوى بضع لحظات واذا لم يأتوا فسأنصرف ...
سألت برود :

- هل يمكنني ان افهم لماذا تحقد ؟

- انا لست حاقداً ... لكن ... يجب ان انصرف فلديّ
بعض الاشغال ...

فهمت انه يكذب ...

وسكت ، انتظر فوراً ان يحقه . ظل يروح ويحيى ثم قال :

- لقد خيت ظني ... يوسفني انك تتصرفين كامرأة

عادية . ظننتك متحررة ... ظننتك تختلفين عن سائر النساء ...

لا ... كلكن نساء والغيرة تقتلكن !

لم تجرحني كلماته بل اثارت نقمتي ؛ وتابع :

- نعم ... نسيتُ انك فتاة شرقية !

فتاة شرقية ؟ ما هذا المنطق ؟ وهل المرأة الشرقية وحدها

تشعر بالكرامة؟ وهل الشعور بالكرامة عيب؟ وهل يريدني
ان اكون كهؤلاء الفتيات الرخيصات الكثيرات اللواتي
تعرفهن في اوروبا ، واللواتي كنّ مثله ، يعتبرن الحب
لهواً ومادة؟ قلت منفعة :

— نعم انا شرقية ... انا فخور بكوني شرقية ...

قاطعني :

— نعم شرقية ... ككل نساءنا الشرقيات ... تعمي
عيونهن الغيرة !

— انا لا اغار ولكنني احب الصراحة واكره الكذب ...

— لا تحاولي تبرير غيرتك ! انت تغارين ... تغارين

من خيالك ... انا اعرفك تماماً الآن ...

يعرفني ! ليتّه كان يعرفني ... ليتّه فهم ان سهرته مع

سوزان جعلتني اشعر بحزن لا بغيرة ... ليتّه عرف ان نفسي

اصبحت كشيء لا ناقمة ...

غيرة ... غيرة ...!

هل يعتقد اني اغار من سوزان او احسدها او انقم عليها؟

هل يعرف ان الغيرة بمفهومها هي الاشمئزاز من نوتة

ناشرة في مقطوعة رائعة ، ثم الأسف على هذه المقطوعة؟

هل باستطاعته ان يقدر ان كلمة كذب بالنسبة اليّ

خيانة ، لأنني اعتبرها تفعيلة خاطئة تكسر ابيات حيي؟

واردف :

— نعم ... مبعث كل تصرفاتك الغيرة

قلت مغتظة :

— انا ككل النساء ، بل اسوأ من جميع النساء ... انا
اغار ... اغار كثيراً ...

— اعرف ذلك ! انت لا تريدين مرافقتي الى بيروت
الا لمراقبتي ... انت لا تخبريني الا لتأكدي من اني في
البيت ... انت لا تودين ان تسهري معي وتبقي معي الا
لتملكي كل وقتي فلا تدعيني أتنفس ...
ذهلت !

اهكذا اذن يفهم حيي الكبير ؟ ان هذا الرجل مريض
نفسياً ، مريض ... مريض ... لاشك الآن ، ان غيرة
امراة شرقية في الماضي البعيد ، كوّنت في نفسه هذه العقدة
اللقبيحة ... انه يهين حيي ... هذا الحب الذي اضحي من
اجله بحياتي ، ويخفض من قيمته ... ويعتبره : غيرة !
انه مريض ...

شعرت بالاسى يمزقني ، ومددت يدي بعصبية آخذ
لفافة ، فصدت المنفضة وأوقعتها .
وعلى صوت ارتطامها بالأرض تنبّهت ، فجأة ، للهجة
جدالنا ؛

اين ذلك العطف الذي كان يهفّ من كل كلمة نقولها ؟
اين ذاك التفاهم الذي كان يغزل اجواءنا ؟ اين ذلك الفنان
النبيل ، وتلك الفتاة المتفانية اللذان كانا يتلاشيان في خيال
واحد ؟

نحن الآن لسنا سوى شخصين عاديين : رجل وامرأة !
رجل ضعيف ، يصبح الجوع في عينيه ! وامرأة تافهة نحقد
وتعاتب وتلوم !

وشعرت بنفسيتي كلها تنتفض ؛ كيف تدهورنا الى هذا
المستوى ؟ انا الملوم ... فزياد مريض ، وضعيف ...
لقد اساء التصرف معي ، وحققت . ولكن هل من
القوة ان احقد ؟ كل امرأة تحقد ، والقلب الكبير ، القلب
النبيل وحده يسامح ... والعفو اقسى على المذنب من
العقاب ...

وفوراً ، انقلبت نفسي وشعرت بحاجة الى الضحك ،
ضحك على انفسنا . قلت :

— زياد ... ارجوك افهمني ...

— ماذا افهم ؟ انك تريدني الاّ اتحدث مطلقاً مع فتاة
غيرك ؟ ان من واجبي ان اغمض عيوني حين تمر فتاة امامي ؟
ابتسمت بهدوء :

— يا سيدي ... انا لم ولن اطلب منك ان تجافي سوزان
او غيرها ... انا لا اطلب شيئاً سوى ان تكون صادقاً معي ...
صرخ محتجاً :

— انا لم اكذب عليك متى تفهمين ذلك ... انا ...
قاطعتُه :

— لننس هذا الموضوع اقرب مني ، اريد ان اقول
لك شيئاً ...

نظر إلي متعجباً ، متسائلاً :

— ماذا ... ماذا تريدین ؟

— لماذا تسأل ؟ اقترب ، سأقول لك ما أريد ...

حدجني ... مستفحصاً ؛ ثم حملته قدماه ، بالرغم منه ..

صوبي . فوقفت قبالة ، والضحك يهزج في عيوني :

— ماذا تريدین ؟

— قبّلي !

ذهل :

— ماذا ؟

— قبّلي !

سأل ، حرداً :

— ... ولماذا ؟

— لانني اعرف انك تودّ ذلك ...

— لا ... لا ... انا لا اودّ ذلك ...

ضحكت من كبريائه وقلت :

— اذن ... انا اودّ ذلك ...

— قلت ان علاقتنا ستكون مجرد معرفة سطحية مجرد

صداقة ... لماذا تغيّرین رأيك ؟ لماذا ...

قاطعته بنخبث :

— انا لا اغيّر رأيي ... ولكن ... هل هناك مانع كي

يقبل الصديق ... صديقه ؟

ومع انه حاول ان يظل جدياً الا انه لم يستطع ان يمنع

أنبساط اساريه ، وغمغم :

— انت لا تطاقين ... انت مجنونة ...

وفي هذه اللحظة انبأنا الجرس بقدم بقية الاصدقاء ؛
ابتسمت . لا بأس ، لن يبقوا طويلاً ، ولن ادع زياد
ينصرف معهم .

سأبقيه عندي ...

سأحمد نار الحقد في عينيه ،

سأبرهن له ... ان فانوسي الأصفر الصغير لا تطفئه
العاصفة ، وسأبرهن لنفسي ... اني قادرة على التناسي ...
وعلى السماح ...

ساحت ... فجرح السماح عزّة نفسي ؛
 وتناسيت الحوادث المؤلمة ... فصار التناسي يحزّ قلبي وكأن
 للذكريات السود افاعٍ سامة ترفض ان اخنقها بالسلوان ...
 وظل زياد يزورني ، لكن ضياعه المتزايد يوماً بعد يوم
 ضايقتني واكد لي أنه لا يحبني ... وصرت انكر حتى عطفه
 الماضي ، وهل كان هذا العطف سوى اهتمام اظهره لي حين
 كنت وجهاً جديداً بالنسبة اليه ؟
 كان يحدثني احياناً باقتضاب عن سوزان التي يقابلها في
 الشركة ؛ وكنت اعلم انه لا يحبها ، ولكنها كانت الوجه
 الجديد الذي قد يوحي اليه بشي ...
 وكنت اشعر ، حين يكون معي ، بأن حرباً تقوم في

اعماقه ؛ كانت عواطفه تتضارب ، لكنه لم يتجرأ على الاعتراف ، بل لم يدرك تماماً سبب ضياعه ...
اما انا ففهمت :

اصبح يشعر بمسؤوليته نحوي وهو يكره المسؤولية ...
اصبح ينوء بحبي الكبير لانه يعتقد ، خطأ ، ان مثل هذا الحب يحد حريته ، وهو يعبد حريته ! ويؤمن ان القوة تكمن فيها ... وان الفن يعظم فيها ...

كل هذه النقاط فهمتها ، ولكن نفسي ابت ان تتقبلها !
انه لا يفهم ان القوة انما هي العمق ، العمق في كل شيء ،
وان سطحية الأحاسيس تجعل الفن سخيلاً سطحياً ، تبقى كساقية جافة ...

انه لا يفهم ان الفن بحاجة الى حب عظيم ليصبح عظيماً
وكالبحر ، كبيراً ، صاخباً ، هادئاً ، ملوناً بالوان السماء ...
ولكنني لم اشرح له الصواب ؛ فانا وحدي لن ادرك ما عجزت دونه تجارب الأيام .
برغم ذلك ،

كان يزورني كل يوم وكأن حاجة لاشعورية تدفعه اليّ ...
وكانت زياراته تؤلمني ، وكأنها قضبان حديدية تسطر
تحت آرائي خطوطاً مؤكدة ، وتنخر جروحي .

كان يسألني احياناً بغير مبالاة :

— ما اخبار ألفريد ؟

— لا شيء ... لم يكتب ...

فيقول :

— انا واثق من انه لن يأتي ...
وتجرحني كلماته ، وأعصّر على شفتي وكأنني احاول
هرس الالهانة بأسناني ...
واغير الحديث .

وفي ذات مساء جاء اليّ ، وكنت اعلم انه لم يأت إلاّ
لأخذ كتاب نسيه عندي :
— اتريد قهوة ام شاياً ؟
— شكراً ... ليس لدي الوقت الكافي ... مررت لاراك
بضع ثوان ... فأنا مدعو عند صديق لي للعشاء ...
— كما تريد ...

وجلست ، احاول باحاديث تافهة ان اخفف من ثقل
الجو الذي يلفنا ؛ جوّ نسجه ضياعه ... ويأسي ... ودخلت
دنا تقول :

— آنسة ريم ... وصلت برقية ...
امسكتُ البرقية بيد مرتعشة ، وقرأتها بصوت مرتفع :
« سأكون في بيروت في السابع من كانون الثاني وسأقيم
معكم بضعة اشهر ، قبلاتي لرانية ولك ...
ألفريد »

وقعت كلمات البرقية علينا وقوع الصاعقة !
ألفريد ... في السابع اي بعد خمسة أيام ؛ قلت متهمكة

والابتسامة الصفراء ترم شفتي :

- نعم ... انتهى كل شيء ...

غمغم بانزعاج :

- ولكن ... بضعة شهور ... لم نكن نتوقع ذلك !

كان المفروض ان يأتي لبضعة أيام !

وامتقع وجهه ، ثم ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة وقال :

- ارجوك ... الآن ارحب بفنجان من القهوة !

سررت قليلاً لانزعاجه ، ورحبت بقدوم ألفريد لعلمي

اني سأقاطع زياد ...

هذه القوة التي لا اجدها في نفسي ، قد اجدها في

الظروف التي ستحيطني ...

وانتهى من شرب القهوة ، فانتصب واقفاً وهو يقول :

- لا بأس ... لا تتزعجي ... دعي الأمور تسر في

مجراها الطبيعي ... هذا قدر ...

وجهه الى هذه الكلمات ، لان غروره ابنى عليه ان

يعترف بأنها موجهة الى نفسه ؛ وهز رأسه ... ومشى

متثاقلاً نحو الباب ...

وقفت وحيدة ، واشعلت لفافة ، ثم اخذت ادور على

غرف بيتي . سيعود ألفريد ، سيرى البيت مثلما تركه منذ

سنين ، ولكنني أراه تغير كثيراً : هذا المقعد الأخضر ،

مقعد زياد ... وهذه اللوحة التي يحب ... وهذا الفانوس

الأصفر في فجوة الطاولة السوداء ، في الركن ... هذا الفانوس
الذي ظل وحده واعياً اجمل أيامي ...

والقيثارة ؟ لقد اعتنيت بها وكأنها طفلي وحبيبي وامي ...
كل هذه الاشياء مرتبطة بزياد ، وزياد بعيد عني ...
شعرت بنفسي وحيدة ؛ ناديت رانية وضممتها الى
صدري ؛ سيعود ألفريد ، سيحمل اليّ الامان ، وسيرد
لي كرامتي التي جعلت منها لعبة في يديّ زياد .

لا ... لن اعترف له بشي ؛ سأحاول ان اجد فيه الصديق
والرفيق ؛ يا مرحباً برجوع ألفريد ؛ انه يعود في الوقت المناسب .

قاربت الساعة الثامنة ، فوحت غرفتي ، احاول القراءة .
ولكن انفعالي الداخلي منعي من تفهم اي شي ، وسرح
تفكيري الى البعيد ؛ سيعود الرجل الذي يحبني ، وسيذهب
الرجل الذي احب !

وابتسمت بسخرية ، ورددت بيت الشاعر بصوت مرتفع
منعي من سماع طرق خفيف على الباب :
« جننا بليلي وهي جنت بغيرنا ... »
وانتبهت لدخول دنا ؛ قالت بتعجب :
— هل تحادثيني ؟

ضحكتُ :

— لا ... احادث نفسي ! ماذا تريدن ؟

— الاستاذ زياد في القاعة ينتظرك ...

— زياد ؟

اسرعت اليه :

— لماذا لم تخبرني انك ستعود ؟

سكت قليلاً ... ثم قال :

— لانني لم اكن ادري انني سأعود !

واخذ يروح ويحيي ... بعصية ، ثم وقف وقال :

-- ألا ترحبن بي ؟

ضحكتُ :

— اهلاً وسهلاً بك دائماً ... انت تعلم ذلك ... ولكن ...

في اية ساعة ستذهب الى سهرتك ؟

— سهرتي ؟ آه ... مع الاصدقاء ... لقد نسيت ! ذهبت

الى البيت ودخنت سيجارة ، وعدت الى هنا دون تفكير ...

حقاً ... يجب ان اذهب الى السهرة ... ولكن ... لا ... انا

لا اود ان ارى الاصدقاء ... لا اود ان ارى احداً ...

وفعلاً ...

نسي سهرته ، ونسي حتى ان يعتذر ، وبقي جالساً

على المقعد الأخضر ، يفني افكاره في لفافاته المتلاحقة ...

ويقول بين الحين والحين بلهجة المزاح المصطنع :

— اذن ... سيعود الرجل الثاني ...

فأردّ ضاحكة :

— عرفته قبل ان اعرفك يا زياد ...

واخيراً ، وقد ضايقني ضياعه ، وأتلفني دخان شعوره

في دخان اللفافات ، اقتربت منه ... ورفعت يدي امسح
جبينه ، واحاول ان أمزق غشاء الضياع الذي يحجب تعابير
وجهه . قال

- ريم ... انت على مقربة مني ، لكنني اشعر بأنك
اصبحت بعيدة ... اشعر بأنك شبح يهرب مني ... اشعر
بأنك تسريين من خلال اصابعي ، ولا تستطيع ان افعل
شيئاً وكأنني امسك رمالاً ، ولا تستطيع ضمّ اناقلي ...
لئنه فهم ان الرمال تتسرب من اصابعه لانه لا يملك
القوة والارادة لضمّ هذه الأصابع . وكيف يضمها وهي
عطشى الى رمال جديدة ؟

سوزان ، هي الرمال الجديدة التي ستضم عليها الأنامل
لمدة ... لتفرج حين تجد غيرها ...

وفكرت في سوزان ؛ انها احسن مني . انها جميلة ،
ومثقة ، وتنبؤاً مركزاً مرموقاً في المجتمع ...

انا لم اكمل دراستي ، انا لا اعمل ، وحياتي كلها
ريشة تتقاذفها نظرات زياد ؛ تعلوها الى السماء ، وتقذف
بها الى اعماق الجحيم ...!

ولكن ...

هل يتركني زياد ، انا التي افهمه ، لأن سوزان احسن مني ؟
لا ... لا ...

ليس من الذكاء والقوة ان يحب الرجل امرأة احسن من
التي عنده ؛ فاجمل امرأة في العالم تجد من هي اجمل منها ،

واذكى امرأة في الدنيا تجد من تفوقها ذكاءً ... هي سلسلة
لامنتهية ... بل دائرة لا تتصل وتصعد دائماً ،
الذكاء والشخصية هما ان يعرف الرجل كيف يحتفظ
بالي تناسبه ، وان يضمّ انامله بشدة على الرمال التي
تفاهمت وبشرة يديه ...
وزياد لن يقدر ذلك الا حين يفقدني ...
فبعدي ... كل الرمال ستخدش راحتيه ...
انا مسرورة لرجوع ألفريد ...

*

جاء في اليوم التالي ، وكنت في المطبخ اهبي فنجاناً
من القهوة .
جلس على الكرسي الصغير :
- اتعلمين يا ريم ؟ سافتقد هذا المطبخ الأليف
واردف بعد لحظة ، وكان في صوته لحن حنين :
- ان الأيام التي قضيناها كانت جميلة ...
ثم وقف واقترب مني ، وانحنى يهمس في شعري :
- لم احب فتاة مثلما احببتك ... ان عاطفتي نحوك
غريبة جداً ... غريبة ... لا أفهمها ...
وابتعد فوراً ، وكأن اعترافه ازعجه ، ثم دمدم حزينا :
- بعد مجي ألفريد لن يتسنى لي ان اراك ...

- كيف ؟ انت صديق يا زياد ، هل سأمتنع عن رؤية
اصدقائي ؟

- لا ... انا لن ازورك يا ريم ... انا لا استطيع ...
لا ... انا لي كبرياء ...

شعرت فجأة بكره لألفريد . لماذا يعود ؟ الم اخبره من
قبل بأنني لن اتزوجه ؟ انا لا استطيع ان اتخلي عن زياد ...
انا بحاجة الى عطف ، وزياد هو الذي يستطيع ان يعطيني
مثل هذا العطف ؛ ونسيت ياسي ، نسيت ان زياد لا يريد
ان يحبني بل يحارب حبه ، نسيت شوقه الى الوجوه الجديدة ،
نسيت ذكرياتي السود ، نسيت كل شيء ولم اعد اذكر سوى
ذلك العطف القديم ...

وارتميت مرتعدة بين ذراعيه ، وتمسكت يداي الصغيرتان
بكتفيه ، واغرقت رأسي في صدره واجهشت بالبكاء ؛
ارتبك :

- ريم ... ريم ... لا تبكي ... من يدري ؟ قد تتفقين
وألفريد، وتسعدين ... لا تيأسي ، استقبلي الظروف بابتسامة .
فقد تحمل لك السعادة ...

كم تمنيت لو يقول لي :

« لا تستقبلي ألفريد ... اخبريه انني احبك ... انا دائماً
معك ، ولا يستطيع احد ان يفرق بيننا ... »

لم يقل شيئاً من هذا ، وازداد بكائي ، ولم يفهم :

- ريم ... ارجوك ريم ... ما معنى هذا البكاء ؟ يجب

ان تكوني قوية ، يجب ان تتابعي دراستك ... وتكتبي
الشعر ... لا تقتلي مواهبك باليأس ثم ... حاولي ان تتفقي
مع ألفريد ... ربما سعدت ...

ليته علم ان نصائحه تجرحني ، وانها جعلتني في تلك
اللحظة اكره الفن ... الفن الذي غدا رخيصاً ... الفن
الذي زاحمني وربح حبه ... الفن الذي جعل من هذا
الشخص إنساناً معدوم الشعور ...

ليته شعر بأن هذه اللحظة كانت ملكاً له ، وفهم ان
يأستطاعته ان يتصرف بها وبحياتي مثلما يشاء ...
لحظة لم يشعر بقدرتها ...

فرصة ولت ، ويوم مضى ، وكل شيء الى زوال ...

١٠

— انت تسعين ... انت لا تعرفين كيف تعنين بصحتك !
يجب ان تبقي في فراشك ...
ضحكت :

— انه التهاب الجيوب ، وزكام بسيط ... مرضي تافه
لا يستطيع ان يلزمني الفراش ... ثم ... هل اظل في
الفراش يا زياد ، ولم يبق لنا الا ثلاثة ايام نقضيها معاً ؟
سنشرب « الشامبانيا » وسنسهر كل يوم حتى الفجر ...
قال بغير اكتراث :

— انا مسافر غداً الى بيروت ...
فغرت عيني متزعجة ، ثم تذكرت . قال :
— الم اخبرك منذ اسبوع ان موظفي الشركة كلهم مدعوون

الى حفلة ساهرة في بيروت ... هل نسيت ؟
نعم اخبرني ! وهل انسى خبراً اسعد ليالي ؟
اخبرني . وأبت كبريائي ان اظهر انفعالي وانزعاجي ،
وكيف لا انزعج وانا اعلم ان زياد سيذهب الى السهرة
خصيصاً ليجتمع بسوزان ؟
نعم اخبرني ، وظللت آمل أنه سيضحى بسهرته معهم ،
من اجلي ...

قلت متلثمة :

— اذن ... لن أراك بعد اليوم ؟

تنحى وقال :

— ما هذا الكلام ؟ طبعاً ... طبعاً سأراك ...

غلت افكاري ؛ انا سأذهب الى بيروت بعد ثلاثة أيام
لاستقبال ألفريد ، ما الذي يمنعني من الذهاب قبل هذا
الموعد ؟ مرضي ؟ آراء الأهل ؟
طبعاً يجب ان اهنيء بيتي لاستقبال ألفريد ، ويجب ان
احتمل وجود الاصدقاء عندي هذه الأيام الثلاثة ، ففكرة
رجوع غائب تجمع دائماً أفراد الأسر ...
ولكن ...

ما همني مرضي ؟ ما همني ما سيقول الأهل ؟ ما همني
انتقادهم ؟ لم يبق سوى ثلاثة أيام ... ثلاثة أيام فقط اقضيها
مع زياد ...

لا ... سأرمي الدنيا ... سأسافر الى بيروت ... وليحلّ

الحراب في حياتي بعد ذلك ...

قلت بفرح وطفولة :

- زياد ... الحفلة ستكون في مساء الغد ، سأذهب انا
الى بيروت بعد غد ، ونقضي اليومين الباقيين معاً ...
ورفعت نحوه نجلاوتين زاد في صفائهما سرور الطفولة ،
سيقدر تضحيتي ، سيرحب بفكريتي ، سيفرح مثلي ...
ولكن ...

حلّ الذعر مكان الفرح في عينيّ ، وذهلتُ حين صرخ
في وجهي :

- لا ... لا ... انت مروّعة ! لماذا لا تتركين لي حرية
في تصرفاتي ؟ انت تضعين حولي الدوائر ، تحاولين صياغة
حدود لحياتي ... لماذا تريدان ان تضيق عليّ الفرص الذهبية ..
تفجرت ذرات جسدي بالاسى ، وتقاصت شفّتي ،
وغدت عيوني صلاة ... ورجاءً ... واستجداءً ... :

« ارجوك زياد ... استجديك ... لا تدنس آخر حجر
من هيكلك كبريائي ، رميته عند قدميك ... استجديك ...
لا تحطم هذا التمثال الرائع الذي بنيتك لك في قلبي ...
ارجوك ... كفّ عن الكلام ... لا تدعني أر هذا الاله
الذي عبادتُ ، يهوي الى مستوى احط بالبشر ... ارجوك ...
اشفق على آمالي ... وترفق باحلام سقيتها من عيوني ...
استجديك زياد ... »

لم يحسّ ، ولم يفهم ، وظل يتابع بصوته الفاتر ولهجته

الباردة القاتلة ، وكأن ما يقوله شيء عادي وكلام طبيعي :
- انت لا تقدرين اني فنان ، انك تحطمين في بوضعك
الحواجز حولي ... من يدري ؟ قد تخلق لي الظروف اشغالاً ...
في بيروت ... قد ... قد لا استطيع ان أراك مطلقاً هناك ...
انك تخلقين خطأ كي لا تدعيني أتنفس ... انت انانية ،
لا تفكرين الا في لذتك الخاصة ، يجب ان تفهمي الحياة ...
لكل منا مشاغله ... سيعود ألفريد ، وستذهبن في طريقك ،
فلماذا لا تدعيني اذهب في طريقي ؟

كانت كل كلمة يتفوه بها تهوي كالطرقة على اعصابي ؛
كلمات وكلمات ...

بنت له عرشاً في قلبي فطوّحت به كلماته ، ورأيت
الاله يهوي الى التراب ، ويتحطم ، ويصبح رماداً ...
رماداً قذراً ...

لا ... لا استطيع ان اصدق ! ان زياد غير هذا الرجل
الذي يتكلم ؛ زياد نبيل ، زياد مرهف الحس ... وهذا
الرجل رخيص ... رخيص ... رخيص ...
اردف بنفس اللهجة الفاترة :

- وانت مريضة ، لكنك لا تفكرين في شيء ولا حتى
في صحتك ... الطقس بارد جداً ، يجب الا تغادري فراشك
حاولت بلحظة ان ألمس كل اعصابي ، وبجهد جبار
جمعت فتات ارادتي لاقول بلهجة لم استطع برغم جهودي
ان اجعلها طبيعية تماماً :

– لك الحق ... الأحسن الا اذهب الى بيروت .
ونسي محاضراته القيمة ، ولم يحس بأن كلماته هشمته ،
وقال :

– انتبهى لصحتك يا ريم ... لا تدخني ... ولا تعرضي .
ففسك للبرد . لن ابقى في بيروت سوى ليلة واحدة وسأراك
حال عودتي ... تصبحين على خير يا ريم ...
وخرج من غير اكتراث ، ونظرت الى الباب يطبق ،
ساحقاً اغلى امانى ...

بقيت واقفة ، عاجزة عن عمل اي شيء ؛
هذا الرجل الذي ضحيت من اجله بكل ما عندي ، كان
يجب عليه على الاقل ان يكون مهذباً ...
وفجأة ، اخذت ابكي بكاءً عصبياً ، وارتفع عويلي
وكأنني اردت ان املأ الغرفة والبيت بأساي . كان قلبي
اضعف من ان يحمل وحده هذا الألم ؛
وفي الحقيقة لم اكن ابكي على زياد ... بل على نفسي ...

لست ادري كم من الوقت بقيت على هذه الحالة ، وجاء
الليل بسواده وهدوئه وعذابه يضمني ؛ الليل يضخم دائماً
كل شيء ، ويطول ... يطول على اليائسين ؛ وازدادت حالتي
سوءاً ، وازدادت اوجاع صدري ورأسي ، وجفّ سعالي ،
وزاد في مرضي الجسدي ، كرهني لشخصي ؛ كرهت عاطفتي
لأنها جعلتني رخيصة ؛ كرهت ضعفي ، لأنه ادمى كبريائي .

واذلتني ... كرهت خيالي ، لانه صور لي الحقيقة على غير
ما هي ... وكرهت نفسي لانها تدنت ، وانزلت الحب الى
مستوى مفاهيم هذا الرجل ...

ومرّ عليّ الليل الاليل ؛ كانت ثوانيه طويلة ، ثقيلة ،
مرهقة ؛ كنت اغط في سبات عميق ، واستيقظ فجأة ،
مرتجفة ، مذعورة ، هلعة ...

وفي الصباح ، فتح باب غرفتي ، ودخلت ناديا :
— ما بك ؟ اخبرني دنا انك مريضة ... يا الهي ... ماذا
جرى لعينيك ؟ هل انت تبكين ؟

— لا ... انا مريضة ...

واخترق السعال كلماتي :

— ماذا فعلت بنفسك ؟ هل جاء الطبيب ؟

— لا ... لا اريد طبيباً ...

وضعت راحتيها على جيني :

— حرارتك مرتفعة ...

واقتربت من الهاتف وادارت رقماً وتكلمت ، وعادت
لتقول :

— سيأتي الطبيب بعد قليل ...

— لا اريد طبيباً يا ناديا ...

— ريم ... انهضي ، واغسلي وجهك بمياه باردة ، ثم
اخبريني ماذا جرى ؟

رفعت نحوها عينيّن اضناهما السهد والدموع ، وقصصت

عليها لأول مرة بصراحة تامة الحوادث الأخيرة ؛

استمعت اليّ بهدوء ، ثم قالت :

— ومن اجل هذا تتركين المرض يستولي على جسدك ؟

اين عقلك ؟ اين منطقك ؟

— يا ناديا ... اشعر بأن هناك سكاكين تقطع قلبي ...

— انت تتألمين لاشك ، ولكن ... لا بأس ... الالم

يلور الشخصية ... ستقويك الجراح ، وستصبحين امرأة

ناضجة ، تعرف وتفهم ما تريد

صرختُ :

— ولكنني لا اريد ان اصبح قوية وناضجة ...

— ارجوك ريم ... لا تتكلمي كطفلة غبية ... هذا ضعف ،

وانا لا احب الضعفاء ... هيا انهضي ، واغسلي وجهك ...

يا ريم ، حين يتألم الانسان يعتقد ان مشكلته هي اكبر مصيبة

حلت في الكون ... ومشكلتك انت تافهة ... مشكلتك تجري

كل يوم وكل ثانية في بلادنا

واردفتُ متأسفة :

— هي قصة شرقنا ، ومشكلة شرقنا بكامله ...

نظرتُ اليها متسائلة ، فشرحتُ :

— نعم ... هي قصة الفتاة الشرقية التي لا تعرف شيئاً

من الدنيا ، فتنقاد لعاطفتها ، وتصب حياتها في وجود رجل !

الفتاة التي تحب بكل قلبها وروحها وجسدها ، فتعيش حلماً

لمدة وجيزة ، وتستيقظ فجأة ليصدمها الواقع ... الفتاة التي

نرى حبيبها كما يصوره لها الخيال وعندما يظهر الحبيب على
حقيقته تسحقها المفاجأة ... نعم ... قصتك هي قصة شرقنا ؛
قصة الرجل الذي يعاني الحرمان ...
قاطعتها محتجة :

– ولكن زياد ليس محروماً ... لم يكن يوماً محروماً
هزّت رأسها وقالت بهدوء :

– ريم استمعي اليّ ، وافهمي ما اقول ؛ ان زياد مثال
للرجل الشرقي ... انه ليس محروماً لانه يريد ان يعتقد انه
ليس محروماً ! ان رواسب الشرق تنخر في اعصابه ؛ وليس
ضياعه ، ومغامراته الكثيرة الا نتيجة ذلك ... انه تائه ،
يركض دائماً ، باحثاً عن وجود جديدة ، لانه في الحقيقة ،
لا شعورياً يحاول ان يهرب من نفسه ... يحاول ان يبرهن انه
ليس محروماً ... لانه يعرف ان الحرمان ولد معه وفي ذراته ...
تقولين انه عاش في اوروبا ، كيف أفهمك يا ريم ان حياته
في اوروبا زادت في مرضه ؟ لانه فهم كم يعاني شرقنا ...
فهم ان الحرمان هو مرض رجالنا ... نعم ... رأى ... وفهم ...
وسكتت ، ثم قالت بترفع :

– فهم كل شي ، ولكن للأسف ، لم يفهم ان النبل
والكبرياء يقضيان بأن يكم الانسان جوعه ... حتى لو
كان خائراً ...

ودخلت دنا ، تحمل القهوة ، فاخذت ناديا فنجاناً وقدمته
لي وهي تقول مبتسمة :

— نقد اخبرتك دائماً يا ريم ان مصيبتك هي خيالك
للواسع ؛ دعي خيالك للشعر ، وانظري الى الحياة بمنظار
للواقع ... اشربي قهوتك ، وابتسمي ... هل يستحق رجل ،
ان تمرضي من اجله ؟ ان تيأسي ؟ ان تحطمي نفسك ؟
وزياد ... زياد ... يا الهي ...

— يا ناديا ، لقد اعطاني زياد عطفاً كنت بحاجة اليه ...
صرخت متبرمة :

— اعطاك ؟ واي رجل تعطينه مثلما اعطيت زياد ، ولا
يعطيك عطفاً ؟ انت التي اعطيت ... واعطيت ... والمرأة
اذا اعطت ... لا تأخذ شيئاً ...

هزرت رأسي وقلت بغباء :

— لقد خسرت !

— خسرت ؟ لا فقد ربحت تجربة ومعرفة ... ثم ... لماذا
نتحدث عن الربح والخسارة ، وكأنكما في حرب ؟ انت
لم تختلفي مع زياد ... انها مجرد كلمات رماها دون وعي ...
كلمات حاول بها ، لاشعورياً ، الدفاع عن نفسه ... كلمات
لم يدرك مرماها البعيد ... وهو الذي خسر ... لأنه نسي ان
هناك حليفة قد تركته ... الا وهي ... الزمن !

— هذا كلام يا ناديا ... انا ضعيفة جداً ...

— انت الآن تتألمين ؛ ولكن زياد اضعف مما تتصورين ...
زياد ليس قوياً يا ريم ، ولو كان فعلاً قوياً لما حاول بجميع
الطرق ان يظهر بثوب الشخص القوي ... القوة الصحيحة

تنبع من الأعماق ، وليست ثوباً يرتديه الانسان ! ألا ترين
يا ريم كيف انه يتمسك بأوهام ، وهم الحرية مثلاً ؟ لانه
يعرف انه بدونها ضعيف ... ثقي انه عاجز عن تركك ،
واذا كان لابد من الانفصال فانت التي ستضعين الحد الفاصل ...
— ماذا تقولين يا ناديا ؟ انا ارمي الدنيا لكلمة يقولها
هذا الرجل ...

— نعم يا ريم ... انت ترمين الدنيا ... انت تضحين
بكل شيء ... وانت التي ستركين ... ومن غير سبب ...
خيل اليّ للحظة ان ناديا قد جُنت ؛ واردفت :
— على كل حال انا لست متزعجة من قصتك او آسفة
عليها ... كان من الضروري ان يهزّك بعنف شخص ،
لتستيقظي من ضياعك الدائم ... وتجدي نفسك ...
وفجأة ...

رن جرس الهاتف ! التفت للآلة ، مذعورة ... وتحولت
فظراتي الى ناديا ؛ لماذا سمحت لها بأن تتحدث عن زياد ؟
لماذا اخبرتها كل شيء ؟ لماذا وسخت اجمل ايامي ، لاخفف
من عنائي ... والي ؟
لماذا ...

ان زياد سيحدثني الآن ، سيؤجل سفره ، سيأتي ليجلس
الى جانبي ... ويردّ اللحاف على صدري ... ويضع يده
برفق على جيني ...
وتوالى الرنين ، فطرت الى الآلة ، وسمعت صوته :

— كيف حالك ريم اليوم ؟ لقد التقيت صدفة بصديقنا
الطبيب ، وقال انه ذاهب اليك ، وان حرارتك مرتفعة ...
ارجوك يا ريم استمعي الى نصائحه ، وانتبهي لصحتك ...
انا مُسافر الآن الى بيروت ... ساعود غداً ... انتبهي
لنفسك ...

اجبته بلوّم :

— سأحاول ... شكراً لك ...

وقذفت السماعة على مقعدها ، ونظراتي ترجمها بنيران
اللؤم والحقن والاسى ...

— أهذا زياد ؟ ألم اقل انه لم يجر شي بينكما ؟
زمتُ شفتيّ ، ونظرت الى ناديا والشرر يتطاير من
عيوني !

مجرد سماع صوته يثير فيّ حاجة الى البصق على نفسي ...
... لا اريد ان يُذكر اسمه امامي بعد اليوم !

قررت ناديا ان تقيم عندي حتى عودة خالي سمير ؛
ولم يفارقي الأصدقاء ، وظلت حرارتي مرتفعة ، ونفسي
مهشمة ، طيلة يومين ...

واخيراً ، تمردتُ على مرضي ، وعلى بأسِي ، وقررت
ان اذهب الى بيروت بمفردي لملاقاة الفريد .

وصلت الى بيروت مساء السبت ، وكنت ادري ان زياد
قد تركها في نفس اللحظة التي تركت فيها دمشق اذ ان الثلوج
كانت قد سدت الطريق في اليومين الأخيرين ولم يستطع
زياد العودة في اليوم التالي لذهابه كما كان من المقرر .
وحال وصولي ، خابرت عصام ، وطلبت منه ان يأتي

إليّ في الفندق لنأخذ للعشاء معاً في احد المقاهي الكثيرة
في بيروت .

حاولت ان اقنع نفسي بأنني دعوت عصام لمجرد انه
صديق واني وحيدة في بيروت ؛ ولكن صوت في اعماقي
كان يكذبني ، ويردد بسخرية : « انت ما زلت تريدني
ان تستمعي الى اخبار زياد ... »

وفي الساعة الثامنة جاء عصام ولاقاني بابتسامته الطيبة
المخلصة :

— يا اهلاً ... اهلاً بك ...

— اهلاً بك يا عصام ... انا في مزيد الشوق اليك ...
كيف حالك ؟

— كيف حالك انت ؟ ماذا جرى ؟ انا لا افهم شيئاً ...

— لم يجرِ شيء ... لماذا ؟

حدقتي ، متفحصاً مدى صدقي ، وسأل :

— اين زياد ؟

أجبتة بغير اكتراث :

— لست ادري !

— انت لا تدريين اين زياد ، وتقولين انه لم يجرِ شيء ؟

— وهل تعرف انت اين زياد ؟

— لقد كان هنا البارحة ...

— وهل رأيته ؟

— لا ... كان مشغولاً طوال النهار مع وزير الأعمال ؛

لكنه خابرنى اكثر من عشر مرات ليسألني فقط إذا كنت
اعرف عنك شيئاً ... فقد كان يعلم انك ستأتين الى بيروت ،
وكان يريد ان يراك ...
ابتسمت ساخرة :

— حقاً ؟ الحمد لله انك جهلت قبل الآن اني هنا ...
— أنا متأكد انه قد جرى شيء بينكما ...
— لماذا ؟ وهل اخبرك هو شيئاً ؟
— لا ... لكنني فهمت من اسئلته انه يتألم ... كانت
لهجته غريبة ، وكانت نبرات صوته باكية ... وحين
سأله عنك ، أجابني بالحرف : « يا عصام ... اسأل
ادري ما بي ... المرء لا يعرف قيمة الشيء الذي بين يديه
إلا حين يفقده ... » ولم يعط تفاصيل ، بل رجاني ألا
اتركك إذا رأيتك ...

حضنت افكاري هذه الجملة ، واحببتها :
« المرء لا يعرف قيمة الشيء الذي بين يديه إلا حين
يفقده ... »

تفجرت هذه الحروف في رأسي ، ضياءً ...
وفجأة ...

شعرت بأن زياد فعلاً قد فقدني ، وأحسست براحة
تهبط على كياني ؛ لماذا أنا نائمة وحزينة ؟ قصتي عادية
جداً ، بل تافهة جداً ؛ لماذا أكره نفسي ... واحتقر
نفسي ؟ أنا لم ارحص أبداً ...

انا احببت ... وسموت بعاطفتي ...
ولاول مرة ، شعرت بنوع من الصداقة في نفسي ...
لنفسي ...

لست سوى امرأة احبت ... احبت بكل قلبها وذراتها
وروحها ... امرأة احبت واعطت وضحت وتعذبت ...
وببرهة ثانية ، تحول الاشمئزاز الذي يملأني الى حنين وحنو ،
واحبت هذا الجرح الذي يتزف في قلبي ...
كان عصام يراقبني :

- فيم تفكرين ؟ وما معنى هذه الابتسامة الهادئة ؟ ماذا
جرى ؟ لماذا افرقتما ... ؟ ما عهدت زياد يائساً هكذا ...
بضع كلمات لفظها عصام :

« زياد يائس ... نبرات صوته باكية ... لهجته غريبة ... »
جمعت قليلاً من مبعثرات شخصيتي ، وردت لي الكثير
من هدوئي ...

- اتعلم يا عصام ماذا قال ما كيافلتي ؟ « الفرصة ، امرأة
جميلة ، شعرها يتطاير الى الأمام ، ليخفي تحته عنقها ووجهها
الجميلين . فلا يعرفها او ينتبه لها احد من اللذين تتقدم
اليهم ... وعبثاً يحاولون اللحاق بها بعد مرورها ، لأنها
تلبس في رجلها عجلة ... »

كان عصام يحملني فيّ ، متعجباً ، مستغرباً ، وأراد ان
يتكلم ، فأوقفته :

- اسمع النهاية ، وستفهم ... حين يسأل ما كيافلتي هذه

المرأة الحميلة : « اخبريني ، من هو هذا الذي يتتبع خطواتك ويركض وراء ظلك دائماً ؟ » تبسم ساخرة وتجيب : « انها للتوبة ... لذلك كن حذراً ... فالذي لا يعرف كيف يمسكني لا يحفظ في قلبه غير الندم ... »
هزّ رأسه

— اعتقد انني فهمت ...

— كلنا بشر يا عصام ، والأقوياء بيننا هم الذين يقدرّون الشيء وهم يملكونه ، هم الذين يلتهمون السعادة وهم يعيشونها ، لا الذين يندمون بعد فوات الأوان ... كل لحظة في هذه الحياة تحمل في ذراتها شعوراً خاصاً ، ولها قدرة خاصة ، وتتميز باشعاعها الخاص ، فيجب ان نقدر اللحظة في اللحظة ذاتها ، ان نعطيها قيمتها ومعناها الحقيقيين ... ان نعيشها ، ونختلط بها ، دون ان ننتظر ... لانها تتغير ، فهي ، ككل شيء في الدنيا ، زائلة ...
جحظت عيناه :

— الله ... الله ... الله ... لقد اصبحت فيلسوفة ... والله حكاية ! تختلفين مع زياد ، فيصبح يائساً ، محطماً ... وتصبحين انت فيلسوفة ... هذا شيء مضحك !
ثم سأل بمكر :

— لنعد الى فلسفتك ! هل ... هل تعتقدين ان زياد قد ضيع ... الفرصة ؟

انا ... انا اقرر إذا كان زياد قد ضيع الفرصة أولاً !

اذن ، في هذه اللحظة ، انا القوية ... انا التي اقرر !
لا ... لن اضعف ! قلت بحزم :

— ما بالك لا تتحدث إلاّ عن زياد ؟ سأخبرك اولاً لماذا
جئتُ الى بيروت ... انا هنا لاستقبال خطيبي ألفريد الذي
سيصل غداً في الباخرة

خيل اليّ ان عينيه ستخرجان من محجريهما ، وتدلّت
شفته السفلى ، وجمجم مشدوهاً :
— ألفريد ... خطيبك ؟

— ما الذي يدهشك ؟ انت تعلم ان ألفريد هو خطيبي ...
— ولكن ... ولكن ... لقد اخبرتني من قبل انك لم
تعودي مخطوبة اليه ...

— انا لست مرتبطة به ولكن هذا لا يمنع من انه خطيبي ...!
رفع يده باعياء ، وحكّ رأسه متبرماً :
— من المستحيل ان افهمك ما حييت ...
— هذا ... من حسن حظك ... هيا بنا ... انا جائعة .

١٢

ماذا تحملين اليّ ايتها الأمواج ؟
لماذا تتخبطين هكذا ، وتزججين ؟ ألا تدريين ان الموت
ينتظرك على الشاطئ ؟
مسكينة انت ... ستكسرين ، وتتلاشين عند اقلامي
وكأنك لم تتخبطي في عرض هذا البحر ...
وشعرت بانقباض ؛
اني اشفق على الامواج ، والاجدر ان تشفق هي عليّ ...
انا اتخبط في عواطفي ، انا اكبر ، انا اهرم ، انا ازول ...
وهي ؟ هل تموت فعلاً ؟
انها تُقتل كل يوم الوف المرات ، على الشاطئ ، لكنها
تعود دائماً ... دائماً ... دائماً ... تأنه ، شاردة ، ساخرة

من البشر ، متمردة على الوجود ...
هذه الامواج ستخطّ بعد لحظات صفحاتٍ جديدة في
كتاب زيارتي القصيرة لهذه الأرض ؛
ستخطها بدموعي انا ، لأنها لا تبكي . وهل يبكي من
كُتب له الخلود ؟

وضاعت نظراتي في الافق ؛
نقطةٌ سوداء ، تخرج من العدم ، وتلوح هنالك ، في
البعيد ... وتكبر ... وتكبر ... لتأخذ شكلها النهائي ؛
وارتعتُ :

ان ألفريد على ظهر هذه الباخرة ...
ألفريد ...

وامتلأ قلبي حيناً ، وحزناً ... ان ألفريد وحيد ، مثلي ...
سنعيش معاً ، وسيظل كل واحد منا ، وحيداً ...
سأعاني الملل ، وسيملّ هو ولن نستطيع معاً ان نجعل
من مللينا ، قلقاً واحداً ...

اعز ألفريد ، ومودتي له تؤلّمي ، لأنها ستُخفق ، بالرغم
مني ، في المغناطيسية التي نشرها حولي حيّ لزياد .

لأبت نظراتي ، باحثة بين الوجوه البارزة ، خلف سور
الباخرة ، عن وجه ألفريد ؛ وتعلقت على منكبين عريضين ،
يلفهما معطف « سبور » نبيذي ، وارتفعت مع ذراعه التي
اخذت تلوّح من بعيد ؛ ثم اقتربت هذه الذراع من الفم ،

وطُبع على الراحة قبلة ، نفخها الفريد صوبي .
مددت يدي ، اتلقى القبلة السابحة في الفضاء ، وابتسمت ،
اقتربت الباخرة ... واقتربت ، حتى اصبغت على بُعد
بضعة أمّاتار ، ورأيتُ ألفريد بقامته الحميلة ، يحملق فيّ ،
ويلطم جبينه ، ثم يشير الى شعري القصير ، مستنكراً ...
وينحني عينيه بذراعه !
اخذ البحارة يركضون ، ورأيت العمال يشدون الحبال ...
ويربطونها ...

واختفى ألفريد من وراء السور ، فتوجهت نظراتي الى
السلم ، ورأيتَه يتزل بثبات ، ويسرع نحوي ثم يقف ،
قليلاً ، متردداً ...

ركضت اليه ، ففتح ذراعيه ، وعانقني ، وقبل وجعتي
برفق وقال :

— لم اتوقع ان اجدك هنا بانتظاري ... شكراً لك .

واقترب احد العمال ، يطلبه :

— ارجوك ريم ، انتبهي لهذه الحقيبة ، سأهتم بعملية
تنزيل سيارتي الى الرصيف ...
وتركني .

بقيت واقفة ، احمل الحقيبة ، وانظر بغباء الى ما يدور
حولي ؛ شعرت بحزن ؛ ان الحوادث تمر بي ، تحملني ،
تتقاذفني ، تسخر مني ، وانا لا اندمج بها مطلقاً .
اتحمل سير الحياة بصورة طوعية ، دون رأي ، دون

عمل ، دون انفعال ...

ألأني تركت زياد ، أصبحت أعيش في شبه غيبوبة ؟
الأني تركته ، أصبحت أعيش على هامش الحياة ؟
زياد ؟

هل انتهت فعلاً قصتي مع زياد ؟ اين زياد ؟ وبحشة
عن طيفه ، فامتلاً فكري بالضباب ... وضاع سؤالي ...
ولفّ الضباب كل الصور القديمة ...
وسمعت صوت ارتطام الأمواج على جوانب الباخرة ...
وارتطمت دموعي بالحفون ...

ستمحو هذه الأمواج قصتي من الوجود ، ولكن ...
هل تستطيع دهوعي ان تمحو قصتي في قلبي ؟
والتفت ، لأرى ألفريد منهمكاً مع العمال ، يعطيهم
أوامره ، ويساعدهم في شد الحبال التي تربط السيارة .
أخذت أراقب حركاته ... وتصرفاته ...

تمايلت نظراتي أمام هذه المشية النابضة كبرياء ، ورضخت
للنظرات الثابتة ، الثاقبة ، وابتسمت راضية للشباب الصارخ
في كل كيانه ...

ما أبدع طلعتة ... وما أجمل هذه الأرستوقراطية الطبيعية
التي تظهر في كل حركة من حركاته ...
ليثني ... ليثني كنت أحبه !...

وتنبهت على ان السيارة أصبحت على البر ، ودنا مني
ألفريد يقول :

— هيا بنا يا ريم ...
وجلس خلف عجلة القيادة ، وألقى نظرة باسمه راضية ،
الى وجودي الذي يملأ المقعد الأمامي ، ثم سأل :
— هل نذهب حالاً الى دمشق ؟
— يجب ان آخذ حقيقتي الصغيرة من فندق النورماندي
اولاً ، وبعدها نذهب الى دمشق ، لأن ناديا ورانية والجميع ،
بانتظارنا على الحدود السورية ...
لم يردّ ، ومدّ يده الى جيبه ، وقال :
— لم يعد معي سجائر
— لا عليك ... سنشتري سجائر ونحن في طريقنا الى
دمشق ...

وفي طريقنا الى دمشق ...
— واخيراً ... واخيراً ... انتِ الى جانبي ...
وأخذ سيجارة ، فمددت يدي ، وانفجرت اصابعي ،
متلهفة ، لمعانقة الصديقة البيضاء ، وقلت :
— الا تقدم لي سيجارة ؟
قال بصورة عفوية :
— معذرة ... لم انتبه ...
تأملني وانا اسحب اللفافة ، فأزورها باصبعي ، ثم اقربها
من الشفتين المشوقتين ؛ ابتسم بعطف :
— انت تدخين ...

قلت ، وانا احاول ان تكون لهجتي لامبالية :
— تعلمت اشياء كثيرة في غيابك ...

قال بهدوء :

— علوم التجارب تنفع دائماً ... وكانت تنقصك التجارب
رفعت نحوه عينين معاتبتين ، فاضحكته نظرتي ، وأردف :
— ... واعتقد انها ما زالت تنقصك !

ترأيت لي حالاً اشباحُ قصتي ... قصة زياد ، وشعرت
بالامتناع يكسو وجهي ... فحاولت ان اخفي ارتباكي
وقلقي ، بضحكة ساخرة ، رنانة ...
دمدم :

— لم تتغيري ... يا الهي ... هذه الضحكة ... لقد كانت
دائماً ترنّ في أذني ... والآن ... الآن ... انت هنا ...
تضحكين ... منذ سنتين وانا انتظر هذه اللحظة ...
انزعجت .

هل يحبني ألفريد ؟ كنت اعتقد انه قد نسيني ... كيف
يحبني ، وانا لم افكر فيه مطلقاً كل هذه الايام ؟ لا ... لا
اريده ان يحبني ، لا اريد ان اجرح شعوره ، لا اريد ان
احطم آماله ، لا اريد ان يشكل وجودي خيبةً في
حياته ...

لا ... لا اريده ان يحبني ، فجه يُشعري بانني مذنبه !
— فيمَ تفكرين ؟ لماذا تركتني وحيداً بين افكارك ؟
ابتسمت :

— انا هنا ...

قال بلهجة طفلة :

— ليس من العدل الاّ يجد شوقي اليك ، صدى في نفسك ..
تأثرتُ :

— انا مشتاقة اليك ... ولكن ... اترك لي مجالاّ كي
اظهر لك شوقي ... انا حتى الآن لست متحققة تماماً من
انك الى جانبي ...
ضحك :

— تعاليّ ... اقتربي مني ... فانا ايضاً اكاد لا اصدق
انك ... انت ... انت الى جانبي ...
تصارعت افكاري :

ان ألفريد يطلب اليّ ان اقرب منه ، كما كان يفعل
في الماضي ...

هل ارفض ؟ واجرح شعوره ؟
لماذا لا ادنو منه ؟ لماذا لا ادعه يلف كتفي بذراعه ؟
لماذا لا ادع شفتيه تسكبان حرارة على خدي الممتقع ؟ لماذا
لا ارمي همي وضعفي ، واخفيهما في هذا الشباب المتحمس
القوي ؟ فأجلس الى جانبه ، وننظر بعين واحدة الى الطريق
للامتناهي امامنا ...
دنوتُ ...

فجاءت نظرة عطوف ترحب بي ، وامتدت الذراع
تحيط كتفيّ ...

وتوقف ماراً عن السير ... ونظر إلينا !
ما همني هذا المار ؟ سيرانا الناس ملتصقين على مقعد
السيارة ، وسيتسمون ! لن ينتقلني احد الآن ! لان ألفريد
خطيبي ... لانهم لا يقدرّون انها ندالة ورخص ، ان اكون
بين ذراعيّ خطيبي ، وانا لا احب خطيبي !
لانهم لا يفهمون ان الارتباطات الاجتماعية ليست كافية ،
لتولد منها الأخلاق الصحيحة .

انهم يسيحون لي كل شيء الآن ، لمجرد ان المجتمع فهم
ان ألفريد خطيبي ... ولن يفهم احد ، اني اخون لا زياد
فحسب ، بل اخون نفسي ، ومفهومي للأخلاق الصحيحة ،
وانا بين ذراعيّ ألفريد ...

— خبريني عنك ... خبريني ماذا فعلت كل هذه الأيام ...
اجبته متهمكة :

— حاولت ان اعيش ...
خيل لي ان جملي تكتب على خطوط نظراته الثابتة ،
وتتلاشى فيها ... ثم سأل :

— وهل نجحت ؟
فهمت خطورة الجواب الذي سأعطيه ، فرفعت اكتافي
دون مبالاة ، وقلت :

— الحياة تافهة مهما فعلنا ...
— انت دائماً تنقمن على الحياة ... الحياة جميلة ،
الحياة لعبة يا ريم ... ويجب كي يعيش الانسان ان يعرف

كيف يلعب ...

— لا ... مهما فعل الانسان ، فإنه يبقى اضعف من قدره ...

رماني بنظرة حنون وابتسم :

— نسيت انك شرقية ... تؤمنين بالقدر ...! انا ما

زلت او من بأننا نخلق اقدارنا ...

سكت ... فقال مازحاً :

— وهل السكوت من جملة الاشياء التي تعلمتها ؟ كان

لسانك لا يركن في حلقك ...

اغرورقتُ بالضحك ، واغرورقت عيناه ... بالحنين :

— هذه الضحكة البديعة ... هذه الضحكة دائماً ...

ريم ... انت لم تفارقي مخيلتي قط ... وضحكتك كانت

تورق ليالي

ولحظني ، وقطب وجهه ، معاتباً ، ساخطاً :

— كنت معي دائماً ... ولكن ... كنت معي بشعرك

الطويل : لماذا قصصته ؟ أليس من الجنون ان يقبح المرء نفسه ؟

قلت ضاحكة :

— سيعجبك بعد أيام ... ستعوده .

وضاعت ضحكتي في هدير المحرك ...

١٣

كان بيتي يغصّ بالاهل والاصدقاء ، وكان ألفريد يحدث
الجميع ويضحك مع الجميع ، ولكن عينيه كانتا تصبان عليّ
انا كل اهتمامه ...

واعجبت بحديثه اللائق ، وبصوته الرزين ، وكأني انتبه
لهما لأول مرة .

وحين سمعت جدتي تقول لنا : « رأيت ما اجمل
طلعته ؟ انه عظيم ... عظيم ... » شعرت بفرح ؛ واقتربت
ليلي توشوشي :

— يا ريم ... لو كنت مكانك لتزوجته حالا ... ان
هذا الرجل ساحر ... ساحر ...

كل هذه التعليقات دغدغت غروري ، واطربني ؛

وتمنيت لو يبقى الاصدقاء معنا ، فنظل ضائعين بينهم ،
ولا ننفرد مطلقاً ... ولكن ، حين قاربت الساعة العاشرة ،
ابتدأوا ينسحبون ، واحداً تلو الواحد ، الى ان هداً الجو
ولم يبق سوى ناديا وألفريد وانا .

ومع ان ناديا تعلم بأنني احب زياد ، وان شعوري
نحو ألفريد لا يتعدى المودة ، فقد شعرتُ بثقل وجودها
فاعتذرت بلباقة ، وانسحبت هي الاخرى الى غرفتها ،
تاركة وراءها ... جواً مرتبكاً ...

بذهاب الجميع ، انهار غروري ، وتلاشت مودتي لآلفريد ،
فجأة ، لم اعد اشعر بظرفه ، بل احسست بانقباض ؛
انا وحيدة مع رجل ! انا مدفوعة ، ومشجعة لأن ارتمي
بين ذراعي هذا الرجل ...

ونقمت على ناديا ؛ لماذا تركتنا وحيدين ؟ لاشك انها
مرهفة الحس ، ولكن ...

أهي ايضاً كالأخرين تعتقد انه شيء طبيعي جداً ان اخلو
بخطيبي ؟ خطيبي الذي لا احب ؟ اهي ايضاً تدفعني الى
ذراعيه لأن الناس لن يروا في ذلك عيباً ؟

دنا مني ... وامتدت الذراعان ، توشكان ان تعانقا
كتفي ... واحسست بأنفاسه تغمر وجهي ...

لا ... لا ...

لن استطيع ان يقبلني ... كيف يقبلني رجل لا احبه ؟
كيف احكم على شفتي بالفناء في صقيع شفثيه ، وشفتاي

لا تعيشان إلا في الدفء ... وهل يوجد للدفء إلا في
شفتي زياد ؟

كيف أرضى ان تلفني ذراعاه ، وجسدي ينتفض
نشوان لطيف زياد ؟

كيف اشعر بنيران شبابه ، وقلبي ما زال محترقاً بذكرى
زياد ؟

لا ... لا ... انا لا استطيع ان اجزئ كياني ... انا
لا استطيع ان اكون ملكاً لرجلين ...
رجعت قليلاً الى الوراء ، فجاءت الذراعان تعيداني
قريباً من الشهوة الضارمة ... وهمس :

— ريم ... اكاد لا اصدق انك انت بين ذراعي .
اذا كان فعلاً يحبني ، فلماذا لا يدع لي مجالاً من الوقت
كي يزداد اعجابي به ، فأحاول من جديد ان احبه ...
واستقبل قبلاته حينذاك ... بشوق ؟

وبرمت من تصرفه ! ماذا ... ماذا يحول في خاطره ؟
أعتقد أن باستطاعته ان يقبلني في اية لحظة يشاء لأنني خطيبته ؟
الا يهمه ان يعلم ماذا فعلته خطيبته طوال هذه الايام ؟
هذه الايام التي لم يكتب لها فيها اية رسالة ؟
ألا يهمه ان يعلم اذا كنت احبه ؟

اعتقد انني امرأة تافهة ، انني دمية اشتراها بهذا العقد
للزائف : الخطبة ! دمية وضعها على رف من رفوف
مكتبته ، وأهملها ، وترك الغبار تمحو معالمها ، ثم دفعه

الشوقُ من جديد اليها ، فعاد يلهو بها لأنه توهم ان الخطبة جعلتها ملكاً له ! لانه توهم ان آراء الجميع تُلبس هذه الدمية ثوبَ الطاعة والانقياد !

كيف لا يفهم ان لي كرامة ؟

اذن ، أالفريد يتصرف ككل رجالنا ... انه مثل زياد !
يعتبر المرأة نبعاً عذباً يشرب منه حين يشاء لا حين يفيض
النبع ... ويبتعد عنه حين يشاء ، لا حين يشحّ النبع ..
ويهيل عليه التراب حين يشاء ، لا حين ينضب النبع !

كيف لا يفهم ان المرأة بحاجة الى رعاية وعناية كي تصبح
نبعاً فياضاً يعطي دائماً حناناً ... وحرارة ... وحباً ؟
كيف لا يفهم انها ورثة يجب ان تُسقى كي تغمر ساقبها
بالعبر ؟

ارتعد جسدي ، وارتجفت شفتاي ! لا ! انا لست دمية
تشرى بالارتباطات الاجتماعية !
انا لست منهلاً يرشف منه شخص لا أحبه ، لان المجتمع
اباح له ذلك !

انا عالم قائم بذاته ... تتحكم فيه عواطفني وآرائني ؛ انا
انسانة لي روح وشعور ؛
اريد رجلاً يسكب الدفء في قلبي ، فأغمره بحرارة
قبلائي ...

رجلاً ، يللم مبعثرات روحي الشاردة ، في قارورة
عطفه ، فأشعل دنياه بنيران عالمي ...

لا ... لن يقبلني ألفريد ... !
رجعت بعصية الى الوراق ، وعلامات الاشمزاز ،
والرفض ، والاسى ، تتابع على وجهي ...
شقت الهوة بيننا !
وامتلأت ذرات الجو بالكهرباء ، لكنني لم ابال ، فليكن
ما يكون ... لن اسمح له بأن يقبلني !
سيثور ... سيحقد ... سيكرهني ... سيزيد الهوة عمقاً ...
لا ...

لا شيء من كل هذا !
كان لنفوري تأثير غريب على تصرفاته ؛
رأيت امواج الدماء تتخبط على وجنتيه . لثموت على
شاطئ كبريائه ؛ ويكسو الامتقاع الوجه الانوف ...
ثم تتحول النظرات ، التي لم يزعزع ثباتها الارتباك ،
فترتمي على علبة السجائر ... وتمتد اليد . لتأخذ بعصية
سيجارة ، تعانقها الشفتان المزرقتان . فتحرقان معها القبله
الحائرة اليتيمة ...

وامسك عود الثقاب . لكنه تذكر . فقال . والابتسامة
الباهتة ، هالة على رأس العروس البيضاء :
— عفواً ... انا دائماً انسى انك تدخين ...
واشعل السيجارتين ، وسحب نفساً طويلاً ، ثم سأل
بلهجة طبيعية وناعمة :

— هل رأيت الاسطوانات التي حملتها معي ؟ هل تودين

الاستماع اليها ؟

احترمته ...

احترمت قوة اعصابه ، وكبرياءه ، وشعرت بالهوة تتردم ،
ليتمدد بيننا نوع من الصداقة ، فابتسمت وانا اقول :
- بكل سرور ...

وبقينا ساعات نتلف الليل بالألحان ... وبدخان السجائر ...

■

اجبرت نفسي في الأيام التالية على القراءة ، ومتابعة
الدروس ، وكانت تساعدني على ذلك رؤية ألفريد دائماً
منكباً على كتبه ، ودفاتره ، او مجدأً في رسم لوحة ، وغارقاً
بين الألوان ...
سألته مرة :

- لماذا اتيت الى دمشق ؟

اجابني بغير اكتراث :

- لأنني اشتقت الى الأهل ... الى الأصدقاء ... اشتقت
الى هذه البلدة ... الى شمسها ... وحتى الى مللها ...
ومع ان جوابه جرح غروري الا انه اراحني ؛ لم يقل
« جئت من أجلك ... او جئت لارى خطيبي ... » ...
واردف :

- وأنا استطيع ان ادرس هنا ، فهذه البلدة مملّة الى حد
أن المرء يعتقد نفسه مجبراً على الدراسة ! اعتقد اني سأبقى

هنا ... اذا كانت اقامتي لا ترعجك ، ثلاثة اشهر ... اعود
بعدها الى اوروبا ، من اجل الامتحان ... وبعدها اسافر
لستين الى اميركا ...

لم نذكر مطلقاً حادثة الليلة الاولى ، ولكن ، فهم كل
منا في سره ، موقفه من الآخر ؛ ونمت بيننا صداقة متينة ،
حاولنا ان نقويها في تجنب هذه المواضيع .
وابتدأت اجد لذة في مرافقة ناديا ، وألفريد الى الحفلات ،
والسهرات ، التي يقيمها الأصدقاء .
وكنت اعطني بشكلي ، وجمالي ، وانا ادري ان زياد
المن يراني ، ولن يستهويه جمالي ...
وكنت كلما فكرت فيه ، غلف افكاري الضباب ؛
ولكن طيفه ظل متغلغلاً في كياني .
ومع اني كنت اقنع نفسي بأن قصتنا انتهت ، الا ان
فكرة لقائه كانت في اللاشعور مبعث جميع تصرفاتي ...
وهدف سهراتي ... وامل اعتنائي بنفسي ...

وفي ذات مساء ، وكان ألفريد قد ذهب الى احدى
دور العرض ، مع صديق له ، جلست اقرأ ، واقربت
مناديا من المذياع .
وفجأة ...

امتلاً الجو بلحن ... لحن اعرفه جيداً ...

ارتجفتُ ... وارتبكتُ ناديا ، ومدت يدها صوب
المذياع . نظرت اليها ، وقلت وابتسامة استجداء حزينة
تحجب دموعي :

— ارجوك ... ناديا ... لا تقفليه ...

وانسابت يدي ، بحركة لاشعورية ، تبحث عن صديقة
بيضاء قديمة ، بنينا على اشلائها اروع خلواتنا .

وارتجفت شفاهي للامستها ... واعتصرتها ، لتمتص
منها ، آخر ما تبقى من عصارة الذكريات ...

وتسمرت نظراتي على المذياع ، ثم راحت تلوب في
الغرفة ... تنقب فيها ... تعاتب زواياها ...

هنا ... على هذا المقعد يجلس ألفريد في اغلب الأحيان ،
وهنا ، يتبعثر الأصدقاء كل يوم ...

والمقعد الأخضر ؟ مقعد زياد ... اصبح هناك ، فقد
قالت ناديا :

— لماذا لا تضعين هذا المقعد في القاعة الثانية ان لونه
يحاكي لون الديوان ... وهو يضئ رونقه هنا قرب المذياع ...
ونقلتُ المقعد .

وفي الركن هناك ، يئن الكهف الأسود ... يئن من
الفراغ ... فقد سلبته الفانوس الأصفر ، ووضعت في حجرة
ألفريد تلبية لرغبته ...

لا ...

لم يعد زياد يملأ بيتي ... لم يبق منه سوى هذه القيثارة

التي تتساءل معي ، ماذا تفعل هنا في هذا الجو الغريب ؟
و ... اجهشت بالبكاء .

تضايقت ناديا :

— لماذا لم ترضي^٥ ان اقفل هذا المذياع اللعين ؟ فهمتُ
انك ستبكين ... ريم ... ارجوك ريم ... قصتك لا تستحق
البكاء ... ستضحكين من نفسك بعد اشهر ... وستبدو لك
كل هذه العاطفة سخيفة ، وهذه المغامرة تافهة ... تافهة
جداً ... ستنسين زياد ... اوكد لك انك ستنسينه ...
وازداد بكائي ...

وتمتتُ ... وتقطعت كلماتي بالعبرات :

— سأنساه ... سأنساه ... نعم ... سأنساه ... انا متأكدة
من ذلك ... ولكن ... كيف لا تفهمين يا ناديا ، اني ابكي
لأنني ... سأنساه ...؟

القِسْمُ الرَّابِعُ

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

١

تقابلنا ، بعد فراق ...
وتحدثنا ، بعد سكوت مضمّن ...
وتعانقت نظراتنا ، بعد قلق ، وطول حنين ...

كانت الساعة تقارب الساعة مساءً ، وكان ألفريد وناديا
ينتظراني مع بعض الأصدقاء ، عند احد المعارف . وبينما
كنت أقود سيارتي في شارع بغداد ، اذا بشخص يشير اليّ
ان اقف ؛
اوقفت السيارة ،

واذا بالباب الأمامي يفتح ، واذا به ... الى جانبي !
كنت انتظر هذه اللحظة منذ اسابيع ... كنت انتظر ان

تجمعنا الصدفة ، وكانت مخيلتي ترسم لي هذا اللقاء بألف
لون ولون ...

كيف استقبل نظراته ؟ ماذا اقول ؟ هل ألومه على هذا
الماضي الجميل الذي لوّث ؟

هل انفجر باكية ... او ابتسم بحزن واقول أنني سامحت ؟
هل أرتمي بين ذراعيه ؟ او ارجوه ألاّ يحادثني بعد اليوم ؟
لا !

بقيت صامته ، وتأملتة ... لأرى اذا كانت نظراته تشبه
تلك الفترات المظلمة التي قضيت ، وتلك الليالي الطوال ،
اللياسة ، التي سهرت ...
تأملتة ... بسكون ... ملياً ، لأرى اذا كان شخصه
يشبه عذابي ...

قال ، والحزنُ يغشي صوته :

- ريم ... ريم ...

- اهلاً زياد ...

رفع نحوي بديعتين زرقاوين لمعت فيهما الدموع ، ونظر
اليّ نظرة التائه في الصحراء الى السراب :

- ريم ... كيف حالك ؟ انك لم تفارقي ذاكرتي ثانية.

واحدة ... انت اعظم ، واحب انسانية عرفتها في حياتي
وسكت ، متأثراً ؛

وساد السكوت برهة ، ثم تابع :

- ريم ... تكلمي ... قولي أي شيء ... ريم لقد أخطأت ..
وفهمت الآن ذلك ... ساحمني ... اريد فقط ان اقول لك ،
انك تعيشين في خلاياي ... نعم يا ريم ، انت معي دوماً ...
كنت اتخيل فيما مضى ، انني لو سمعت مثل هذه الكلمات
التأثبة ... الدافئة ... تنهمر من فم زياد ، لارتميت حالاً
بين ذراعيه ؛ ولكنني فجأة شعرت بفراغ في عاطفتي ،
لست تعسة ، ولست سعيدة ... لست غضبانة ، ولست
راضية ... لا شيء ، لا شيء مطلقاً ...

كل انفعالاتي الماضية ، وكل عواطفني التي تضاربت في
نفسي أيام وحدتي ، تلاشت في وجوده ، وذابت جميعها
في هذه الكلمة : لا شيء ...

انه هنا ... بعد هذه الأيام التي خلتها دهوراً ...
انه بالقرب مني ، يتكلم حزيناً ، ويغمري بكلماته
(الانسانية) ، ويرمي غروره عند اقدمي ، وانا ... اهزّ
رأسي بشرود ، ولا اشعر بشيء !

- ريم ... كيف حالك ؟ اريدك دائماً سعيدة ... هل
انت سعيدة ؟

رفعت اكتافي دون مبالاة ، وابتسمت ساخرة ؛
- نعم ... اريدك دائماً سعيدة ... ان سعادتك تسعدني ،
بل الشيء الوحيد الذي يسعدني لأنني ... لأنني تعس ...
تعس جداً ...

خطر لي خاطر لثيم ان اقول له : « لماذا ؟ انت الآن
تنعم بحريتك ... بالحانك ... بالوجوه الجديدة ... » ولكنني
لم اقل شيئاً .

شعرت براحة تمشي في اعصابي ... أحسست بكسل
يهوي على اطرافي ... على لساني ؛ ان تعاسته ترضي انانيتي !
قال :

— هل انت مسرعة يا ريم ؟
— ان ألفريد ينتظرنني ، مع ناديا عند أحد الأصدقاء ...
— لا اريد ان أوْخرك ... ولكن ... ريم ... يجب ان
أراك لفترة طويلة ... يجب ان اجتمع بك ...
كنت انا ايضاً أتمنى ان أراه ، ان اجتمع به لفترة طويلة ،
ولكنني سمعت صوتي يسأل بحزن وسخرية :
— لماذا ؟

— ارجوك ريم ، لا تكوني قاسية ... يجب ان أراك ...
يجب ... ارجوك ... متى ؟
كنت استطيع ان أراه في اي وقت اشاء ، ولكن ...
ابت كبريائي في تلك المرة ان اجيبه كالعادة : « عندما
تريد » ، وعجبت من نفسي وانا اقول :
— انت تعلم ان ألفريد هنا ، ولا استطيع ان افارقه الا
فادراً ... خابرنني ، وستتفق على موعد ...
كذبتُ ، ولاول مرة احببت كذبي ؛ ان زياد ، كأكثر
رجالنا ، يعتبر الصراحة والبراءة ضعفاً وسذاجة ! سأُتبنى

آراءه ، ولو انني اوُمن بأنها خاطئة ، وسأبرهن له انني
قوية حسب مفهومه للقوة !

قال بقلق :

— اخبرك ؟.. و ... ألفريد ؟

كنت اعلم أن ألفريد لا يجب على الهاتف ابداً ، ولكنني
قلت :

— يمكنك ان تأخذ اسماً مستعاراً ...

.. انا أكره ذلك ... ولكن ... ليس هناك طريقة
اخرى ... سأخبرك ... ريم ... ريم ... اودّ ان اقول
لك اشياء ... واشياء ... ريم ... قبل ان اتركك ، كلمة
واحدة : انت دائماً معي ... طيفك يملأ حياتي ...
مددت له يدي ،

فانحنى يقبل هذه اليد بشغف وعبادة ، وخرج مسرعاً
من السيارة ، كي لا ارى دموعه .
قربتُ يدي ، وارتمت نظراتي على الدمعة الملتعة
التي لم يستطع ان يجبسها ، فجاءت تسقي قلبه ...
وابتسمت ...

دموعه اليوم لا تخزني ، بل تعطيني قوة !
نعم ... وددت لو املأ راحتي بعبراته ... ثم احتسبها
قطرة ، قطرة ، حتى آخر ذرة ...
أوليس فيها الدواء لكبريائي الجريح ؟

•

جلست بين الأصدقاء مرحة ، احدث الجميع ، وضحك هـ
قالت ناديا :

— كم انت جميلة اليوم ، ان بريق عينيك لساحر .
يا للسخرية !

ان دموع زياد تروي عيوني ، وتعاسته تسعدني هـ
وضعه يعطيني قوة !
قال احدهم :

— ريم ... اسمعينا من شعرك ...
ضحكت ... مستغربة ، انا لا ألقى شعري ، ولكن
ألفريد نظر اليّ راجياً وقال :

— هيا يا ريم ... انا بشوق الى سماع قطعة منك ...
عجبت :

— انت لا تحب الشعر .

— انا لا احب الشعر مبدئياً ، ولكن هذا لا يمنع من
اني معجب ببعض اشعارك ؛ اسمعيني مثلاً : « كل شيء
يمضي » احبها كثيراً ...

حملتني هذه الحملة ، سنين الى الوراء ...
كان ألفريد يقول لي : « لماذا تضيعين جمال الحاضر
بالتفكير في المستقبل ؟ لا تكوني رومانتيكية ... ان تفكيرك
الدائم في المستقبل ، سيجعلك يوماً ما تندهين على
الماضي »

في تلك الأيام قررت ألا اكون جبانة ... قررت ان

أجابه حاضري ، وعقدت خطبتي على ألفريد
ملاً الحنين محجري ،
وتتم ألفريد بالفرنسية :

— *Je te Prie ..*,

فالتفت الى الأصدقاء :
— سألقي مقطوعة ... قديمة ... قديمة جداً ... مقطوعة
بالفرنسية ، من أجل ألفريد ... عنوانها :

« TOUT PASSE »

*Pourquoi penser au futur
Et s'en laisser ... ?
C'est la loi de la nature :
Tout doit passer !*

*Pourquoi craindre qu'un beau jour
Il faudrait fuir ?
C'est écrit, depuis toujours :
Tout doit finir ...*

*Le présent est beau ... vivons
Sans réfléchir ...
Au moins, un jour, nous aurons
Le souvenir ...*

فلم يقل شيئاً ، بل جمع حنينه في ابتسامة ناعمة علت
شفتيه ، ثم دمدم بالفرنسية وكأنه يخاطب نفسه :

— *Oui .. j'aime ce poème ...*

وفي البيت ،

وقف عند باب غرفتي ثم قال :

— قطتي الصغرى ... انا اذهب الى السهرات والحفلات
من اجلك ... انت تعلمين اني اكره الاجتماعات ،
ولكنك ، هذا المساء ، كنت رائعة ... كنت كما عهدتك
من قبل ... مريحة ، ضاحكة ... ارجو ان تبقي هكذا
دائماً ...

وددت في هذه اللحظة لو يقبلي ، لو يقول لي ، لو
يعترف بأنه يحبني ؛ لكنه قال :

— تصبحين على خير ...

ودار على نفسه بسرعة ، ودخل غرفته .
فهمت . ان نفوري منه في البدء ، اقام حاجزاً بيننا :
كبرياءه ! وأنا احترم الكبرياء ...

دخلت غرفتي ، والتفت الى المرأة ، اسائل صورتي
عن سبب مرحي ، وعن سرّ عمق نظراتي ...
وترأى لي زياد ! دائماً زياد !
سأراه غداً ... او بعد غد ... او بعد اسبوع ...

سأراه حين اشاء أنا ! واطربني الفكرة ؛ لقاءنا الآن
أصبح كقطعة من الحلوى ، اتلذذ بامتلاكها ، وبإخفائها
في دوامة غروري ؛ سأكلها ، وسأطعمه منها عندما اشاء ...
لم التسرع اذن ؟ ان امتلاكي لها ، يلذّ لي أكثر من
طعمها ، وليذق هو الآن ، معنى الانتظار . والقلق ،
والجوع ...

وتسللت في فراشي ... وارتفع اللحاف يلفف بالرطوبة
الجسد المرتعش ؛ ولأول مرة منذ زمن بعيد ، داعب النوم
الهامئ ... جفوني ...

٢

نبتني من نومي ، قرعٌ عنيفٌ على الباب ، فارتفعت
 أهداي ، لأرى ألفريد يندفع الى الحجرة ...
 نظر إليّ ضاحكاً ، وقال :
 — الا يكفيك نوماً ؟ هيا اسيتطي ...
 — ماذا تريد ؟ دعني أنم ...
 لم يأبه لما قلت ، بل وقف يتأملني ، ويداه مخفيتان في جيبه :
 — كم انت جميلة ... كيف تستطيعين ان تكوني جميلة ،
 حتى عندما تستيقظين من النوم ؟
 زفرتُ ، منزعجة ، فتابع مازحاً :
 — ولكن ارجوك ، ضعني قبعة على رأسك لتخفي هذا
 الشعر القبيح ...

— كم الساعة الآن ؟

— الحادية عشرة ! ليلي هنا ... انها مع ناديا في القاعة ...
يا إلهي ما أقيح شعرك !
ونادى :

— ليلي ... يا ليلي ... تعالي الى هنا ...

جلستُ في الفراش ، متثاقلة :

— ان الكسل من أجمل صفاتك ... انا اقرأ منذ الساعة
السابعة ، وانت تنعمين بالنوم !.. يا دنا ... اين القهوة ؟
ودلفت ليلي تردد :
— ما هذا الكسل ؟

لن اجد الى مواصلة نومي سبيلاً ، فقلت متذمرة :
— انتِ ايضاً ؟ ان نشاطكما يتعبني ، ويزيد في نعاسي ...
قالت هازئة :

— هل أزعجنا الاميرة الكسول ... في نومها الهانى ؟
عفواً ...! هناك شخص يريد محادثتك على الهاتف ...
وتابعت بمكر :

— سأقول له انك نائمة ...

فهمت ، وشعرت حالاً بنشاط الدنيا يهمني عليّ ...
حاولت ان ابدو لامبالية ، ونهضت من الفراش اتصنع
الكسل ، وخرجت من غرفتي ، الى القاعة ،
وقربت ، بلهفة ، السماعه من اذني ، لا طرب
سمعي بالصوت الحبيب :

– ريم ... يا اميرتي الصغيرة ... صباح الخير ... كيف
حالك ؟

– كيف حالك انت يا زياد ؟

– انا بخير كلما سمعت صوتك ... متى اراك ..؟ اليوم ؟
سمعت صوتاً في داخلي يقول : « اليوم ... نعم اليوم ...
الآن ... في كل لحظة يا زياد ... »
وعجبت من نفسي وأنا اجيب :
– اليوم ... لا ... لا استطيع ... سأستقبل ضيوفاً !
كذبتُ .

لكنني اردفت وانا احاول ان أشعره بترددي :
– ولكن ... سأحاول ... سأعمل جهدي ... ان أراك
غداً ... لنقل غداً ، في الساعة السادسة مساءً .
– صغيرتي ... تهمني راحتك قبل كل شيء ... ولكنني
سأعيش دهرأ من الآن حتى الغد ... ولكن يا ريم ... اين ...
اين سأراك ؟

ما كان اسهل عليّ ان اقول له : « سآتي اليك ، او
تعال زرني ، او تعال خذني بسيارتك » .
لكنني قلت جادة :

– هذا موضوع آخر ... موضوع صعب ...
وسكت لحظة ، لاقول همساً :

– يجب ان تنتظرنني في سيارتك في مكان بعيد عن عيون
الرقباء . والا فستحدث كارثة ... لنقل ... مثلاً ... هناك ،

تكلّفها من روحها وآمالها واعصابها ...

على العكس ، يزول تقديره للفتاة نفسها ، ويعتبر حبهما
تافهاً ، لان الحواجز زالت ! هذه الحواجز التي يضخمها
الكتاب ، ويطرزون حولها الحوادث ، فيخلقون منها قصة
مثيرة !

وزياد ؟ زياد طفل تستهويه الروايات العاصفة ! فلماذا
لا استعمل ظروف التافهة لتكوين قصة ، واقوم بدور البطلة
التي يبحث عنها زياد ؟

لماذا لا اجعل من حبنا مغامرة مثيرة ؟ فأوهمه ، بأن كل
واحد منا يرسم خطأً جهنمية كي يستطيع فقط ان يحدث
الثاني هاتفياً ... واننا نخاطر معاً ، كي نلتقي للحظات ، وان
الدمار سيحل بالكون ، اذا اخترقت خلوتنا ، نظرة رقيب .. ؟

و ... اخترق خلوتي بأفكاري ، نداءُ ألفريد :

- ريم ... ما هذا الحديث الطويل ؟ كم تثرثرين ...
بردت قهوتك ، ومللنا انتظارك !

عدت الى غرفتي ، ضاحكة ، فابتدرتني ليلي بمكر :
- ما هذه العادات القبيحة ! ساعة ... على الهاتف ...
- المخابرة انتهت بسرعة ، لكنني كنت افكر ...

ضحك ألفريد :

- وكتبت قصيدة طبعاً !!! هل ذكرت في القصيدة
اننا نتظرك ؟

وسألتُ ليلي :

— وماذا تفعلين الآن ؟

— سأكتب

غمغم ألفريد :

— اما أنا ، فسأذهب الى السينما ...

شعرت فوراً بحاجة الى البقاء معه ، فقلت :

— الا تدعوني وليلي ؟

اتسعت عيناه :

— الله ... ماذا جرى لك ؟ لقد ابيت عدة مرات مرافقتي

الى السينما ...

— انا لا احب السينما ، ولكنني اليوم اودّ ان ابقى

معك ... فهل عندك مانع ؟

وابتسم .

فكرتُ :

ما الذي يدفعني الى مرافقة ألفريد ؟ لماذا كلما تحدثت

مع زياد ، شعرت بحاجة الى ملاطفة ألفريد ؟

هل هو الشعور بالخطأ ؟ ولكنني متفقة تماماً وضميري ؛

انا لست مرتبطة بأية صورة بألفريد !

هل هي الشفقة ؟ ولكنني لا اشفق على ألفريد ، بل

اقدره ، واحترمه .

ربما ، كان تصرفي نتيجة عملية مقارنة ، في عالم اللاشعور ،

بين زياد وألفريد ... مقارنة تجعلني أوّمن بأن هذا الأخير
يستحق صداقتي ، وعطفي ، واخلصي ...

*

كانت لحظة اللقاء تلوّح لي طوال النهار ، وتدنو ...
وتدنو ؛ وكنت اعلم ان ألفريد قد تواعد مع احد الاصدقاء
على الذهاب الى السينما ؛
وقفت امام مرآتي ، وساءلتها : هل كنت اشعر بهذا
الشوق الجامح الى ملاقة زياد ، لو لم اكن متأكدة من انه
منذ البارحة ، لا يعيش إلا لهذه اللحظة ؟
ومن ابتسامتي الواثقة ، الهادئة ، فهمت اني بشوق الى
شوقه ... لا الى لقائه ... !

ومرت ليلي كعادتها كل يوم :
— اين ألفريد ؟
— ذهب الى السينما اليوم ايضاً ...
— ريم ... لقد رأيت سيارة زياد تقف في شارع المزرعة !
ماذا يفعل هناك ؟
قلت بدون مبالاة :
— وما ادراني انا ؟
وساءلتُ ساعتِي ؛ لقد سبق الموعد ، ولكنني كنت
توقع ذلك ... قالت :

— الى اين انت ذاهبة ؟ لمن تتجملين هكذا ؟
أجبتها ساخرة :
— اتجمل لنفسي هذه المرة ... لارضاء غروري ! وانا ذاهبة معك ...
اطل السؤال من عينيها ، فأوقفته قائلة :
— نعم ... ستقولين اني ذاهبة معك !
هزّت رأسها ، معاتبه :
— انه ينتظرك ! كيف لم افهم ذلك ؟ انت مجنونة يا ريم ... ان ...
— ارجوك ، ليس لدي الوقت لسماع نصائحك ؛
سأمرّ بك بعد ساعة تقريباً ...
والقيت نظرة اخيرة الى صورتني في المرآة ، وقلت :
— هيا بنا ... انتظريني في البيت ...
وخرجت مسرعة ؛ ركضت ورائي :
— انت مجنونة ... كيف لا تقدرين ان ألفريد يفوق هذا الرجل ذكاءً ورجولة ... كم انت مخطئة ... ألفريد عظيم ...
قلت هازئة ، وانا اطبق باب سيارتي ، وادير المحرك :
— تزوجيه ... يا ليلي ...

*

— عفواً ... تأخرتُ نصف ساعة ، ولكن ألفريد لم يدعني آبي قبل الآن ...

– صغيرتي ... كنت قلقاً ... اتساءل اذا كنت تستطيعين
المجيء ...

– انا هنا الآن ...

– وانا تحت تصرفك ... هل تودين ان نذهب لتزهة
في السيارة ؟

– كما تريد ...

انطلقت بنا السيارة ، حذرة ، في الازقة المعتمة ، وانطلقت
الكلمات من ثغر زياد ، نغمات حزينة ... مشتعلة :

– حبيبي ... حبيبي ... لا تحسب من عمري ، هذه
الايام العشرون التي قضيتها ، بعيداً عنك ... انت اغلى ما
في وجودي يا ريم ... يا اهلاً بك ... يا اهلاً ...
بقيت صامته .

– ريم ... لماذا لا تتكلمين ؟ تكلمي ... قولي اي شيء ...
وبخيني ... انا استحق اقسى الشتائم ... كنت مخطئاً يا ريم ...
قولي اي شيء ... تكلمي ، ان سكوتك اقسى ايلاًماً من الكلمات
نظرتُ اليه ، وابتسمت بحزن ؛ سأل :

– حبيبي ، اخبريني قبل كل شيء ... كيف حالك مع
ألفريد ؟

هزئت رأسي :

– لا بأس ...

حاول ان يجعل لهجته لامبالية وهو يسأل :

– هل تتزوجينه ؟

— انا لا اريد الزواج الآن ...

— الم يغير مجيُّ ألفريد رأيك ؟

— لا ...

ترموم ، ولاحظت أنه مرتبك ... ثم سألت فجأة :

— ريم اخبريني ... حدثيني عن لقاءكما ... كيف ...

كيف أستقبلت ألفريد ؟ وهل ... وهل قبلك ؟

ضحكت ! وتلعم :

— لا ... لا تضحكي ... اعرف ان هذا سخف ...

وانه حتماً قبلك ... وطبعاً هذا ... من حقه ... هذا شيء

طبيعي ... ولكنني لا احتمل فكرة وجود رجل معك تحت

سقف واحد ... حتى لو كان خطيبك ...

زياد يغار !

هذا اكثر من ان اصدق ... وكأنه فهم ما يحول في

خاطري ، فقال :

— نعم يا ريم ... انا اغار من ألفريد ... وفكرة وجودك

معه دائماً تعذبني ... تعذبني ... وتقلق ليالي

واوقف السيارة ، ومدّ يده بوجل ، يمسك يدي ،

ثم رفعها نحو ثغره ، واحنى رأسه ، ليدفن كلماته في راحتي :

— حبيبي ... حبيبي ... كيف يقبلك غيري ؟ لقد

قبلك ألفريد ... لقد ... ان عدم اجابتك تعني ذلك ...

ريم ... انا احبك ... احبك ...

وسكت لحظة ، ليتابع :

— هل سأمحتني ؟

— أليس وجودي الآن معك دليلاً ؟

— هذا كل ما أريد ... انا احبك يا ريم ... انا بحاجة
هامة الى سماحك ...

كان صوت ، في اعماق قلبي ، يهمس لي :
« هيا ... ارتمي بين ذراعيه ... كفي عن التمثيل ،
اعترفي له بحبك الدائم ... سامحيه ... واذهي معه الى حيث
يشاء ... اخبريه ان ألفريد لم يقبلك ... اخبريه انك نفرت
من قبلاته ... انت تعبينه ... لم الكذب ؟ »

فيرتفع صوت آخر ، ويعلو ، ويعلو ، ويستفز عنفواني :
« هل تضعفين من جديد ؟ انه الآن يحبك ، لأنه يعلم
انه فقدك ... انه الآن يحبك ، لانه بعد المقارنة ، وجدك
احسن منها ... انه الآن يحبك بعد ان ادمى قلبك ، وداس
كبرياءك ... دعيه يتألم ... دعيه يذق قليلاً من عذابك
الماضي ، دعيه يتعذب ، ليصبح انساناً ... »

انه الآن يحبني ، انه الآن الرجل الذي تمنيته دائماً ان
يكون ، ولكن حبه اليوم لا يسعدني ، ولا يحملني ، الى
هذا العالم الجميل ، عالم الاحلام ، والموسيقى ، والشباب ؛
ان حبه اليوم يرضي غروري ، ويعيد اليّ ثقتي بنفسي .
لم اقل شيئاً ، بل نظرت الى الساعة ؛ لقد تأخرت .

— زياد ... لقد مرّ الوقت بسرعة ، ويجب ان اعود ...
الساعة السابعة والنصف ...

- يجب ان تعودى ... نعم ... يجب للاسف ..
وتقضى سهرتك مع ألفريد ! كم من الوقت سيبقى ألفريد
في دمشق ؟

- شهرين تقريباً ، على ما اعتقد ...

- متى أراك ؟

- لا أستطيع ان اضرب لك موعداً الآن ، فانا أبني
برامجى على برامج ألفريد ... سنتفق هاتفياً ...

- ريم ... لا تنسى انى احبك ... احبك ...

هزرت رأسى ، وابتسمت .

- ريم قبل ان تركيني ، برهني لي انك سامحت ،
وقولي ما كنت تقولينه ...

قلت بصورة اتوماتيكية :

- احبك ...

- لا ... قولي الجملة الثانية ...

رددت :

- احبك ... ولا اذكر جملة ثانية ...

- ارجوك تذكري ...

فهمت انه يريد لحنى القديم : « انت عيوني ... » ولكن
لسانى ابى ان ينطق بهاتين الكلمتين . لا أستطيع ، لا اشعر
بذلك ، سأكون كاذبة ، ويا للغرابة ، في هذه اللحظة ،
وفي هذا الموضوع ، لم استطع ان اكذب ، فقلت ضاحكة ،
وانا ازحف بجسدى خارج السيارة :

— اعتقد اني احبك ، وهذا يكفي اليوم !
واختفيت في ظلام الطريق ...

*

— ريم ... انا لست موافقة ...
— اسمعي يا ليلي ، اعفيني من نصائحك الآن ، واستمعي
اليّ ... هناك جملة قرأتها منذ زمن ، تردد في رأسي الآن ...
منذ لحظات ... تذكرتها وانا في طريقي اليك ...
قاطعتني :

— ريم ... انا لست موا ...
— ... فقة على الذي تفعلينه ! فهمت ... سنتحدث عن
ذلك فيما بعد ... والآن استمعي اليّ ؛ يقول اندريه جيد :
« ان كل تمنّ اسعدني ، وزاد في ثراء نفسي ، اكثر من
التملك الخاطئ دائماً لموضوع التمني ذاته ... »
— ما معنى كل هذا ؟ لم افهم !

— عرفت انك لن تفهمي ...! ليلي ، انا اعد الثواني
التي تفرقي عن زياد ... وتنحصر مخيلتي وتفكيري وحياتي ،
في الطريق المؤدي الى ساعة اللقاء ... ولكن حين ارى زياد ،
لا اشعر بشيء ، حتى ولا بسعادة ...

— هل تريدان ان تقولي ان رؤية زياد لا تسعدك ؟
— نعم ...

— اذن انت لا تحبينه ...

— انا اعبدك يا ليلي ... ولكن لست ادري كيف اشرح
لك ان فكرة لقاءه تسعدني اكثر من اللقاء ذاته ...
— آراؤك غريبة ، انا لا افهم سوى شيء واحد ؛ اما انك
تحيينه ... واما انك لا تحيينه ... وهذه الفلسفات التي تبحثين
عنها لا افهمها ... انت لا تطاقين !
— اعرف ذلك ... لقد سمعته منك من قبل ... قولي ...
اوجدني شيئاً جديداً ... وحاولي ان تفهمي بعد ذهابي ما
قلته لك .

— لماذا ؟ الى اين انت ذاهبة ؟
— الى البيت ... فانا اشعر بحاجة الى الكتابة
— الكتابة ! الشعر ! انت تقتلين معظم اوقاتك بالكتابة ...
وستمر اجمل ايامك وانت دافنة نفسك بين اربعة جدران ،
تكتبين ...
— ماذا سأفعل اذا لم اكتب ؟ يا ليلي ... الفن هو الشيء
الوحيد الذي يستحق التضحية ... !
لطمت خدها بيدها :
— يا الهي ... انت ايضا ... من فئة المجانين !

*

جلست امام طاولتي الصغيرة ، وتبعثرت الأوراق تحت
يدي ، وراح قلمي يرسم الحروف الملونة ...
ان حروفي لها الوان ؛

النون حمراء ... كنقاط الدم . الياء صفراء ... كدموع
الفراق . السين ذهبية ... كالشمس . والواو سوداء ...
كلباس الراهب . والهاء شفافة ، كالزجاج ... والألف
الرمادية ... واللام ... والجيم
نسيت كل شيء حولي ، وتلاقت نفسي ، وعيوني في
رقصة الحروف ...

شعرت بسعادة... سعادة تنساب في اعماقي هدوءاً، وراحة...
ان هذه الحروف تغنيني عن كل شيء ...
وحملني من هذه الغيبوبة اللذيذة ، الى الواقع صوت
ألفريد :

— كان الفيلم يا ريم رائعاً ... ماذا ...؟ انت تكتنين ؟
شعراً ؟ وهل في الدنيا شيء اسخف من الشعر ؟
— كيف تتكلم هكذا ؟ وانت رسام ... وانت فنان ؟
قال مازحاً :

— الرسم فن ... هذا صحيح ... لكن الشعر سخافة !
هل ترافقيني الى نزهة في السيارة ؟

رفعت حاجبي ، وبدا الاستياء على وجهي ؛ قال :
— آه حقاً ... نسيت ... الشاعرة العظيمة في ساعة وحي ..!
يؤلمني انك لا تشعرين بالوحي الا عندما اود مرافقتك !
شعرت بانقباض ، وكأن يداً فولاذية تعصر قلبي ؛ شيء
في طباع ألفريد ، لا ادري ما هو ، ينعكس في كلماته ،
فتتمدد كالأصابع ، تحاول خنقي ...

ان ألفريد يستطيع ان يفهم حاجتي الى الكتابة ، لأنه
هو نفسه فنان ؛ لكنه لا يريد ان يعترف ، لأنه رجل ،
ككل الرجال ، اناني ... !
ما الفائدة من الحصام ، سأكتب فيما بعد .
— سأرافقك !

انطلقت بنا السيارة تنهب الفضاء ؛ وتسابق الريح ؛
— ما هذه السرعة يا ألفريد ؟ هل دعوتني الى نزهة او
الى سباق ؟
— انت جبانة ... تتصرفين كامرأة عجوز ...
سكت .

وفي برهة ثانية ، مرت امام مخيلتي جميع قصص خلافتي
الماضية ، ومناقشاتي مع ألفريد لأتفه الأسباب ؛ شؤون
تافهة ، ولكن من هذه الشؤون تُبنى حياة الفرد اليومية ؛
لا ... من المستحيل ان اتزوج ألفريد ؛ ان دنيا تفرق بيننا ،
يحب الشمس والطبيعة والهواء ، وانا اخضع لجمال الليل ؛
يمارس الرياضة بكل انواعها ، وانا اجد لذة الحياة في الاستلقاء
على ديوان مريح ، تمرح عليه الكتب ، في غرفة صغيرة ،
تسرب من زواياها ، ألحان خافتة ، جميلة ...
يحب العزلة ، وانا لا استطيع ان اعيش من غير اصدقاء ؛
يوئمن بأن الوجود ينبع من الانسان ، وانا اوئمن بأن
الانسان ألعبوبة في يدي القدر ...

أعز ألفريد ، ولكن تصادم آرائنا يخلق من وجودنا
معاً ، جواً مرتجاً ، مكهرباً ...
وشعرت بحنين الى زياد ؛ ابن بلدي ... ابن عاداتنا ،
ومشاعرنا ، واذواقنا ...
وكنت غارقة في تأملاتي ، فلم لاحظ ان ألفريد قد
خفف السرعة ، حتى سمعته يقول :
- لا تعبسي هكذا ... نعم آراؤك خاطئة ، ولكن
المضحك ... انني دائماً ... افعل ما تشائين ...

٣

مرّ يومان ... وكان زياد يخبرني كل يوم عدة مرات ،
فتحملني مخبراته من هامش الحياة الى اعماق اعماقها ...
وكان اللقاء الثاني ...

وفي المكان ذاته ، كان زياد ينتظرنني ، قلقاً ؛
ابتدرني :

– لم اعد استطيع ان احتمل هذه الحالة ... هذا الكتمان
الذي يغلف اجتماعاتنا ... وهذا الحب الذي اصبح محرماً
علينا ...!

– للظروف احكام يا زياد ... انا لا اريد ان اسيء الى
ألفريد ...

– هل انت سعيدة معه يا ريم ؟ على الأقل ؟

– سعيدة ؟ ما هي السعادة ؟ هي لحظات قصار جداً ...
متقطعة ... السعادة نيزك ... بريقها سهم يلمع ويختفي فوراً
في الظلام ، ولا يمكن ان يكون الانسان سعيداً دائماً ...
– هذا صحيح ... انا في هذه اللحظة سعيد ... ريم ...
انا احبك ... قد اكون اخطأت معك ... بل اخطأت فعلاً ...
ولكنني في لحظتها ما كنت اظن أن تصرفي قد يسيء اليك ...
ريم ... انت حساسة جداً ؛ انا ما عرفت امرأة مثلك من
قبل ، ولا تعودت مداراة شعور اية امرأة ، لأنه ما من
واحدة كان تصرفي يسيء اليها ... لذلك ، اعتقدت ان ما
فعلته ليس به شيء يسيء اليك ...

نظرت اليه ، مترفعة ، معاتبة ؛ قال :

– ريم ... انا اعرف الآن أني اسأت اليك ، لا بالاعمال ...
ولكن بالطريقة التي شرحت بها اعмали ... كان تصرفي
خاطئاً ... لكني اودّ ان أخبرك ... احلف لك انه لم تكن
بيني وبين هذه الفتاة اية علاقة عاطفية او جنسية ...
انتفضت ، متزعجة :

– انا لا اسألك شيئاً يا زياد ، ولا اودّ ان اتحدث عن
الموضوع !

– لكن ... يجب ان تعلمي ...

قاطعته بحزم :

– ارجوك زياد ...

ومع ان هذا الموضوع ، في الحقيقة ، كان ينغل في

قلبي ، ومع ان فضولي كان يطلب ايضاحاً وتأكيذاً - وأي امرأة لا يهتمها ان تعلم ... وتعلم ، مدى علاقة حبيبها بفتاة اخرى ؟ - الا ان كبريائي ابت عليّ ان ادني نفسي ، واستمع الى هذا الحديث .

وسكت زياد ، وفكرتُ :

ومن تكون هذه الفتاة ؟ سأعطيها انا قيمة اذا اعرت موضوعها اهتمامي ؛ انا لا تهمني هي مطلقاً كشخص ؛ كان من الممكن ان تكون فتاةً اخرى ؛ والذي يهمني هو تغير زياد حين وجدت . لم تكن سوزان سوى دمية تمثل الفتاة بوجه عام . نعم ... لم تكن الا حجراً حكّ عليه زياد ، فتبين معدنه الحقيقي ...

قال :

- ريم ... انا احترق هذه الفتاة ، وألعن اسمها ... انت لا يمكنك ان تتخيلي انها مجرد جارية تنهالك كممسحة تحت أقدام الرجل ...

شعرت باشمزاز ؛ كيف يتحدث زياد عن فتاة صادقها ، مهما كانت اخلاقها ، بهذه الصورة القبيحة ؟ كيف يشرب من برّ ثم يقول عنها عكرة ؟

- لا ... لا يا زياد ... يؤسفني ، ويسوءني ان اسمعك تتحدث عنها الآن بهذه اللهجة القاسية ، ومنذ ايام فقط ، كنت معجباً بها ، وصديقاً لها ...

صرخ :

— معجباً بها ؟ انا ؟ كم انت مخطئة ... انا لم اعجب بها
قط ... هي التي كانت تلاحقني بشكل مستمر ، واذا كنتُ
لم اخبرك بكل ذلك ، فاعلمي الآن انها هي التي كانت تدعوني
لأخذ فنجان من القهوة ، هي التي كانت تطلب ان أوصلها
بسيارتي ، هي التي كانت تخبرني ... وفي تلك الليلة المشؤومة ،
هي التي كانت تنتظرنني في بيتي وألحّت ان أرافقها ...
بالرغم مني ، شعرت بنفسني مضطرة الى مناقشته ؛
قلت ببرود :

— يا زياد كل ذلك لا يمنع من انك كنت معجباً بها !
فالفتاة لا تلاحق شاباً الا إذا كان قد ترك لها مجالاً ، لتعتقد
انه يرحّب بملاحقاتها ...
— يا ريم ... انا لم اعجب بها ، لكنها كانت وجهاً جديداً
بالنسبة اليّ ...

قلت ، والابتسامة المُرّة تقذف كلماتي :
— نعم ... وجهاً جديداً ... رميت من أجله الوجه الذي
اضاء بك ... ولك ...

— انا رميت ؟ انا ؟ ما هذا الكلام ؟ متى ستفهميني ؟
انا احبك يا ريم ... انا اعبدك ... حاولي ان تفهميني ...
ان في بحاجة الى اشياء جديدة ... بحاجة الى مواد اولية ...
ان الفن ...
الفن ... الفن ...

لم اعد استطيع ان اكبت آرائي ؛

لم اعد استطيع ان اقف مكبلة اليدين امام هذه الآراء
المغلوبة التي تصفع مفهومي للنبل !
شعرت بالاشمئزاز يغلي في كياني ، ليفور كلمات قاسية
محرقة على الشفتين :

— ارجوك زياد ... بل استجديك ، لا تستعمل كلمة
« فن » عندما تريد ان تقول « رخصاً » ... لا تستعمل
الفن كستار للافعال الدنيئة ، السافلة ... انا احب الفن ،
فلا تخفضه الى هذا المستوى المنحط ...!

صبغت كلماتي وجهه بألوان مخيفة ، وعبست تقاطيعه
وكزت اسنانه ، تعضّ الالهة ؛

وتمدّد الصمت بيننا ، وغمرنا ، وثقل على كاهلينا ؛
جاوزتُ حدود المناقشة ! قسوت على زياد وهو ضعيف ،
وجرحته وقلبه مضنى ؛

ان من الجبن والدناءة ان استعمل قوتي وسلاحي مع
شخص يستسلم ، ويعتذر ...

كيف اسمح لنفسي ، وانا اصعد جبل القوة ، ان اقذف
حجارة على انسان اصبح في السفح ؟
اخطأت !

لكنني لم اندم ، فأنا طبيعة بشرية تتأثر ، وتغضب ،
وتثور ، وتمتدّد ، ثم تفرغ عصارة حقدّها في كلمات جارحة ؛
وترتاح من كابوس يرهق اعماقها ...

وفي صمتي ، استيقظتُ فجأة من غيبوبة التمثيل ؛ لماذا

اريد تعذيب زياد ؟ انا احبه ... لم الكذب ؟
اقتربت منه ، ورفعت يدي ألمس برفق خده ، فاردت
اليه لونه الهارب الحقيقي :
- زياد ...

لم يجب
- زياد ... كلانا سخيّف ! يقذف كل واحد منا روح
الآخر ، بسهام غضبه ، وغروره ، ولا يدري ان هذه
السهام ، هي شظايا نفسه المحطمة ... هل نعتقد اننا نبدع
شيئاً جديداً ، ونحن نسيّ الى بعضنا بعضاً ؟ هل نعتقد ان
هذه الأحاديث نوع من التجديد ؟ نوع من الفن ؟
صاح العتاب في عينيه ، لكنه قال ببرود ، والكلمات
تتكوّم عنفواناً في لهجته :

- اذا كنت الآن تنظرين اليّ ... الى شخصي ، من
هذه الزاوية الضيقة المعتمة ، فلماذا تجتمعين بي ؟ لماذا
تحدثيني ؟ انا لا اعترف بصداقة لا تقوم على التقدير
- انا اقدرك يا زياد ، وهذا لا يعني اني اوافقك على
كل آرائك ! ان استهتارك ببعض المعاني الرفيعة هو الذي
أجبرني على الدفاع عنها ... لانني احترمك ، اطلب اليك
ان تحترم فنك ، فنك الذي تعبد ، فنك الذي علمني ان
أحب الفن ...

واندفعت شفتاي تهسان في أذنه :
- انا احبك زياد ... الى متى نزوغ عن الحقيقة ؟ الى

متى نظلّ تأهين ؟ ومتى سيعترف كل منا بأنه وجد نفسه
حين وجد رفيقه ؟ انظر اليّ زياد ... انظر اليّ ...
رماني بلفتة زاجرة ،

ثم لانت نظراته امام الحب العاصف في عيوني ؛ فانسحبت
يده اليمنى من مكانها على عجلة القيادة ، لتقرب من رأسي
المتكى على كتفه ، وتداعب برفق وحنان شعري القصير ،
وكأن هذه اليد ، تعودت دائماً مسح فروة القطة المظفرة ...
دندنتُ :

— زياد ، في ظروفنا الحالية ، لا نستطيع ان نبقي دائماً
معاً ، فلماذا نعكّر صفو اللحظات التي تجمعنا ؟ لماذا في
هذه اللحظات لا نعمر من وجودك ووجودي دنيا نحصر
فيها جميع احاسيسنا ؟

— نعم ... لننس الماضي بما فيه من دموع وبسمات ،
ولننظر الى المستقبل ...

وساد السكوت ، وامتدت نظراتنا في الطريق الطويل
الذي يضيق ويضيق ، لتلتقي في زاويته الضائعة في الأفق ...

وحين عدنا سأل :

— متى أراك ؟

قلت فوراً وانا افتح باب السيارة :

— غداً ... في السادسة مساءً ...

اختلط الفرح بالدهشة في عينيه ، وسأل :

– هل انتظرک في المكان ذاته ؟

قلت بثبات :

– لا ... انتظرني في البيت ...

وتابعتُ ، ردّاً على نظرتہ القلقة :

– لا تخش شيئاً ... انا اعرف كيف اتصرف !

وابتسمت بمكر ...

٤

انبأني اعقاب اللفافات المكوّمة في المنفضة ، على حافة
النافذة ، عن قلق زياد ، طوال ساعات قضاها في
انتظاري ...

سكّرتِ اللهفة في عينيه ، وترنّج الفرح في اساريه ،
وهو يقول :

— انت ... انت يا حبيبي ... يا اهلاً بك ... انا لا
استحق ان تزوريني ... لكنك عظيمة ... انا لا اصدق
انك هنا ...

وقفت في وسط الغرفة ، غارقة في سيل الترحيب ،
ثم ، وعيت ما حولي ...
يا الهي ... ماذا جرى ؟

اين الستائر الملونة ؟
اين الديوان الأحمر الذي كانت تختلج قضبانه مع دقات
قلبينا ؟

اين اللوحات المتراكمة ؟
اين الكتب المكدسة التي اخفت بين صفحاتها اسرار لياينا ؟
اين ... اين ... اين ذكرياتي ؟
ونبت الذعر في عيني ؛ ماذا تفعل هذه المقاعد الحضر
المخملية في الركن ؟ ولماذا استبدل ديواننا الأحمر بهذا
الديوان الحشبي ؟

كان زياد يتبع نظراتي ، فقال شارحاً :
— نحن بحاجة الى غرفة لاستقبال الضيوف ، وهذه الغرفة
واسعة ، لذلك اضطررت الى ان انقل جميع ما كان هنا ،
الى الغرفة المجاورة الصغيرة ... وكما ترين لم ننته بعد ...
انا آسف يا حبيبي ان استقبلك اليوم والفوضى تعم هنا .
بردت أطرافي ... برد جسدي ... برد قلبي ...
احسست بصقيع يهرب من الجدران ، يهجم عليّ ،
يغلفني ، يكبلي ، يوجعني ...

وددت لو ابكي ؛
حتى هذه الغرفة ... هذه الغرفة التي اعتبرني ابتها ،
واخبأتني في احضانها ...
حتى هذه الغرفة التي غمرني بدفئها ... تغيرت !
ضحك زياد :

— لا بأس يا ريم ... انا ايضاً تأثرتُ وانا أراهم ينقلون
كل شيء ... لكن الغرفة المجاورة ستعجبك ... هيا اخلعي
معطفك ، واقتربي من النار ...

نخلعت معطفي المبلل بالأمطار ، وجلست حذرة ، على
حافة الديوان الحديد ، وتشتت نظراتي في ألسنة النار المتصاعدة ..
هذه النار تهديني الدفء والحياة ؛ هي اليوم كما كانت
هذه الغرفة في الماضي ...
وغداً ...

غداً ستصبح هامة ... باردة ... غداً ستصبح مثل هذه
الغرفة اليوم !

بالسخرية ... كل حرارة ... تزول ! كل شيء يزول ...
كان زياد يضع قليلاً من الترتيب حولي ، ثم اقرب مني ،
وقال ، وهو ينظر الى النار :

— ريم ... ان فضلك عليّ كبير ... كبير ... انت اول
فتاة ، بل اول انسان يعرفني بقيمة نفسي الحقيقية ... بنذالة
نفسي ... انا سافل ... سافل ... ولم اكن ادري بذلك !
ان ماضيّ تاريخ اسود ، احملة على كتفيّ ... ويرهق
يومي ... لأول مرة في حياتي ... اندم على ماضيّ ... ماذا
فعلت في الماضي ؟ اضعفت حياتي في السطحيات ...
شعرت بعطف واحترام لهذا الرجل ، الذي اصبح انساناً ...
ليس انساناً كل من يتوب ؟

ركع عند اقدامي ، كعبد صغير يائس ، ودفن وجهه

في ركبتني ، وتتم :

- ريم ... ساحيني ... لقد أسأت اليك ... دون ان ادري ، لأنني كنت اعيش من غير احساس ... ساحيني ... انا عاجز عن الحياة بدونك ...
ثم رفع نحوي الرائعتين الزرقاوين ، وجاءت ابتسامة باهتة ، تضيفي على ضراسته كبراً :

- عودي اليّ يا ريم ... عودي اليّ وسأخدمك كالعبد ...
عودي اليّ وسأحفظك في عيوني ... انت اميرتي الصغيرة ...
وانا فقير معدم ... لا تركيني ... لا تخلعي عني هذا الثوب الناصع الذي اهديتني اياه ... لا تعيديني الى عري الماضي ...
عري الضمير ... عري الأحاسيس ... انا احبك يا ريم ...
شعرت بأنني ساضمه الى صدري ، وأواسيه كطفل صغير ...

شعرت بأنني سانحني على وجهه ، فألملم بشفاهي دموعه^١ المترققة بين الأجفان ...
لكنني لم افعل شيئاً ،

ولم ادرِ سبب برودي ، انا التي كنت مستعدة لأن أحشر حياتي كلها في زرّ وردة ، لو خيل لي ان زياد بحاجة الى عير ... أهى كبريائي التي عادت تحصن عاطفتي ، وتُملي عليّ تصرفاتي ؟ ام الفن الذي صار يلوّن آفاق حياتي ؟ ام السخرية من الأيام التي جعلته ، هو الرجل المتكبر ، المتعجرف ، يرغب في ان احميه انا !

داعبت شعره بحنان ، ومسحت له الجبين ، وتمتمت :
— زياد ... انا ايضاً احبك ...

— حبيبي ... انا لك ... اطلبي مني ما تشائين ...
ابتسمت ، وقلت فوراً :

— سأطلب منك ان تغزف لي المقطوعة التي احب
ابتسم بدوره :
— هذا فقط ؟

— ارجوك ... اطلب ذلك بالحاح ...
اتى بقيثارته :

— اتعلمين يا ريم ... اصبحت لا استطيع الغزف ، لم
اغزف منذ افترقنا ... ريم ... اعطيني وقتاً ، سأبرهن لك ...
اني دائماً لك ... ومعك ، يا لبتك تدركين ... لا شيء
غيرك له قيمة عندي ... وفي ... في الذي كنت اقدس ...
لم يعد يهمني ... سأتركه من اجلك ، اذا كان يؤذيك ...
تقهقر منافسي في حب زياد !

هو الملك الذي كان يتربع على عرش حياته ، لاجلس
انا على هذا العرش !

بالرغم من هذا ، لم اشعر بسعادة ، بل بنجبة ! كيف ...
كيف يتقهقر الفن امام حب زائل ؟
قلت مستاءة :

— تركه ... تركه ؟ كيف تركه ؟ انا اعبد فنك يا زياد !
شكرني بابتسامة ، وتابعت :

— ارجوك ... اعزف لي مقطوعي ...
جلس على حافة الديوان ، وامسك بالقيثارة ، وراح
يعزف ؛
تعلقت انظاري على انامله ...
ما اروع فنه ، وما اجمل عزفه ...
كانت اصابعه تستجدي الأوتار ...
عزف كما لم يعزف مرة من قبل ... تشابكت عواطفه ،
نداءات تلحّ في انغامه ...
في هذه الحجرة الغريبة ،
انسابت الألحان تحيي ذاك الماضي ... القريب ...
وامتلأت الغرفة ، بجو من الحنين ... حنين الى تلك
الأيام ... الضائعة ...
ثم ...
التقت نظراتنا ... فاختلطت بالأنغام ...
وبصورة لا شعورية ،
سلونا القيثارة ...
وعادت ... من تلقاء نفسها ... الحان الماضي ...

*

فكرت وانا عائدة ، ان ألفريد بقي وحيداً طوال هذه
الفترة ؛

لماذا تركته يشقى في وحدته ؟ لماذا ذهبت الى زياد وانا

أعلم ان ألفريد لن يغادر البيت ، وسيبقى وحيداً ؟
وردّد تمردي : الست حرة ؟ انا حرة !
ولكن ...

هل يشمل معنى الحرية ، سوء التصرف ، وعدم مراعاة
شعور الآخرين ؟

ثم ... ما هي هذه الحرية التي ترغبني على الذهاب الى
زياد ، منقادة ، طائعة ؟
لا ... انا لست حرة !

بمطلق حريتي ... دفنت حريتي ، واحببت زياد ...
اكاد اختنق ! انا لست حرة ! ان هذا الحب يقيدني ،
يكبّلني ، يأسرني ...

تركت ألفريد وحيداً ، اسأت اليه ؛ وهل يستحق زياد
ان اضحي من اجله ، بعاطفة شخص آخر ؟
ولماذا اسيء الى ألفريد ؟ هل ألومه لانه ولد في بلاد غير
بلادي ، وتشرب عادات غير عاداتي ؟ هل ألومه لأن طباعه
لا تتجاوب وطباعي ؟ هل ألومه لأنه يمل في بلدي ؟ هل
ألومه لأنه « هو » ؟
كم انا مخطئة !

وفتحت الباب بهدوء ، ودخلت البيت على أطراف
اصابعي . ماذا سأقول له لو سألني اين كنت ؟ انا لا اخافه ،
انا لا اخاف احداً ، لكنني اكره الاساءة الى انسان لم يؤذني !
انه مازال ساهراً ، فالضوء المتسرب من غرفته يخبرني بذلك .

مشيت حذرة ؛ سألج حجرتي حالاً ، واغرق في
سريري . ولكن صوته ضعضع حذري :
— أهذا انت يا ريم ؟ تعالي ...
اضطربت ، ووقفت مترددة . ثم ... دخلت متثاقلة ،
وابتدرته :

— لقد تأخرتُ ... لأن ...
لم ينتبه لما قلتُ ، بل لم يرفع نظاره عن اللوحة المنصوبة
امامه ، ولم تهتز يده وهي ترسم آخر خط فيها ...
— تعالي ... انظري ... لقد انتهت لوحتي ... ما رأيك ؟
وقفت وراءه ، اتأمل في هذه اللوحة ؛ يد مبسوطة ،
وحبوب القمح في الراحة تبدو كنقاط شمسية تنساب اشعتها
صوب شحرور ، يغرد على غصن بعيد ...

— انا ارسم منذ ذهابك ... وكنت خائفاً ان تعودني قبل
ان انتهي ... ما رأيك ؟

— يعجبني انسجام الألوان ، وهذه الطبقات المختلفة
لكل من اللونين ... لماذا ... لماذا اخترت هذين اللونين ؟
الأزرق والأصفر ؟

— لان مجموعهما يعطي اللون الأخضر . وهو لون الأمل ...

— وهل تمثل الأمل ... هذه اللوحة ؟

— اذا شئت ... انها تمثل الحب ... الحب الذي لا تعرفين .

رفعت حاجبي ساخرة :

— انا لا اعرف الحب ؟

– نعم ... هذا الحب لا احد يعرفه في عصرنا ... الحب المجاني ... الحب للحب لا لأخذ مكافأة ! هذا الحب هو العطاء الدائم ... اليد التي تعطي ، وتعطي ... وتظل طيلة حياتها مبسوطة ، تحمل الحبوب ، والطائر لا يكثر لوجودها . ضحكت .

هل اخبر ألفريد اني افنيت روحي وانا اعطي ؟ لا ! قلت متأثرة :

– انت على حق ... الآن ... الآن فقط انا لا اعرف هذا الحب ؛ كنت أومن ان الحب عطاء ، ان الحب تضحية ، ان الحب هبة النفس دون مقابل ... لا والى مرة لا ... هذا ليس حباً ... هذا غباء ...

وتنبهت على ان لهجتي كانت منفعة : والتفت الى ألفريد ، وتأملني ، وابتسم .
– لماذا تبسم ؟

– لان ما تقولينه صحيح ! ولكن هذا الغباء جميل ... جميل جداً يا ريم ...
ابتسمت بدوري :

– ولوحتك جميلة ... جميلة جداً ...

– اتعجبك فعلاً ؟ اتريدونها ؟

دهشت !

كنت اعلم ان ألفريد يحتفظ بجميع لوحاته ، ويأبى حتى ان يعرضها على جميع الأصدقاء : وكأنه فهم ما جال في

خاطري ، فابتسم وهو يقول :
— انا جاد في قلبي ... رسمتها من اجلك ... انها لك ...

رحت اتقلب في سريري ؛ الحب عطاء ... عطاء ...
عطاء دائم ... نعم آمنت بذلك في الماضي ، فاعطيت ،
واعطيت ، واعطيت ، فماذا كانت النتيجة ؟
أعطيت كل ما في وسعي ان اعطي ، وهل تستطيع
المرأة ان تعطي اكثر مما عندها ؟ حطمت نفسي ، وعصرت
روحي ، وتفانيت في عطائي .

لم اقدم حياتي فحسب ... بل فديت حبي ، بطموح
حياتي ! فماذا كان الرد ؟
كنت ساذجة ، وضعيفة ؛ والضعيف يعطي !
لكنني تعلمت ...

وانا اوأمن الآن ، بأن الحب اخذ وعطاء ، وتفاني
روحين في سبيل الأكمل الأكمل ...

٥

جلست امام طاولتي ، اتساءل :
انا احب الشعر ، لأن الشعر يزين حياتي بالمعاني ...
انا اعطي من وقتي للحرف ، لان الحرف يعطيني لذة ،
ورضاءً ، واملاً ...

ودخلت ناديا وابتدرتني :
— عظيم ! كيف جرى ان استيقظت باكراً ؟ يسرني
ان اجدك غارقة بين أوراقك ...
— صباح الخير يا ناديا ...
— ماذا تكتبين ؟ يجب ان تكتبي دائماً ...
— انا لا اكتب الآن ، بل اسائل الحروف ، واسألك
انت : أليس الحب اخذاً وعطاء ؟

— يا ريم ... انت كطفلة في الرابعة عشرة من عمرها !
ألا تفكرين إلا في الحب ؟
— اصبحت احب الحب !
ضحكت متساعحة :
— هذه مصيبة ، لأنك ستخذلين الحبيب كوسيلة الى
الحب ، لا الحب كوسيلة الى الحبيب ...
علا ضحكي :
— ما اعمق هذه الفلسفة !
— اين ألفريد ؟ هل استيقظ ؟
— انه يدرس في غرفته ؛ تعالي نجلس في الردهة الصفراء
كي لا نزعجه بصوتنا ...
— ريم ... عندي سؤال ... هذه اول مرة احدثك فيها
بكل صراحة ؛ هل وصلت الى قرار في علاقتك مع ألفريد ؟
— انا اعزه يا ناديا ، ولكنني لن أتزوجه ...
— افهمك ... ان ألفريد عظيم ، ولكن ، قد لا تتفقين
معه اطلاقاً ... فانتما الآن ، لا تتفقان على رأي ! هل تفكرين
في الزواج الآن ؟
— مطلقاً ... مع اني الآن افهم ان الزواج ضروري ،
وانه الوسيلة الوحيدة التي تربط الرجل بالمرأة ، فالرجل لا
يؤمن وهو بطبيعته قليل الوفاء ... نعم الآن افهم فوائد الزواج
ولكني ... انا شخصياً لا اريد الزواج ... على الأقل الآن ...
وسكت ؛

وفي سكوتي ، نبع سؤاؤها مفاجئاً ، صريحاً :
— ريم ... اخبريني ، اما زلت تحبين زياد ؟
لم اكن اتوقع ان يعرض عليّ ايّ انسان مثل هذا السؤال ،
فتلعثمت :

— نعم ... لا ... بلى احبه !
ابتسمت وهي تقول :
— مجرد ترددك معناه انك لم تعودي تحينه !
لم اردّ ، لم اقل شيئاً ، فقد عجبت من نفسي ... كيف
اتردد ؟ أنا لست واثقة من حبي لزياد ؟
يعتقد الانسان احياناً انه يفهم موضوعاً معيناً تمام الفهم
فلا يفكر فيه مطلقاً ، وحين يطرح عليه سؤال ، فجأة ،
بخصوص هذا الموضوع ، يجد نفسه عاجزاً عن الأجابة ،
ويتبين له انه لم يفكر مرة في هذا السؤال . وانه يجهل الأجابة ...
— فيم تفكرين ؟

— كنت ايام الدراسة يا ناديا ، اتعمق في شرح المواضيع
الصعبة ، وامرّ بالمواضيع البسيطة مرور الكرام ظناً مني اني
اعرفها تماماً ، وكانت تعزيني الدهشة حين يطرح عليّ الاستاذ
سؤالاً من ابسط ما يكون ، فارتبك في الأجابة ! لماذا
ارتبكت الآن ؟ لست ادري ...

— ترددت في الأجابة ، لانك لا شعورياً ابتدأت تملينه !
— لا ... انت مخطئة ... انا احبه ... احبه كثيراً ...
ابتسمت ... فانزعجتُ :

— أوكد لك انني احبه ... ألا تصدقين ؟
— وما قيمة رأيي انا في هذا الموضوع ... اسمعي يا ريم ،
تسلمت البارحة رسالة من خالك سمير . يقول انه لم يستطع
ان ينهي اعماله في اوروبا ، لذلك سيأتي الى هنا لمدة اسبوعين ،
يعود بعدهما ... وهو يريد ان يصحبني هذه المرة ، ويسألني
اذا كنت انت تودين مرافقتنا ... فما رأيك ؟
— الى اوروبا ؟ هذه فكرة رائعة ... انا بحاجة ماسة
الى السفر ... انا اتوق الى الضياغ في بلاد كبيرة ...
— وسيكون ألفريد في اوروبا ...
فجأة .

فكرت ان ذهابي معناه تركي زياد ؛ لا ... لا ... لن
اذهب ؛ بردت لهجتي وانا اقول :
— على كل حال ... لدينا الوقت الكافي للتفكير في الموضوع .
ووقفت ناديا ، وخرجت ، فقد كانت على موعد مع
صديقة .

ركضت الى الهاتف ، اغرس اصابعي في الدوائر الصغيرة
وازرع لهفتي في الأرقام ...
سأقول له انني احبه ... وانني لا اريد الذهاب الى
اوروبا ... سأقول له أنني انتظر بفارغ الصبر سفر ألفريد ،
لأعيد البيت مثلما كان ، لأخلق من جديد اطار حبنا ،
وليتسنى لي استقباله كل يوم ، وكل ليلة ، وكل ثانية ...

سأقول له أنني ...

وسمعت صوته :

— الو ؟ ريم ؟ يا صباح الخير ... يا اهلاً بصوتك
الجميل ...

— مرحباً زياد ... ما اخبارك ؟

— انا اتحرق شوقاً الى رؤيتك يا حبيبي ... لماذا لم
تخبريني البارحة ، حين وصلت الى البيت ؟ بقيت طوال
الليل ادور في غرفتي قلقاً ...

— لم استطع فقد كان ألفريد ساهراً ، ينتظرنى ... وقد ...
قاطعني مستاءً :

— وهل اكملت السهرة معه ؟

— جلست معه لفترة ...

فهمت من صمته انه تضايق ، فقلت :

— زياد ... انا اخبرك الآن ، لاعتذر عن البارحة ...
قال بفتور :

— هل أراك الليلة ؟

— لست ادري ، سأعمل جهدي ... على كل حال

سأخبرك مرة ثانية ...

واقفلت الخط ، وبقيت يدي تعتصر السماعة : « اخبريني

ايتمها الآلة الجامدة ... اخبريني لماذا لم اقل لزياد كل ما
لاكته افكاري طيلة لحظات ولحظات ؟

لماذا ... لماذا عند سماع صوته ، وعند رويته ، لا اشعر

بشيء من هذه العاطفة الضارمة ؟
لا ...

انا لم اعد احبه مثل قبل ! لماذا اذن اراه ؟ لماذا اجتمع به ؟
ما الذي يدفعني الى محادثته ؟ ما الذي يربطني به حتى الآن ؟
اهي قوة الأستمرار ؟ اهي العادة ؟ اهي صعوبة بتر
العلاقة وهي في الأوج ؟ أنا اتخذه وسيلة الى الحب ؟ كما
قالت ناديا !

ام اني فقط ...
احاول واحاول عبثاً ان احيي فيه ، وفي اللحظات
الحاضرة ، ذكرياتي الجميلة الماضية ؟

فدحت باب القاعة واذا بالفريد يخرج من غرفته ،
- ريم ، يُعرض اليوم فيلم رائع في سينما الدنيا ،
هلي تودين مرافقتي ؟
قلت ، ألومه :

- كيف تستطيع ان تذهب كل يوم الى السينما ؟
اجابني هازئاً :

- وماذا يوجد غير السينما في هذه البلدة ؟ هل ترافقيني ؟
خطر لي خاطر ، نفذته حالاً :
- سندهب غداً اذا شئت ... اما الليلة فأرجوك ان تبقى
هنا ... سأستقبل بعض الأصدقاء ... ويهمني بقاؤك ...
استاء :

— انت تعلمين اني اكره الاستقبالات والاجتماعات ،
استقبلهم انتِ ، ما داموا اصدقاءك ... اما انا فساذهب الى
السينما ...

رفعت نحوه عينين ، راجيتين ، ملحتين ، وقلت برقة :
— ألفريد ... يهمني ... يهمني كثيراً وجودك معهم ...
سأرافقك غداً الى السينما ... اما اليوم فلنسهر هنا ...
جاءت نظراته الثاقبة تنبش في عيوني عن خفايا طلبي ،
ثم امرع الحنان في الحضراوين ، وقال بمكر :
— انت لا تطاقين ... لا تطاقين ...
واردف مطاوعاً :

— سأستقبل اصدقاءك ...
اقربتُ منه بصورة عفوية ، وطبعت على خده قبله شكر
خاطفة . وخرجت مسرعة من القاعة وهو يهز رأسه ويتمتم :
— فعلاً ... لا تطاقين ...

خابرتُ ليلي وبعض الأصدقاء ، وطلبت اليهم ان يأتوا
في المساء ، ثم ادرت الرقم المتنفس في أطراف اصابعي ...
وسمعت صوته :

— ريم ... انا منذ ساعتين مسمّرٌ امام هذا الهاتف ،
انتظر مخابراتك ... هل تأتين اليّ ؟
— لا ... ستأتي انت اليّ! يا زناد ...

سمعته يشهق :

— هل جنت ؟

— ابدأ ... سيأتي كل الأصدقاء ... وانت صديق ...

— انا لا استطيع ... لا اريد ان اقابل ألفريد ...

— لا تكن طفلاً يا زياد ... سأنتظرك ... اريد ان

يحصل التعارف بينكما ... إن ألفريد لطيف جداً ...

— ولكن ... لماذا ؟ ما الذي يدفعك الى مثل هذا التصرف ؟

جاء جوابي من تلقاء نفسه :

— لانني احب المواقف الواضحة ... لانني اوأمن بكل

شيء افعله ، ولا اريد ان اخفي افعالي ! الى متى نتصرف

كاللصوص ؟ اريد ان أراك بصورة طبيعية ... لا تتأخر ...

الى المساء ...

٦

جلستُ ناديا ، تتحدث كعادتها ، باتزان ولطف مع الجميع .

اما ليلي ، فقد كانت مضطربة ، لأنها تخيلت ان الحادثة رواية سينمائية ، ولم تحتمل اعصابها فكرة كونها احدى الممثلات كانت تتبعني اني مشيت لتقول همساً :

— انت مجنونة ! كيف تجرأت ودعوت زياد ؟
فأضحك ، وتثور :

— عدم مبالاةك يقتلني !
ثم تعود الى مقعدها ، تفرغ اضطرابها في احاديث صاخبة !
واما انا فلم اكن اشعر مطلقاً بعدم مبالاة ، بل بشيء من الحزن ... والسخرية ...

وامتدت الأحاديث ... وطال انتظاري ... وتملت
ليلي في مقعدها ، ثم قالت بغنج مصطنع :
— لماذا لا تقدمين لنا كأساً من المشروب ؟
ضحكتُ ، فقد كنت اعلم ان ليلي تكره المشروب وقلت :
— انا فقط انتظر قدوم بقية الاصدقاء ...
فالتفت ألفريد يسأل :
— ومن سيأتي ؟
اجبته بهدوء :
— صديق قديم ، لا اعرف اذا كنت تذكره فقد قابلته
مرة منذ سنوات عندنا ... وصديق آخر موسيقي ،
لا تعرفه ...
لاح السؤال على شفتي ناديا ، طبعياً ، عادياً :
— من هو ؟ ... زياد ؟
هزرت رأسي ايجاباً ، فقالت بلهجتها الجادة الناعمة :
— سيعجبك يا ألفريد ...
واردفت ضاحكة :
— لانه فنان ... مثلك !
أعجبت بترفعها ، واحترمت احساسها المرهف ، وشكرتها
بابتسامة ؛
وفي اللحظة نفسها دوى الجرس .
ارتبكت ليلي ... ونظرت اليّ مرعوبة ...
والقى صديق الى ألفريد نظرة جانبية حذرة ...

اما ناديا ، فقد تابعت حديثها مع البقية ، دون ان تأبه
لإصدار الجرس ...

انسحبت الدماء من وجنتي ألفريد ، لتصخب في وجه
زياد حين تصافحت اليدان . وجاء صوتي يختم التعارف :
- صديقنا الموسيقي زياد ... وطبعاً ... ألفريد
ومرت لحظة ارتباك ، سرعان ما تلاشت ، وانبسط
الأسارير ، وابتسم الاثنان ...
وجلس الجميع . فطلبت من ليلي ان تساعدني في تقديم
كوؤوس الراح ؛

واضفى حديث ناديا الطبيعي ، ومرح ليلي الصاخب ،
ولهاث الحمر ، هدوءاً واسترخاءً على الجو الذي كان من
المنتظر ان يكون ثقيلاً ... محرجاً ...

اخذ الكل يتحدثون ويتجادلون ، وسررت حين جمع
حديث الفن بين زياد وألفريد ، وشاركتهما ناديا المناقشة :
جلست شاردة ، اشرب « الويسكي » واغرق نظراتي
في كأسمي ، لأرى صورتي زياد وألفريد تنعكسان ، مراقصتين ،
في السائل الذهبي الشفاف ...

بينهما !

انا ... بينهما ...

بين فورة الشباب واندفاعه ... وحياة اثقلتها سنون التجارب

بين جبين شمع بالطموح والآمال ... وصدغ خطت
عليه الذكريات اسطراً بيضاً ...

بين قلب يخفق بصمت خلف أسوار كبريائه ... وقلب
انهكه الاستهتار ، ليدنيه اخيراً الندم ...
بينهما ...

بين عاطفة عميقة ، لكن انانية ، تحجب غني الهواء ،
وتنكر عليّ حق الحرية والفردية ... وعاطفة عابرة ، تنكر
عليّ معنى الكرامة ، فتباع وتشري بخصر مياد ، او بشفتين
مكتترتين ، او بنهدين متمردين ... وتُذلني !
بينهما ...

بين خطيبي ... وحيبي ...
وشعرت بحاجة الى البكاء ... شعرت بأنني طفلة صغيرة ،
بعيدة ، غريبة عن الجميع ... وحيدة في وسط صحراء
شاسعة قاحلة ...

وكي اخفي الدمعة المترققة في عيني ، جرعت كأس
دفعه واحدة ، فوقعت نظراتي على زياد ، وكان ينظر اليّ ،
ثم انتقلت الى ألفريد الذي دنا مني ، ليأخذ الكأس الفارغة
من يدي ، يملأها ، يعيدها اليّ من جديد ، والابتسامة
الحنون على شفثيه ...

وددت لو ارتمي بين ذراعيه ، لاستدرّ من شبابه قوة
تحميني من حبي لزياد ...

لكنه ابتعد مع ليلي التي طلبت إليه ان يسمعها الأسطوانات

الجديدة ؛ ثم سمعتهما يناديان زياد ، ليرى هذه الأسطوانات..
فعدت الى كأسى ، وراحت نظراتى السكرى تعمر فيها
وجوداً ...

وتضخمت الكأس ، وطفحت الحمر . وكأنها بحر من
الدموع ...

وامتد طريقان ، متعاكسان... في وسط السائل :
طريق زهت احجاره بالمعاني ، وبديع الألوان ...
وطريق ترنحت زهوره طرباً من الحان رائعة ...
وانا ... انا على مفترق الطريقين ...

فأيهما ... أيهما اسلك ؟
أأسكب دفء حياتي على الاحجار الملونة البديعة ،
فأصبح اميرة هذه الأحجار ... واسيرة هذا الطريق ؟ ام
أطلب الدفء من النسائم الملحنة الرائعة ، فأبقى حرة ،
ولكن ... عابرة ، لا تلتفت الى مروري الزهور ...؟
أيهما اسلك ؟

وفجأة ...

شقت طريق ثالثة ... وامتدت الى اللانهاية ... طريق
نلمع في سمائها الرحبة النجوم ، وتنساب الدموع سواقي على
جوانبها ، وتتفتح الابتسامات وروداً مبعثرة في مساحاتها ...
ورفعت الكأس الى شفاهي ، فاذا النجوم ليست الا ...
حروفاً ... باسمه ...

شعرت حالاً بحاجة الى الاندفاع في هذه الطريق ، لا ذرّ

دموعي في سواقيها ، وازرع ابتساماتي في حناياها ... واحلق
في سماءها ، فاعانق حروفي ، وابثها اسراري ، واضيع بينها ...
وجرعت من الويسكي ، واذا بصوت ناديا يعيدني الى
دنيانا :

— لماذا انت شاردة ؟

ابتسمتُ :

— لست شاردة . انا اعيش في دنيا كأسّي ...
علّق زياد ، وكان قد اقترب منا مع ألفريد ويلي :
— وهل هناك اروع من دنيا الكأس ؟
ثم اردف مازحاً :

— خذينا الى هناك ...

فابتسم ألفريد بمكر ، وقال بهدوء :
— من يدري ؟ قد نكون هناك ...

وارتفع صوت الموسيقى ، ومرت اللحظات ، والتعليقات
تتوالى ، والكل يتناقش ، والكل يضحك ...
وبقيت انا شاردة ... اجرع الكأس تلو الاخرى ،
وامسكُ ... في دنيا كأسّي ... من دمع كأسّي ...

٧

– ريم ... لقد قررت موعد سفري ... نهار الاثنين ...
اي بعد ستة ايام تماماً .

رفعت رأسي الغارق بين الأوراق ، ونظرت الى ألفريد ؛
تابع :

– سأذهب عن طريق تركيا ، الى اليونان حيث امكث
بضعة ايام ، ومن هناك ، استقل الباخرة الى فرنسا .

– وكم من الوقت ستمكث في فرنسا ؟

– ستة اشهر ... ثم اطيح الى اميركا لستين ... ريم .

هل من المنتظر ان ترافقي ناديا وسمير الى اوروبا ؟

– لست ادري ... فالامتحانات في الجامعة تبتدى في

حزيران ...

ضحك :

— لا افهم كيف مستقدمين الى الامتحانات ، وانت
تكتبين الشعر طوال النهار ، ولم تقرئي المواضيع بعد ...
ثم سأل :

— ريم ... ماذا تفعلين الليلة ؟ لقد قاربت الساعة الثامنة ...
هل تسهرين مع الاصدقاء ؟
للساعة الثامنة ! ذهلت ...

كيف نسيت ان اهبي نفسي ، فقد وعدت زياد منذ ايام
بأنني ساسهر معه الليلة ...
وردّد ألفريد سؤاله ، وانهلت نبراته الراجية في قلبي ،
عطفاً وحناناً ...

— ماذا تفعلين الليلة ؟

— لماذا ؟

— لانني اتمنى لو ترافقيني الى احد المطاعم فنأخذ طعام
العشاء ...

وغمغم بطفولة :

— ولا احب ... ان اكون وحيداً ... في مطعم ...
شعرت بحاجة الى سقي حاجته الظامئة ... يرضيني ان
ازين فراغ وحدته ، ويسعدني شعوري الداخلي بأنني اوئس
وحشته ... ولكن ...

لكن زياد ينتظرني ...

وحالاً شعرت بقيود تكبلني ... وبقوة جامحة تدفعني

إليه ... يجب ان اذهب الى زياد ... وانزعجتُ !
الى متى أظلّ عبدة لعاطفتي ؟ انا التي اطالب بالحرية ،
يجدر بي أولاً ان احرر نفسي من عبودية نفسي ...
ونظرت الى ألفريد ؛

كانت عيونه صلاة صامته ...
كيف اخبره اني سأسهر مع « الأصدقاء » ؟ انا لست
خائفة من اسئلته ، او تعليقاته ... فهو لن يقول شيئاً ...
انا اعرفه ؛ لن تختلج اهدابه ، ولن ترتجف شفاهه ، بل
سيدفن في أغوار قلبه اساه العميق ، ليقول بعنفوان :
« لا بأس .. على كل حال ، انا أوثر الذهاب الى السينما .. »

ويبتسم ابتسامة باهتة ويخرج من القاعة ...
لا ... لا ! كيف اقبل ان اجرح ألفريد لأروي من نرفه
جرحي انا ؟ كيف ابني سعادة ليلة على اشلاء نفسيته ؟
ثم ... البارحة فقط اجتمعت صدفة بزياد ، وكنت في
المكتبة العمومية اشترى مجلات ، فلماذا لا اترك مجالاً من
الوقت ، ليزداد شوقي إليه ؟

وسمعت صوت ألفريد ضجراً :

— ماذا بك ؟ الا تسمعين ؟

ضحكتُ :

— بلى ... اسمعك جيداً ... هل تعطيني نصف ساعة

كي اهيئ نفسي ... واراقلك ؟

اعجبني ابتسامته الشاكرة ،

وسرني بريق الفرح في عينيه ،
واطربني صمته المعبر ...
فخرجت مسرعة ، وولجت غرفتي ابحت عن ثوب
جميل يعانق جسدي ، ويعجب ألفريد .

*

— اذن ... سهرت البارحة مع ألفريد ، وتركتني انتظر ...
— لقد رجاني ان ابقى معه ... فأشفقت عليه ...
نظر اليّ حاقداً ، وقال بلهجة فاترة لثيمة :
— اشفقت عليه ! لماذا لا تقولين انك تحببته ؟
— انا اعزّه كثيراً يا زياد ، ولا اريد ان اوذيه ... لكنني
لا احبه ...

— بلى ... انا واثق من انك اصبحت تحببته ! لأن
تصرفاتك تغيرت تماماً ...
— تصرفاتي تغيرت ؟

— بلى ... شيء من البرود اصبح يغشي تصرفاتك ...
انت مثلاً منذ يومين لم تخابريني ...
— وهل تقدر حيي بعدد المخابرات التي افتحها لك ؟
— لا ... انت تغيرت ...

— يا زياد ... ان الظروف التي تحيط بجنبتنا تغيرت ، انا
لا احب ألفريد ... واذا كان يرضيك ان تعلم مدى علاقتنا
فسأعترف لك بأنه لم تكن بيني وبينه اية علاقة ! وهو لم ...

لم يقبلني !

— لا تكذبي عليّ يا ريم ...

— لم يقبلني ... لم يمسّ يدي ...

فتح عينيه مستغرباً ، وتمتم :

— هذا مستحيل !

غاضتني كلماته :

— الأنني سمحت لك بأن تقبلني ، أصبحت تعتقد ان

اي رجل باستطاعته ذلك ؟ انا لا احب ألفريد ، واذا كنت

لا افارقه هذه الأيام ، فلأنه مسافر بعد خمسة ايام ...

— حبيتي ... انا ...

قاطعته :

— ان غيرتك في غير موضعها ... حاول ان تفهم

ظروفي ... لقد عملت المستحيل حتى آتي اليك اليوم ، لاني

لن استطيع ان اجتمع بك في الأيام الخمسة المقبلة ... فانا

لا اريد ان اتركه ... انا اعزه ... حاول ان تفهم ذلك ...

— حبيتي ... ان اعترافك اجمل هدية يمكن ان تقدم

اليّ ...

واقرب ، واحتواني بين ذراعيه ، وقال ثملاً بنشوة الفرح :

— حبيتي ... كيف اقبل ان يسكر من رحيق شفيتك

رجل غيري ؟ انا احبك ... احبك ... انا لم اعد اتحمل

فكرة سهراتك الكثيرة مع الاصدقاء ... من هم هؤلاء

الاصدقاء ... ريم ... انا اغار عليك ... اغار ...

« يغار عليّ ! »

ان غيرته اليوم تغيظني ... وتضايقني ! هذه الغيرة حصار
يرسم الدوائر حول حياتي ... ويضيق ... ويضيق ... ويكبلي ..
ويخنق انفاسي ...

وشعر بيرودي فقال :

– لكنك تغيرت ... انت لا تحبيني مثل قبل ...
– انت تعلم انك الوحيد الذي أحب
– لا ... لا ... أشعر بانك لم تعود تحبيني
– يا زياد ... ان حبي ما زال كما هو ... لكنه اتخذ
شكلاً جديداً ... كنت تضيق بحبي الجنوني ، فها انا اليوم
اعطيك حباً هادئاً عميقاً ...
– لقد كنت احمق يا ريم ، ولم اقدر عاطفتك الصافية
الشفافة ...

– كانت عاطفتي ساذجة ... انا الآن احبك بفن !

صرخ :

– لا ... لا ... لا اريدك ان تحبيني بفن ... انا بحاجة
الى جنونك ... بحاجة الى ان اشعر بأن حبك يغمرني ...
– لكنني احبك يا زياد ... احبك كثيراً ... انا ...
احنى رأسه ، يرشف الكلمات العذاب من شفاهي ،
ثم ابتعد عني ليسأل مدعوراً :
– لقد اخبرني ليلي بأنك قد تذهبن الى اوروبا ...

هذا صحيح ؟

— لست ادري يا زياد ... لكنني اتوق الى السفر
غمغم حزيناً :

— ماذا افعل لو ذهبت ؟
اجبته مازحة :

— سأمر بذكراك في بعض الأحيان ...
هزّ رأسه مستنكراً ... ثم سأل فجأة :
— ريم ... هل تتزوجيني ؟
ما اقسى القدر !

لو القى عليّ هذا السؤال منذ شهرين فقط ، لارتيمت
بين ذراعيه ، ولأجابته دموع فرحي ؛
لكنني اليوم ارى الهاوية السحيقة التي انزلق فيها لو
تزوجته ... سألته بدوري :
— لماذا تريد الزواج ؟

— لانني احبك يا ريم ... ولا اريد غيرك أماً لأولادي ...
انا الآن اتوق الى الحياة الهادئة ... الى الحياة العائلية النظيفة ...
اصبحت لا اطيق وحدتي ...

— ولكن الوحدة خصبة ... اليست هذه آراؤك ؟
— لم اعد اطيعها ... بل لقد صرت اخافها ... واخاف
من المستقبل ... لأول مرة اشعر بأنني فعلاً وحيد ... احبك
يا ريم ... واريد طفلاً منك ... ولا اريده الا منك ...
قدفني الحنين الى الماضي ، فابتسمت بمرارة ، وحشرجت :
— طفلة ... وسندعوها « لنا » ...

— احبك يا ريم ... هل تتزوجيني ؟
اعادني السؤال الى الواقع ، وكأن حنيني لم يكن سوى
بريق ، لمع واختفى في ظلام الذكريات ...
هل اتزوج زياد ؟ هل اضحي بكل شي عندي من اجله ؟
هل اضحي بفني ... بشعري ، لاصبح آلة تعطي اطفالاً ؟
قطعة من اثاث بيت زياد... يستعملها حين يشاء ... ويضيق ...
يضيق عليها الحصار ، دون ان يسمح لها بأن تشاركه حياته ؟
— فيم تفكرين ؟

— يا زياد ... الفن والزواج لا يجتمعان ...
— ارجوك ... لا تحاربيني بأرائي ...
— لكنها أصبحت آرائي ... انا مؤمنة بها ... كيف
تضحي بفنك وتزوجني ؟

— اذا طلب مني ان اختار بينك وبين فني فلن اتردد
لحظة ... انا لا اريد شيئاً غيرك في هذه الحياة ...
— هل جننت يا زياد ؟ انت تحب فنك ... ويجب ان
تعيش من اجل فنك ... ان فنك هو الشيء الوحيد الذي
يستحق التضحية . نعم كنت اريد الزواج ... كنت ارحب
بالزواج عندما كنت ضعيفة ... تأهة ... لكنك انت يا زياد
حملتني الى الواقع ... علمتني ان احب فني أن اعني
بفني ... ان اعيش للشعر ... وانا الآن مؤمنة بان الزواج
والفن لا يجتمعان ...

تأملني ملياً ، وغمغم :

– وتقولين انك تحبينني !

– احبك نعم احبك ... ولكن يجب ان نكون واقعيين ،
ونستعمل منطقنا ... كيف تضحى بفنك من اجلي ؟ ان فنك
كبير ... عظيم ، وانا امرأة ... امرأة كسائر النساء ، امرأة
عابرة في حياتك ... انت تحبني اليوم ، وقد تبغضني غداً ...
من يدري ؟ عاطفتنا تافهة مثلنا ... تكبر ، وتهرم ، وتزول ...
ولا احد يدري متى ، ولماذا تزول ... اما فنك فسيبقى ...
– تغيرت ... تغيرت كثيراً ...

– وانت تغيرت يا زياد ...

– حملتك الى الواقع ... نعم ... علمتك ان تعيشي
الواقع ... علمتك ان تحبي فنك ... علمتك ان تصبحي
قوية ... علمتك ... علمتك ... فقدت حبك ...
اغرورقت عيناى بالدهوع ، وتمتت حزينه ، يائسة :
– حتى انت ... تعتقد اني لا احبك ... زياد ... انظر
اليّ ... ان احب انساناً مثلما احببتك ...

امرّ يديه على وجهي ، كما يتحسس الفقير اناءً ذهبياً ،
ثم تركه فجأة ، وجاءت ذراعاها تقبضان عليّ بشدة وقساوة ،
ووثبت شفاهه محاولان تمزيق شفاهي ، وكأنه يريد ان يصب
في شفاهي نغمته من عاطفتي الواقعية ؛

ارتعش جسدي ، وهدج صوتي في توسله :

– زياد ... قل لي إنك تعرف اني احبك ... ارجوك

زياد ... قل لي ...

لم يقل ، لكنه تتمم :
- كنت غيباً ... كنت غيباً ... اكنني لم ادر اني ساحبك
الى هذا الحد ...

خرجت من عند زياد ، واليأس يرهق نفسي ... لماذا
يتلاعب القدر بعاطفتنا ؟
ان زياد اليوم كما تمنيته دائماً ان يكون ، اما انا اليوم
فكما كان يجب ان اكون ...
نعم ... تغيرنا نحن الاثنان !
نجحت الظروف في تحويل محرى عاطفة كل منا ...
نجح شعري وفي ، في ايقاظي على عالم الواقع ، وعجزت
بالمئات الواقع ان تنسيه حي ...
اصبح هو الانسان المتدفق شعوره ، وصرت انا ، المرأة
الواقعية التي لا تؤمن بالعاطفة ... ! يا للسخرية !
وصلت الى بيتي حزينة ... ما همني تأخري ؟ سأعترف
لألفريد بكل شيء ...
لقيته واقفاً في القاعة :

- اهلاً ريم ... تأخرت ... فقد كان عندي صديق
يود ان يراك ، لكنه لم يستطع ان ينتظرك وذهب منذ
لحظات ... ولكن ... ما بك ؟
- ألفريد ... اشعر بيأس ...

– قطي الصغيرة في حالة ياس ؟ تعالي ... اجلسي الى جانبي ، واخبريني ما بك ...

– ألفريد ... يجب ان ... لكن كيف ...؟

– ريم ... لماذا تخافين ان تخبريني بالذي يزعجك ؟ انت تعلمين اني لست سوى صديق لك ... صديق يحبك كثيراً ، ويخلص لك ... ويريد مساعدتك ...

– ألفريد ... لقد ... لقد تعرفت في غيابك بشخص ... واعجبني ... واحبته ...

علت شفتيه ابتسامة حنون وقال :

– اعرف قصتك يا ريم ...

سكت ، واستجوبته نظراتي فتابع :

– ولا تعجبي ... هل تظنين انه يوجد شخص في هذا البلد لا يجد لذة في الاساءة الى غيره ؟ الناس هنا يعيشون للاقاويل ... ويتغذون بقصص الآخرين ... وقد جاءني اكثر من واحد يخبرني بقصتك ... وضحك ساخراً وهو يتابع :

– وطبعاً ، كان كل واحد يعتقد انه يؤدي لي خدمة كبرى ...!

– ولكن ... ما همهم اذا عرفت قصتي ام لا ...؟

– يا ريم ... يظهر انك ما زلت طفلة ... يجب الا تسدل طية قلبك غشاوة على عيونك ، ان الناس هنا يجدون لذة كبرى في اثاره المشاكل ، ويسرهم كثيراً حزن الآخرين ...

وطبعاً كان املهم ان أغضب ، واثور ، واثخاصم معك !
- ولكنني لا اعتقد اني اسأت الى اي شخص يا ألفريد ؟
- متى تفهمين ان كل واحد يشمت بالآخر لمصيبة تحل
به ، دون ان يكون المصاب قد اساء الى احد ؟ ولكن ثقني ...
لقد اخبرت الجميع بأنني اعرف قصتك ، واني احبك .
واحترمك ...

- ولمَ لم تحدثني بهذا الموضوع ؟ لماذا تجاهلته ؟
- ولماذا احداثك به ؟ انا ليس لي حق التدخل في مشاكلك
الخاصة ، فأنت حرة تماماً ، ونحن لسنا مخطوبين كما تعلمين ،
وما اردت ان اتطفل عليك فتعتقدين خطأ اني اعاتبك ،
او انقم عليك ، او اطالب بشيء ليس من حقي ...
تذكرت حالاً حادثة الليلة الاولى لاجتماعنا ، وكأنه
قرأ تفكيري ، فقال :

- يا ريم ... اذا اردت ان اقبلك فما ذلك لانك خطيبي ،
او لأنني اعتقدت انك خطيبي ... بل لأنني احبك . ولم
استطع في تلك الليلة ان اكبت شوقي الصارخ اليك ... والآن
اطلب منك ان تعذريني اذا جرحت مشاعرك ...
طفح قلبي بعواطف سامية ، يائسة ... تعانقت ...
وتشابكت لتفيض بسكون دموعاً تغسل خدي . وقربت
رأسي المتعب بحركة فطرية ، لادفن وجهي في كتف ألفريد ...
- ماذا بك الآن يا ريم ؟ ماذا بك ؟

- اشعر ... بوحدة ... غريبة ...

— يا ريم ... اصغي الي ... يجب ان تعلمي انك لن
تجدي صديقاً لك احسن من نفسك ! القوة كامنة في اعماقك ...
اوجدوها ... لا تنتظري ان يساعدك احد في حل مشاكلك
لأن الناس ، عند الحاجة اليهم ، يتبخرون ... والاصدقاء
يختفون ! كل واحد منا اناني ، يركض وراء غاياته ولن
يفيدك احد ... السعادة والراحة في نفسك ، وعندما تتفقين
ونفسك تصبحين قوية جداً ... هيا ارفعي اليّ هذا الوجه
الجميل ... وابتسمي ! ماذا ينفع البكاء ؟ هيا ارفعي رأسك ،
وانظري اليّ ... اليس من الحرام ان تبكي هذه العيون ؟
— ما اتفه الحياة !

— الحياة جميلة ... جميلة جداً ، ولكن يجب ان تفهميها
لتفهمي وتري جمالها ...
وأردف مازحاً :

— انتِ تصبحين تافهة عندما تيأسين ! ومع ذلك انا
مستعد الآن ، لأن اصطحبك الى نزهة في السيارة ... فاجمل
ما في دمشق لياليها ... هيا بنا ... وأعدك ، بأنني لن اسرع ...

٨

وصل خالي من اوروبا ، وعادت ناديا الى بيتها ،
فجاءت جدتي تقيم عندي ، لان فكرة بقائي وحيدة مع
ألفريد زعزعت كيانها ، ولم تدرك ان وجودها وعلمه ،
لا يعنيان شيئاً بالنسبة الى تصرفي مع ألفريد .

وحين شرحت لها هذا قالت كالعادة :

— انا واثقة منك يا حبيبي ، ولكن ... ماذا سيقول

الناس ؟

وضحكت ساخرة ؛

ساخرة من ثقة الأهل العمياء بأولادهم ، ومن هذه

« ماذا سيقول الناس ... »

طبعاً ، ماذا سيقول الناس ؟

الناس الذين يشكون في اخلاقي ، بل يحكمون على اخلاقي إذا تجرأت ودعوت شاباً لأخذ فنجان من القهوة في بيتي ... لان تفكيرهم يدور حول محور واحد ، ويصرّون على اعتقادهم بان اجتماع اي رجل باية امرأة . يجب ان يؤدي الى النتيجة التي رسمها الحرمان في مخيلتهم !
نعم ... ماذا سيقول الناس اذا بقيت وحيدة في بيتي مع رجل لم اتزوجه بعد ؟

ولم احاول ان اشرح لها ، ان احكامي وتصرفاتي يلفظها عالمٌ نفسي ، لا تفكير الناس ... فهي لن تفهم اني كما ازلت ، برغم آراء الجميع ، الحواجز المنيعة التي كانت تفرقي عن زياد ، اقيم الآن ، بنفسني ، الحواجز بيني وبين ألفريد . برغم مفهوم الناس ايضاً !

ومرت الأيام الخمسة ، وكان زياد يخبرني كل يوم ، وجاء مرة ليودع ألفريد وجلس معه فترة طويلة ، وانسجما في الحديث ، ثم اصرّ ألفريد عليه ان يتناول الغداء معنا ، مما جعل جدتي تحبس نفسها في غرفتها ، وتثور ...

وفي اليوم الأخير ، وكان البيت يعج بالأهل والاصدقاء ، دخلت غرفة ألفريد . احمل اليه فنجاناً من القهوة :
- هل تريدني ان اساعدك بشي ؟
- نعم ... اجلسي هنا ... نتحدث

— لكن الاصدقاء ينتظروننا في الردهة ...

— فلينتظروا ...

اسندت ظهري الى الحائط ، قال :

— يا ريم ... نحن لم نتحدث مطلقاً عن خطبتنا ...

فتحت عيني ، دهشة ، ثم قلت بتحد :

— لكننا لسنا مخطوبين ...

لم يترعزع هدوء لهجته :

— انا وانت متفاهمان على ذلك ، ولكن الجميع يعتقدون

اننا مخطوبان ...

— انهم سخفاء ... يجب ان نطلعهم على الحقيقة ، يجب

ان يفهموا ان كل واحد منا حرّ تماماً ...

— بماذا تهملك آراؤهم ؟ ولماذا نعرض انفسنا لاقاويل

جديدة ؟

— ولكن ، من المستحيل ان ابقى مخطوبة اليك ...

أورق الحنان بابتسامة على ثغره :

— لماذا يا ريم ؟

— لأنني ... لأنني ...

واحمرت وجنتاي ، وتمتعت :

— انت تعرف قصتي ...

قال بحزم :

— انا لا تهمني هذه القصة ، ولا جميع القصص التي

قد تجري معك ، انا احترمك كثيراً يا ريم ... ولن احاسبك.

على ماضيك ... على سنين قضيتها وانا بعيد عنك ... انا
لن اطلب منك اخلاصاً ، اذا كنت لن ابادلك انا هذا
الأخلاص ... انت انसानه يا ريم ... لك حق في الحياة مثلي
تماماً ... ولست سخيلاً كي اطلب ان امتلك حتى ماضيك ...
انا الآن لا اريد الزواج ، فأمامي سنون يجب ان اتم فيها
دراستي ؛ فإذا كنت لا ترغبين انت الآن في الزواج بشخص
آخر ، فلماذا لا نظل مخطوبين ، ونحرم الناس من لذة
قصة جديدة يلوكونها ؟ ما رأيك ؟ اما زلت مصرّة على ان
نفسخ هذه الخطبة ؟

بقيت صامته ، امضغ آراءه ، واتلذذ بطعمها :
« انت انसानه ... لك حق في الحياة ... مثلي تماماً ... »
« لك حق في الحياة ... لك حق في الحياة ... »
ما اروع هذه الجملة :

انا انसानه لي حق في الحياة ...

هل يتجرأ زياد على التفوه بمثل هذه الجملة ؟ هل يسمح
له غروره الشرقي بأن يعترف لي بحقي ... ان يعترف بأنني
لست قطعة من اثاث البيت ؟

— لماذا سكت ؟ يا ريم ... انا قد لا اعود الى هذه البلاد
بعد انتهاء دراستي ، ولكن ، من يدري ما سيحمله لنا
المستقبل ؟ ربما رست سفينتنا في يوم من الأيام على مرفأ
واحد ... فلم نقطع آخر خيط في موضوع خطبتنا ؟ لم
التسرع ، والأيام امامنا ؟ ليسر كل منا في طريقه ، ربما

أتحدث الطريقان في يوم من الأيام ...
وسكتَ لحظة ، ثم قال بصوت حنون :
— هناك شيء آخر ... أريدك أن تعرفيه قبل أن اذهب ...
انصبت نظراتي على شفثيه ، تسحب السرّ العميق ؛
فارتعشت الشفتان ... ولمعت العينان ... لكنه تمتم بهدوء :
— أنا احبك يا ريم ... احبك كثيراً ... وحي لك اعمق
واسمى مما تتخيلين ...
لست ادري لماذا اغرورقت عيناى بالدموع ... وابتسمت
برقة ، ولم يسعني الا ان اقول :
— أنا صديقة دائماً يا ألفريد ... لك الحق ... من يدري
ما سيحمله لنا المستقبل ...
وسمعنا طرقة خافتاً على الباب ، تبعه صوت ناديا :
— الاصدقاء ينتظرون !
والتفتُ الى ألفريد ، والتقت نظراتنا ، فابتسمنا ، بخنان
واخلاص ، متفاهمين ...
وقال :
— هيا بنا ... لقد انتظرونا طويلاً ... وقد حان وقت
سفري ...

وقفت وسط حجرتي تأهيةً ... أفتش عن صوت أو
 حركة ... أفتش في سكون بيتي عن مكنون نفسي ...
 ولكن الفوضى تعم ... والفوضى تجزئي ... وفتت
 افكاري ...

سافر ألفريد ، وانصرف جميع الأهل والاصدقاء ،
 ورافقت رانية والمربية جدتي ، لتقضيها عندها بضعة ايام ،
 وبقيت وحدي ...

وحدي في هذه الفوضى التي تتعبي ...
 يجب ان اخبر زياد ... اريد ان أراه ... لكنني لا أستطيع
 ان أراه في هذا الجو المضطرب ...
 خرجت الى القاعة ، ثم رحت ادور في بيتي ، ونفسي

قطاير ، ولا تجد مكاناً أميناً ترتاح فيه ...

ووقفت عند باب غرفة ألفريد ...

وفتحته على مهل ... والقيت نظرة الى الداخل ...

الفوضى تعشش في هذه الغرفة ... تتمدد فيها ... تملأ

جوها ...

دخلتُ بحذر ... ومشيت على رؤوس اصابعي ، وكأني

خفت ان ادوس على رماد سجائره المذرور على الارض ،

او ان تحفّ قدماي جريدة من جرائده الفرنسية المرمية هنا

وهناك ... فتحدث هسهسة تخدش صمت احتراممي ...

وعانقت نظراتي كتاباً نسيه على الطاولة ، ثم مددت يدي

بوجل التقط ربطة عنق زرقاء لطخت ببقع من القهوة ؛

كان يرتديها منذ يومين ويشرب القهوة ، فدخلت رانية

راكضة ، وارتمت بين ذراعيه بطيش ، فاندلقت القهوة ...

وحين وبختها نظر اليّ معاتباً ، وقال لي فيما بعد :

« لماذا توبخنيها ؟ يكفيها توبيخ نفسها ... الم تري كيف

ارتبكت وخجلت من نفسها ؟ »

ثم ضحك : « توبيخك على كل حال لن يعيد لي ربطة

العنق ... »

تحسستها ... ومسحتها بأناملي ... وطويتها برفق ؛

سأجد لها مكاناً في خزانتي ...

والكتاب ... سأضعه على طاولتي ... وسأحاول ان

اقرأه ...

واختلجت عيوني للوحة ، ثم غابت نظراتي في اليد
المبسوطة ... اليد التي تعطي ... وتعطي ... وتعطي لوجه
العطاء ... اليد التي تعطي دائماً ، ولا تأخذ شيئاً ...
وفجأة ،

طفرت دموعي : وتنهت على اني تعب ... لاغبة ...
فارتيت على المقعد ... اغسل تعبي بالدموع ...

ومرت لحظات ...
ودخلت دنا تحمل فنجاناً من القهوة وغمغت بنجمل
وبراءة :

— فكرت انك قد ترغبين في فنجان من القهوة
رفعتُ رأسي اشكرها ، واذا بالعبرات جدولان على
خديها : هزت رأسها ، وهتفت باخلاص :
— الله يوصله بالسلامة ... سنفتقده ...

فاض العطف في قلبي ...
وخيل لي اني ارى ألفريد وهو يصافح الجميع ، ثم
يقف مرتبكاً قبالي ... ان يقول اشياء واشياء ، لكنه لا
يتفوه الا بهذه الجملة الطبيعية :

« حاولي ان تأتي الى اوروبا قبل سفري الى اميركا ...
فنجتمع هناك لشهر من الزمن ... »
ثم ... يعانقني بسرعة ، ويهمس في اذني :
« لا تنسي اني احبك ... الوداع ... »

ليتني جمعت عطفي في قبلة اهديتها الى ثغره ... ليتني
وشوشته أنني اعزه كثيراً واحترمه ... ليتني هتفت على الاقل
اني سأفتقده ...

لم اقل شيئاً ...

وانا الآن احاول ان اردّ الى اشيائه المتروكة ، قليلاً
من التقدير الذي اشعر به نحوه ...
وتمتت ... :

– نعم ... سنفتقده !

وساد السكوت ... الحزين

وبعد فترة سألتُ دنا :

– هل ابدأ بترتيب البيت ؟

شلت هذه الحملة حالاً تفكيري في ألفريد ، وامتلأ
كياني بنشاط جديد :

– طبعاً يا دنا ... سنبتدى بالترتيب والتنظيف ثم نعيد
كل شيء الى مكانه القديم ... القديم ...
وركضت الى الهاتف ادير رقم زياد ؛
سأطلب منه ان يأتي الى غداً ...
فغداً ...

سيفوح الهدوء الموحى من كل زاوية ...

غداً ... سيربض المقعد الأخصر الى جانب المذيع ينتظر
باخلاص سيده ...

غداً ... ستنعكس أضواء للفانوس الأصفر الباهتة على
جدران الكهف الأسود ، لتتسرب الى الديوان الفاتح لنا
فراعيه ...

نعم ... غداً ... سيبعث من جديد اطار حبنا ...
غداً ... سيعيش الماضي ...

*

وجاء الغد ...
وغاب في غياب للشمس تعبي ... ونما مع الظلام شوقي
الى زياد ...
سيأتي بعد ساعة ...

ودخلت غرفتي ، وفتحت خزانة ملابسي ، ووقفت
انظر الى الثياب الملونة ؛
من جديد اسائل نفسي : اي ثوب ارتدي ؟ هذه
الأثواب الجوخية قد ولى موسمها . فالربيع يرقص في
سما بلدتي الجميلة ...

ووقعت نظراتي على اثواب « الكوكتيل » المزدحمة في
سجنها ... سجنها الاضطرابي ، لأن بلدتي لا تفسح لها
طريقاً للظهور ؛ فلا « اوبرا » ، ولا مسرح ، ولا فرق
موسيقية ، ولا سهرات باهرة ، وقلما ... قلما تحدث حفلة
رسمية ؛

فلماذا لا ارتدي ثوب كوكتيل لاستقبال زياد ؟ اليس

هذه الليلة مناسبة ؟ ليس هو اولى من الجميع بالتمتع بأناقتي ؟
اي لون اختار من هذه الألوان الثلاثة ؟
الأسود ؟

لا ... انا اشعر بشبابي لليوم ، فلماذا احزن على شبابي ؟
الأزرق ؟

لا ... انا لا احب اللون الأزرق !
وامعدت يدي تلتقط الثوب الثالث ؛ اما اشتريته من
اجلى زياد ؟ الم يقل ان هذا اللون يلائمني ؟

وتسللت في الثوب ، واشرب رأسي من اعلاه باحثاً
عن المرأة ، وتأملت نفسي :
نسي التفنا الأخضر اكتافي ... وحضن برفق نهدي ...
وشدّ ... شدّ على الحصر الرقيق ... ليتدفق بغزارة ،
شلالات ربيع على الأوراك ...
الربيع يرقص في بلدي ، وثوبي ، كالعشب مع النسيم ،
يتماوج في المرأة ...

لماذا اكره الربيع ؟
انا ما زلت في ربيع عمري ... هل اظل اكرهه حين
يخط الشيب شعري ؟
لماذا اكرهه ؟
لأنه يعود كل سنة ، وانا عابرة ؟

الأنه خالد ، وأنا اسير نحو الفناء ؟
ام لأنه يوقظ في كياني جوعاً الى الحياة ولا اجد في الحياة
ما يسدّ جوعي ؟

وشعرت بحاجة الى استنشاق الهواء الطلق ، فاقتربت من
نافذتي ، ونظرت الى الغصن المتدلي من الشجرة الكبيرة ...
ان روحي تورق مع الأغصان ... وقلبي يبرعم مع
الورود ... وجسدي يسكر نشوان من النسيم العاطر ...
انا انفتح مع الربيع ...

انا بحاجة الى ان املأ الدنيا بأزهار ربيعي ...
انا بحاجة الى ان اسكر الدنيا بعبير ازهاري ...
انا بحاجة الى فضاء رحب ... الى سماوات جديدة ...
الى آفاق جديدة ...

انا اكره الربيع لانه يذكرني بحدود حياتي ...

واكد حدودَ حياتي صوتُ دنا وهي تقول :
- آنسة ريم ... الاستاذ زياد في الردهة ...
عدت الى المرأة اسألها للمرة الأخيرة عن شكلي ،
وابتسمت راضية ، ومشيت ... اليه ...
لم يأبه لوقع اقدمي ، بل ظلّ على الكرسيّ الصغير ،
خاشعاً امام الكهف الأسود ، وتمتم ، وبريق عينيه يختلط
بأشعة الفانوس الأصفر :
- هذه الغرفة معبدي ... يا ريم ... اني أسجد لهذا

الفانوس ...

ثم التفت اليّ ، فجمد الكلام في فيه ، وانطبقت الجفون
على صورتني ، لتؤكد من انها لا تحلم ، ثم ارتفعت الأهداب ،
وتحرّكت الشفاه :

- يا الهي ... لماذا تجملت هكذا ؟

- لاستقبالك !

- حبيتي ... حبيتي ... انا احبك كيفما كنت ...
ثم ابتسم :

- لمن اسجد ؟ ألهذا الفانوس ام للاكتاف المرمية ؟
اقتربت منه ، ونظرت الى الفانوس ، نظرة الأم إلى
طفلها العائد ، وقلت بحنان :

- فانوسي الصغير ... كم أحبك ! ... هل لك يا زياد
في كأس من مشروبنا القديم ؟
ظل ينظر اليّ مشدوهاً :

- ريم ... اكاد ألا اصدق ... هذا الجو فوق قدرة
احتمالي ... ان بيتك اليوم اعجوبة ... هذا الجو الرائع ...
مثل قبل ... مثل قبل تماماً ... كيف لم اقدره من قبل ؟
اعتبرته طبيعياً ... اعتبرته عادياً ... كنت بطراً يا ريم ...
الآن اقدره لأنني ضعت حين ولى ... لانني كنت طوال
هذه الفترة كالسمكة التي تلفظها الى البر بحيرتها الأنيقة ...
نعم ... ارحب بكأس المشروب ...

خرجت من القاعة ، ووقف هو يبحث بين الاسطوانات

عن الحان « شوبان » ... القديمة ... التي احب ...

قدمت له كأس مشروبنا القديم ، وفكرت في ان اتكؤم
عند قدميه ، كما كنت افعل في الماضي ، لكن الفكرة لم
تطربني ... وخفت على ثوبي ؛ ستثني شلالاته الربيعية ،
وتتكسر ...

هل اجلس على حافة مقعده ؟ لكنني لن استريح في
جلستي ، وستكون حركتي مصطنعة !

لماذا لا اتصرف حسب طبيعتي ، فارتمي على المقعد المقابل ؟
وطاف المقعد بثوبي ... وطاف قلبي بآمال مبهمة ؛
ورُحْتُ اأمل بصورة مجردة كل ما حولي :

هو جالس على مقعده القديم ... في الركن القديم ...
وخيل اليّ ان الأضواء الخافتة المنبعثة من الزوايا ليست
سوى الحان لشوبان ...

والفانوس الأصفر ، قمر شاحب ، تنهمر خيوطه الذهبية ،
على بحر من الهدوء والحب ... والستائر « البيكاسو » المسدلة
تمنع دفء خلوتنا من التسرب الى الخارج ...
نعم ...

الماضي هنا ... الماضي يعيش من جديد ... كل شيء
كما كان ... كل شيء ... الا انا !
واغمضت اجفاني مترعجة ؛ الى متى انكر اني تغيرت ؟
ومتى اعترف بأن عاطفتي تجفّ يوماً بعد يوم ؟

وشعرت بانقباض :

هذا الجو المختق ... يخيفني ... انا بحاجة الى أنوار ...
الى أشعة ساطعة ... الى آفاق واسعة ... واسعة ...
ورفعت أهدابي المتثاقلة ؛ كان يراقبني :
— أنت تعب يا ريم ؟

— نعم ... لقد اشتغلت كثيراً هذين اليومين ؛ زياد ...
هل ... هل تصحبي في سيارتك الى نزهة ؟ او الى اي مكان
استمتع فيه بالهواء الطلق ؟
أحسست بأنه تضايق ، لكنه غمغم :
— طبعاً ... طبعاً ...
ابتسمتُ :

— اذن حين ننتهي من كأسينا ...
ودخلت غرفتي ، أحضر معطفي ليحمي اكتافي اولاً
من رطوبة ليالي نيسان ... ثم ... من نظرات الناس ...
لللاذعة ...

تململت من على مضجعي ، ومددت يداً كسلى تداعب
الهاتف ، وتوقف انينه ؛

ووصل الى اسماعي من الطرف الآخر صوت ناديا :

— « الو » ريم ؟ نحن بانتظارك ...

— انا منهوكة القوى يا ناديا ...

— اعرف انك تعبت اليوم ، لكن الساعة لم تجاوز الثامنة

بعد ، استريحى قليلاً ولا بأس اذا جئت الينا في العاشرة ،

فالأصدقاء كلهم سيكونون عندنا ...

— هل تقرر موعد سفركم الى اوروبا يا ناديا ؟

— نعم ... يوم الخميس ... اي بعد ثلاثة ايام وما زلت

آمل ان تبدي قرارك ، وترافقينا ... امامك ثلاثة ايام ...

وجواز سفرك مهياً
ضحكتُ :

— نعم ... حتى اليوم الثالث « يخلق الله مالا تعلمون »
وانهت حديثها :
— حاولي الا تتأخري ...

عدت اغرق جسدي في السرير ، استمد من طراوة
الفراش لذة الكسل ...
انا تعب ...

قضيت نهاري اركض شمالاً ويميناً وأبذل جهدي لتكون
حفلة عيد ميلاد رانية ناجحة ؛ وزاد في ارهاقي اعتنائي
بخمسة عشر طفلاً من اولاد الجيران ، اصدقاء رانية !
ودخلتُ دنا :

— آنستي ... نامت رانية ... هل تطلبين مني خدمة
قبل ان انام ؟

— لا يا دنا ... شكراً لك ... سأذهب بعد قليل الى
بيت خالي ... تصبحين على خير ...

ومرت لحظات ، وانا مستلقية على فراشي ، وافكاري
التي اسكرها التعب ، مبعثرةٌ في « اللاشيء » ، ونظراتي
مضمحلة في بياض السقف ! واخيراً ، نهضت ، وغسلت
وجهي بمياه باردة وانا ابتسم ساخرة من نفسي ؛

ما اكسلي !
« الكسل من اجمل صفاتي ... ، جملة طالما سمعتها
من ألفريد ...

وشعرت بحنين ... من يدري متى اجتمع به مرة اخرى ؟
وارتديت ثيابي على عجل ، ووصفت شعري ، واقتربت
من الهاتف ، فقد وعدت زياد بأن اخبره عندما يفرغ
بيتي من ضوضائه ...
ولكنني فكرت :

« لماذا لا اذهب اليه عوضاً عن ان اخبره ؟ وماذا بها
اذا لم احضر سهرة ناديا ؟ ليست هذه المرة الاولى التي لا
ألي فيها دعوة ! ثم ... قد ابقى بضع لحظات عند زياد ،
وأذهب بعدها الى ناديا ... »

وركبت سيارتي ، ومن تلقاء نفسها قادتني الى زياد ...
— يا اهلاً بحبيبي ... يا اهلاً ... كيف كانت حفلة رانية ؟
— لا بأس ، ولكنني لا اصلح لأن اكون أمّاً ... فالاعتناء
بالأطفال ضياع وقت

— لا تكوني عديمة الشعور ... انا احب الأطفال ...
وقلبي يهفو لرؤية اي طفل ...
ابتسمت ؛

ليت ليلى تسمع آراء زياد ...

جلس بالقرب مني ، واخذ يحدثني عن الحفلة التي كان
قد دعي اليها في الأمس ، ثم تبادلنا الرأي في الكتاب الأخير
الذي قرأناه ، واخيراً تكلمنا عن الحياة ، والحب .
ومرت ساعة وبعض الساعة .

وحين وقفت ابغني الانصراف ، خرج من الغرفة
ليحضر لي كتاباً قد صدر حديثاً لاحدى الكاتبات ، وكنت
قد طلبته منه .

بقيت وحدي في الغرفة الغربية ، فأشعلت سيجارة وعدت
اجلس على المقعد المخملي الأخضر ، وعباراته الأخيرة تتردد
في رأسي :

« تسألين ما هو الحب ؟ لا ... الحب ليس عاطفة طارئة
كما قد تعتقدين ... الحب الصحيح هو عقل ومنطق ...
ومثل هذا الحب لا يموت ... انا احبك ... لكنني اعلم
انك عظيمة ... لانك احسن فتاة عرفتھا وسأعرفھا ... »
ابن تفكيري ان يمر بهذه الحملة دون ان يتوقف ليحللها ...
ويتفهمها ... وينتقدھا ...

« انت احسن فتاة عرفتھا ... احسن فتاة عرفتھا »
تضخمت هذه الكلمات ... وضح بها رأسي ...
احسن من غيري !

وهل هذا كاف لتوليد الحب ؟
انا اريد رجلاً يحبني وهو يعلم ان الكثيرات اجمل مني
واذكى مني ... رجلاً يحبني لأن روعي استر ... وروحه ،

ولان افكاري طابقت افكاره ...
ولا اريد ... لا اريد رجلاً يحبني لانه بعد وضعي في
الميزان اكتشف اني احسن من غيري ...!
« الحب عقل ومنطق » ! وهل كنت احببت زياد لو
ان الحب عقل ومنطق ؟
وطار تفكيري الى سهرة ناديا : الأصدقاء كلهم عندها
الآن ... يشربون ... ويرقصون ... ويمرحون ...
ليتني كنت بينهم ، فأضيع معهم في الدخان ... ويعلو
ضحكي ، مع ضحكاتهم رنيناً يختلط بالدخان ... وارقص
على الألحان المتلاشية في الدخان ... واسكر من عير الحمر
المزوج بالدخان ...
لا ... انا احلم ! لم اذهب الى الحفلة ... ولم اعتذر ...
وذهبت الى الرجل الذي يحبني لأن الحب عقل ومنطق !
هو الآن ينتصب امامي ، ويده الكتاب ؛
زحفت نظراتي ببطء وبرود ... فتسلقت قامته المديدة ...
وتوقفت ، غريبة ، عند ثغره ... ثم راحت تنبش في عينيه ...
وتبحث فيهما عن شيء ، عن اي شيء ... عن اثر من
احساساتي الماضية ؛
ولكن عبثاً !
هذه العيون التي كانت تشع ، وتوحي اليّ بالوف
المعاني تبدو فارغة ...
وهذه الشفاه التي كانت تصب الحياة في وجهي وفي

مقلتي ... تبدو متدلّية ... تدل على السذاجة ...
هذا الرجل المنتصب امامي ...
طالما وددت ان اتلاشي في ظله ... طالما تمنيت ان
اضمحل بين ذراعيه ... يبدو مترهلاً ... عادياً ...
اني انظر اليه وكأني أراه لأول مرة ...
أيمكن الا اشعر نحوه بشيء ؟
أيمكن ان يهدأ الحب المتضرم في مدى لحظة ؟
أهكذا تحمد النار الآكلة في ثوان ؟

أنا الآن لم اعد احبه ؟ ام انها عملية طويلة حبكت في
اللاشعور ، وتنبت عليها الآن فقط ؟

تمثل الظفر الحزين بابتسامة هادئة علت شفتي :
— لا شيء ... شكراً ... على الكتاب ... وعلى هذه
السهرة ...

ووقفت ، ومشيت نحو الباب ؛
تبعني يقول :
— ارجو لك ليلة سعيدة ...
ثم اقترب مني ، واطبقت ذراعاها على خصرني ، وجمع
حبه في قبلة حارة تلقتها شفّتي وتتم :
— انت حياتي يا ريم ... انت « عيوني » ... يا لبتك
تدركين كم احبك ... تصبحين على خير ... الى الغد ...

لم يحس التغير في نظراتي ... لم يشعر بالصقيع في شفاهي ...
ولا مرّ في باله اني في هذه اللحظات كنت اشهد تشيع حيي
الكبير ...

ولماذا يفكر في كل ذلك ؟
وهل قال شيئاً يؤلمني ؟ لا ... ابدأ ...
ولكن الاشعور عندي كان ينتظر اقل كلمة يتفوه بها
زياد ليتخذ منها حجة لقتله !

« احسن فتاة عرفتُ ... احسن من غيرك ... »
لا يوجد في هذه الكلمات ما يجرح شعوري ، بل يمكن
ان تعتبر هذه الجملة اطراءً ... لكنها ، في سلسلة الحوادث ،
الجملة الكافية ، والذرة اللازمة كي تطفح الكأس المليئة ...
شؤون صغيرة ... وكلمات مثيرة ... وذكريات مؤلمة ...
تراكمت ... وتراكمت ... وتراكمت ...
وفي الاشعور كونت مرارة ... ثم حقداً ... ثم كراهية ...
وقتل في الحقيقة شيئاً فشيئاً حيي الكبير ...

*

تنبهت على انني اجتزت مسافة بعيدة وانا أقود سيارتي
واستعيد الذكريات ...

ونظرت الى الأمام ...

ضوء القمر يسيل على الطريق ... ولولا النجوم المتألثة ،
للضاحكة ، لاختلطت في ناظري السماء بصحرائنا المترامية ،
هنالك عند الأفق ...

ليتني الآن في طريقي الى بلاد بعيدة ...
ليتني أقود سيارتي في طرقات مجهولة ... وتحت
سماوات غريبة ...

ليتني التقى بوجوه جديدة ...
يجب ... يجب ان اوسع آفاق حياتي ...

ونما التمني في قلبي ... وترعرع ... وملأ جوانحي ...
وفجأة ،

نبع في فكري سؤال واحد ، يرويه :
لماذا ... لماذا لا أرافق خالي وناديا الى اوروبا ؟
لا شيء يستدعي بقائي الآن في دمشق !
سأصحب رانية معي
سنشاهد بلاداً جديدة
و ... سأرى ألفريد ...
اريد ان ارى ألفريد ...

وادرث المقود ... وعدت متجهة الى بيتي ...
ومررت تحت نافذة غرفة زياد ، فرحت اسائل نفسي :
« أيمكن ألا أشعر نحوه بشيء ؟ »
« كيف ... كيف يموت الحب الكبير ؟ »
ولاول مرة ، فهمت جملة قالها « ساشا جيتري » :
« لا يكون الحب حباً كبيراً ، إلا إذا كان له بداية
وتفتح ... ونهاية » ...
وابتسمت ،

نعم ... لقد كان حباً كبيراً ...

واخترقت سيارتي شارع بغداد ؛
الشارع خالٍ من المارة ... وانا وحدي في السيارة ...

وسكون الليل ينحيم على بلدي الحبيب ...
فراغ ... يحيط بي ؛ فراغ ... في قلبي ؛ في الجو فراغ ...
وبرقت عيوني :
ما ابدع الفراغ !
لاول مرة في حياتي اجد في الفراغ معاني جديدة :
كأس جميلة من الكريستال الثمين ... نمنسكها بيدنا ...
زجاجها يشع بالوان الأمل ، والقلق ، والتساؤل ، والانتظار .
نملأها احياناً بمشروب لذيذ ... فهل يزول الفراغ ؟
نعم ... لمدة !
المدة الكافية لاحتساء هذا المشروب ، ثم تعود فارغة ،
وترجع الألوان الموحية تتراقص على زجاجها ...
لذلك ...
ساملاً كأسى برحيق الفن ؛ فالفن نبع فياض ، دفق
وجود لا ينضب ...
مهما غرقنا منه ، يظل يغرقنا بالجمال ... ومهما نهلنا
منه ، يظل يسكرنا بالآمال والحب ...
سأهب حياتي للحرف ؛
سأجعل منه الهى ورفيقي ، وعبدي ...
فأمره ، ساجده ... واعبده ، سيدة ... واشكو اليه
همومي كأنسان حبيب ...

نزلت من السيارة نشطة ، ودخلت بيتي ؛

وشعرت بسرور عميق وانا ارتمي في احضان عشي
للصغير ...

واقتربت من الطاولة ، ونظرت شبقة الى اوراقى
المبعثرة ... والى الحروف الباسمة ، صديقائى ...
وزخرف الفراغ نداءً الهاتف ...

نظرت الى الآلة ؛ رنينك اليوم نعمة حائرة ... تنساب
سؤالاً في هذا الفراغ الجميل ...

تهافت عليها ، فاذا بصوت ناديا ، غاضباً ، معاتباً :
- اين انت ... اين كنت ؟ لماذا لم تأتى الينا ؟ لقد
خابرتك اكثر من عشر مرات ... الأصدقاء كلهم
ينتظرونك ... سيسهرون حتى الفجر ... هل تأتىن ؟
سيذهب خالك تواء اليك ...

قلت بمرح :

- نعم ... نعم سأتى ... فانا ايضاً أريد وداع
الأصدقاء ... قررت ان أرافقكم يا ناديا ...
- هل انت جادة ؟ ماذا جرى ؟

- لا شىء ... لا شىء مطلقاً ... سوى اننى اتوق الى
الضياع في بلد كبير ... اريد ان اكتب ... وفنى بحاجة
الى تجارب جديدة ... الى مشاهد جديدة ... الى وجوه
جديدة ...

- هذا عظيم ... سيذهب خالك فوراً اليك ...

بقيت واقفة انتظر خالي ، وبقيت احلامي تراقص حولي ...
سأسافر ...

نعم ... انا بحاجة الى تجارب جديدة ... الى وجوه
جديدة ...

وحملتني هذه الحملة على التفكير في زياد ...
زياد كان على حق ؛

الحب يزول ، والفن وحده يخلد ...
زياد ؟ وتراءى لي طيفه ... فابتسمت له بخنان ؛
زياد ...

لم يبق منه شيء ، سوى لوحة جميلة في معرض ذكرياتي ...
لوحة ادين لها ...
وسأحنّ اليها دائماً ...
لأنها كانت ينبوع هذه الحروف ...

*

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

اشكر الصديق الفنان

عصمت رضا

الذي أبدع رسم الغلاف

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

انتهى طبع هذه القصة على
مطابع دار الكتب في بيروت
بطريقة مونوتايب .

١٩٦٠

1970-12-211

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة



نصريات



www.ibtesama.com